في علم النفس

سيكولوجية الطفولة والمراهقة

دكتور مصطفى فهمي

لجنة النشر
للجامعيين

في عِلم النفس

سيكولوجية الطفولة والمراهقة

تأليف

دكتور مصطفى فهمي

أستاذ علم النفس المساعد بجامعة عين شمس
(معهد التربية للمعلمين)

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي باشا

دار مصر للطباعة
٣٧ (أ) شارع كامل صدقي ت ٧٥١٤٧

مقدمة الطبعة الأولى

يسرني أن أضيف بكتابي هذا إلى المكتبة العربية موضوعاً جديداً يبحث في سيكلوجية الطفولة والمراهقة وقد حرصت على أن يفيد من هذا البحث المشتغلون بعلم النفس وكذلك القائمون على تربية الأطفال وتنشئتهم.

وإذا كانت بعض موضوعات هذا البحث قد اعتمدت على أبحاث أجريت في أمريكا وأوربا، إلا أننا قد أضفنا إلى ذلك خبرتنا وتجاربنا الخاصة في هذا الميدان.

وكل ما نرجوه أن تكون الأبحاث التي تضمنها هذا الكتاب نقطة بداية تنير الطريق أمام المشتغلين بعلم نفس الطفولة لدراسة النمو في البيئة المصرية التي تكاد تكون في أمس الحاجة إلى هذا النوع من الدراسة.

والكتاب في جملته ينقسم إلى بابين رئيسيين:

الباب الأول — ويشتمل على دراسة النمو في مرحلة الطفولة.

والباب الثاني — ويعرض لدراسة النمو في مرحلة المراهقة.

وقد قصرنا دراسة النمو في مرحلتي الطفولة والمراهقة هنا على الأطفال السويين، وفي النية إن شاء الله تعالى أن نتبع كتابنا هذا بكتاب آخر نعرض فيه لبحث موضوع النمو وما يتعرض له من انحرافات عند الشواذ.

والله سبحانه وتعالى نسأل أن يلهمنا السداد والتوفيق ؟

القاهرة في يوليو ١٩٥٤ — مصطفى فهمي

مقدمة الطبعة الثانية

ما كادت تظهر الطبعة الأولى من هذا الكتاب حتى أقبل عليها القراء في مصر والأقطار الشقيقة ، فنفدت الطبعة في مدة قصيرة .

و إن هذا لدليل على تعطش الجمهور للعلم والمعرفة واهتمامه بمتابعة البحوث والدراسات التي تظهر من وقت لآخر في ميادين علم النفس المختلفة .

هذا وقد ضمنت الطبعة الثانية من هذا الكتاب — بالإضافة إلى موضوعات الطبعة الأولى — باباً ثالثاً خصصته لبحث موضوع النمو ومايتعرض له من انحرافات عند الشواذ .

وقد عنيت في هذه الطبعة للكتاب باستيفاء بعض الموضوعات التي ظهرت مختصرة في الطبعة الأولى ، وخاصة موضوعات الباب الثاني .

ولعل الكتاب في طبعته الثانية يحقق ما قصدناه من تحسين و بذلك تعم فائدته ، والله ولي التوفيق ؟

سيدي بشر في ١٢ يوليو ١٩٥٥ — مصطفى فهمي

المدخــــل

(أولا) الاهتمام بدراسة الطفولة السويّة والشاذة

(ثانيا) علم نفس الطفولة وطبيعـــــة النمو

(أولا) الاهتمام بدراسة الطفولة

تمهيـــد :

ليس الاهتمام بدراسة الطفولة أمراً جديدا فى كتابات العلماء والباحثين ، ويبدو هـــذا الاهتمام جليا فيما كتب منذ عهد أفلاطون ، فقد اتضحت فى كتابات هؤلاء العلماء — سواء من كان يشتغل منهم بالفلسفة أو بالطب أو بعلوم التربية — أهمية الصحة الجيدة فى سعادة الأطفال .

تلك نظرة القدامى من المهتمين بدراسة الطفولة وهى نظرة أساسها وضع حدود الصحة والمرض والبحث فى طرق الوقاية والعلاج . وعندما تقدمت وسائل البحث وتنوعت سبل التجريب ، تعدى نشاط العلماء هذه الحدود ، إلى دراسة نواح أخرى من حياة الأطفال: كيف يفـكرون ؟ وكيف يشعرون؟ وكيف يسلـكون ؟ ولقد تطلبت أمثال هذه الأبحاث دراسات طويلة من أناس كرسوا حياتهم لمعرفة الطريقة التى ينمو بها الطفل فى نواحى النمو المختلفة ، من بدنى وحسى وحركى وانفعالى وعقلى ولغوى ومدرسى واجتماعى .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الطفولة لم تدرس دراسة منظمة إلا ابتداء من النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ثم ازدهرت هذه الدراسات واتسع نطاقها فى القرن العشرين ، وأصبحت تدرس لذاتها كموضوع هام من موضوعات علم النفس العام ، بعد أن كانت تدرس فى نطاق علم النفس التعليمى . ويتضح ذلك من دراسات « بستالوتزى » و « هربارت » و « فروبل » ؛ تلك الدراسات التى كانت ترمى إلى ربط مراحل النمو المختلفة بنظريات التربية الحديثة .

البحوث الجديدة فى ميدان دراسة الطفولة السوية :

يظهر سنويا عدد كبير من المقالات والأبحاث العلمية التى تعالج موضوع الطفولة ، وهى تتضمن معلومات غزيرة عن نمو الأطفال فى شتى نواحيه .

وتقوم هذه الأبحاث على ملاحظة الطفل ملاحظة دقيقة فى الأسرة والمدرسة والمجتمع ، ثم تتبع هذه الملاحظات بتجارب فى المعمل لتحقيق صحة ما يصل إليه الباحث عن طريق الملاحظة العارضة ، بوساطة التجريب القائم على الملاحظة المقصودة والقياس .

وتظهر خلاصة بعض هذه الأبحاث فى المجلد الكبير الذى صدر فى أمريكا فى عام ١٩٥٤ باسم (Manual of Child Psychology) ، صدره « ليونارد كارميكل » بمقدمة أوضح فيها ما وصلت إليه البحوث الجديدة فى دراسات الطفولة من تقدم ملموس . وقد تضمن هذا المجلد الضخم أحدث أبحاث « جون أندرسن » مدير معهد رعاية الطفولة الملحق بجامعة (مينى سوتا) ، فى طرق البحث الخاصة بعلم نفس الطفولة ؛ كذلك قد تضمنت هذه الموسوعة الأبحاث الخاصة بالدكتور « ليونارد كارميكل » سكرتير (Smithsonian Institution) عن سلوك الأطفال فى المراحل الأولى من النمو . وبالإضافة إلى ما سبق ذكره فقد عولجت الموضوعات التالية :

١ — النمو الانفعالى عند الأطفال (أرثر جيرسيلد) .

٢ — التعلم فى الطفولة (نورمان من) .

٣ — النمو الجسمى (هيلين تومسون) .

٤ — الحياة الجنينية (كارل برات) .

٥ — البيئة والنمو العقلى (هارولد جونز) .

٦ — قياس النمو العقلى فى الطفولة (فلورنس جود إنف) .

٧ — النمو اللغوى فى الطفولة (دورثى مكارثى) .

٨ — الأطفال الموهوبون (كاترين كوكس مايلز) .

٩ — دراسات فى الطفولة فى بيئات بدائية (مارجريت ميد) .

١٠ — العامان الأولان من حياة الطفل (أرنولد جيزل) .

ولم تكن الدراسات الخاصة بالطفولة قاصرة على أمريكا ، بل اتسعت هذه البحوث وازدهرت فى الكثير من الممالك والدول الأوروبية . فهنالك مثلا فى انجلترا الأبحاث القيمة التى قامت بإجرائها « سوزان أيزاكس » . أما فى سويسرا فقد أدت الدراسات التى قام بها كل من « كلاباريد » و « بياجيه » إلى اتساع آفاق علم نفس الطفولة . يقابل هذه النهضة العلمية ، نهضة أخرى فى فرنسا وألمانيا والنمسا ، قادها — فى وقت ما — « جيوم » و « شترن » و « شارلوت بوهلر » .

دراسة الانحرافات المختلفة التى تطرأ على نواحى النمو :

لم تكن الدراسات الخاصة بعلم نفس الطفولة مقصورة على نواحى النمو العادى ، بل تعدت ذلك إلى دراسة الانحرافات المختلفة التى تطرأ على نواحى النمو . وهنا برزت عناية بعض الباحثين بسيكلوجية الشذوذ والانحراف .

إن علم نفس الشواذ علم قديم ترجع معرفة الناس به إلى عصر ما قبل الميلاد . وسنذكر فيما يلى عرضاً تاريخيا لثلاثة مظاهر من الانحرافات وهى :

(أولا) العرض التاريخى للأبحاث المتصلة بالاضطرابات العقلية .

(ثانيا) العرض التاريخى للأبحاث المتصلة بالضعف العقلى .

(ثالثا) العرض التاريخى للأبحاث المتصلة بالنزعات الإجرامية باعتبارها نوعا من الشذوذ الاجتماعى .

(أولا) العرض التاريخى للأبحاث المتصلة بالاضطرابات العقلية :

إن دراسة الاضطرابات العقلية (الخلل العقلى) دراسة قديمة ترجع معرفة الناس بها إلى عصر ما قبل الميلاد حيث كان يعتقد إذ ذاك أنه تسيطر على بعض الأفراد أرواح شريرة . وكانت وسائل العلاج التى تقدم لأمثال هؤلاء الأفراد التعساء متنوعة : فهنالك من كان يثقب ثقبا فى جمجمة المصاب ليسمح للروح المحبوسة بالخروج من محبسها ، وهنالك من كان يقوم بتقييد المصاب بالسلاسل أو يكويه بالنار أو يجعل الدماء تنزف منه ، إلى غير ذلك من وسائل التعذيب التى كان يعتقد حينئذ أنها مجدية فى الشفاء . ووجه الشبه قريب بين تلك الوسائل العلاجية وما يقوم به السحرة حاليا بين الجماعات البدائية التى تعيش فى المناطق الاستوائية بالقارة الإفريقية ، عندما يصاب أحد الأفراد بلوثة عقلية .

الكهانة فى الشرق والخلل العقلى :

قد كان للكهان من أصحاب الثقافات القديمة وسائلهم الخاصة فى علاج الخلل العقلى . كان هؤلاء الكهان بسبب ما أوتوه من مميزات وقوى يعتقدون أنهم متصلون بالجان ، فقد كانوا يوهمون الناس ، أو أن الناس كانوا يتوهمون أن لهم تابعين من الجن يساعدونهم فى مهنتهم وأن هؤلاء التابعين كانوا يسترقون السمع ويخطفون الأخبار من السماء ويلقونها فى روح الكهان فينطق هؤلاء بها . وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يقدم هؤلاء الكهان المرضى من الناس ، التعاويذ والرقى وكانوا يؤملون فيها آمالا كبيرة فى الشفاء .

ولقد كان للكهانة والسحر عند العرب شأن عظيم وتأثير غير قليل فى أذهانهم ومشكلاتهم النفسية والروحية . وكان العرب ينظرون إلى الكهان

نظرة احترام وتقدير ويرون فيهم أطباءهم الروحانيين يفزعون إليهم فى كل ملمة نفسية ومشكلة روحية تطرآن عليهم وتحدثان لهم إزعاجاً وقلقا واضطرابا وينشدون لديهم الطمأنينة والمعرفة[١] .

ونذكر على سبيل المثال ما حدث للنبى صلى الله عليه وسلم عندما نزل عليه الوحى ، فقد ذهب إلى (خديجة) وأخبرها بما حدث ، إلا أنها لم تصدقه واعتقدت أن بعقله مساً . ثم قامت خديجة وجمعت ثيابها وانطلقت إلى (ورقة ابن نوفل) وكان (ورقة) قد قرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع صوتاً من السماء . فقال (ورقة) « لقد جاءه الناموس الأكبر الذى يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت »[٢] .

الخلل العقلى عند اليونان:

حدث هذا فى الشرق ، أما فى الغرب فإننا نجد أن (أبقراط) Hirrocrates (٤٦٠ — ٣٧٠ ق . م) الفيلسوف اليونانى ، قد درس موضوع الخلل العقلى ، وقدم نظرية تقوم على أن المخ هو مركز النشاط العقلى وأن أى مرض فيه يؤدى إلى الخلل العقلى .

وهكذا أنكر (أبقراط) أثر الخرافات والسحر والأرواح الشريرة فى حدوث وتفسير وعلاج المرض العقلى . ولقد قدم (أبقراط) نتيجة لنظريته الجديدة أنماطا مختلفة من العلاج : نزف الدم (الفصد) والموسيقى والرياضة والحمامات الساخنة وتقديم أنواع خاصة من الطعام . ومجمل القول أنه منذ أيام (أبقراط) بدأت العناية بالمصابين بالشذوذ العقلى وبدأ النظر إلى تلك الفئة

---

(١) من كتاب عصر النبى وبيئته قبل البعثة ، تأليف محمد عزة دروزة . ص ٢٩٣
(٢) من كتاب سيرة النبى ، للشيخ الإمام محمد بن هشام . الجزء الأول ص ٢٢٧

من الناس على كونهم آدميين يجب علاجهم بطرق إنسانية ، بعد أن كان ينظر إليهم على أنهم فئة تستحق النبذ والاحتقار والتعذيب والعزل من الحياة والإيداع فى غياهب السجون . والضرب بالسياط والربط بالسلاسل .

الخلل العقلى فى القرون الوسطى :

لم تجد الصيحة التى قام بها (أبقراط) وأتباعه أية استجابة فى القرون الوسطى ، فقد اندثرت نظريته خلال القرون الطوال التالية . ومن ثم أصبح الاعتقاد الغالب فى القرون الوسطى ، لا يمت بصلة إلى تلك النهضة التى قام بها فلاسفة اليونان . وهنا وجد المشتغلون بأمر الشذوذ العقلى أنفسهم أمام الاتجاه القديم الذى كان يقوم على الخرافات والبحث فى شئون الجن والشياطين والسحر ، وخلاصة القول إن دراسة الشذوذ العقلى خلال القرون الوسطى لم تتطور وتزدهر ، بل على العكس من ذلك فقد أصابها نوع من التدهور والانتكاس وذلك بسبب سيطرة رجال الدين على أفكار العلماء ووضعهم العراقيل أمام كل تطور جديد ، كل ذلك لضمان سيطرتهم على العقول .

حدث هذا فى القرون الوسطى ، أما فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد بدأ يشع النور ثانية على الأبحاث الخاصة بالخلل العقلى ، وذلك على أثر الدراسات الكثيرة التى أجريت على الإحساسات والانفعالات ، وكان من نتائج ذلك أن قامت الثورة ضد البحث فى الجن والشياطين والأرواح كأساس لفهم الأمراض العقلية . وكان من نتيجة هذه الثورة أن بدأ التفكير يتجه ثانية نحو أبحاث (أبقراط) وأتباعه والتى كانت تقول : إن المخ هو عضو العقل وهو مركز النشاط العقلى ، وأن خير علاج للأمراض العقلية لا يكون بالصلوات والسحر والرقى أو بالتعذيب والحرمان أو بنزف الدماء (الفصد) ؛ فهذه كلها

وسائل لا تتصل بمصدر العلة ، بل يجب إنـكار هذه الوسائل والالتجاء إلى الوسائل النفسية التى تقوم على المشاركة الوجدانية والعمل على تخفيف آلام المريض[١] .

ومنذ ذلك الوقت أخذت العناية بالمرضى بالاضطراب العقلى تتقدم تقدما ملموسا ؛ ففى انجلترا مثلا أنشئت أول مستشفى لهم فى عام ١٧٦٥ بالقرب من مدينة (يورك) على أثر إصابة الملك جورج الثالث بالجنون ، وذلك بناء على قرار أصدره البرلمان الإنجليزى ، كان العلاج فى هذه المستشفى يقوم على أساس من المعاملة الإنسانية والمشاركة الوجدانية والالتجاء إلى الوسائل النفسية التى من شأنها تخفيف آلام المريض[٢] .

(ثانياً) ضعاف العقول والتطور التاريخى لمشكلتهم :

اهتمت المجتمعات منذ قديم الزمان بمشكلة الضعف العقلى وخاصة الحالات التى تبدو فيها مظاهر هذا الضعف واضحة جلية . هذا وقد اختلفت وجهات

---

(١) علم النفس الفردى ، للدكتور اسحق رمزى (الطبعة الثانية) .

(٢) من وسائل العلاج حتى كانت منتشرة فى القرن الثامن عشر ، ما عرف باسم التدليك المغناطيسى . وصاحب هذه الطريقة العلاجية الدكتور (مزمر) الذى كان يمارس مهنة الطب فى مدينة فينا (١٧٣٤ — ١٨١٥) وخلاصة نظرية (مزمر) وهى المعروفة باسم نظرية المغناطيسية البدنية « إن الإنسان يستمد القوة المغناطيسية من الكواكب ويختزنها فى بدنه وإنه يستطيع أن ينقلها بوساطة اللمس إلى أجسام المرضى فيدب فيهم دبيب الصحة .

ولقد قامت فى وجه النظرية المغناطيسية البدنية وكذلك العلاج بالتدليك المغناطيسى هجمات عنيفة من النقد . ومن أعنف هذه الهجمات العلمية ما قام به صاحب مجلة (لانست) التى تصدر فى لندن . ومن ثم أخذت الشكوك تسود مجالات هذه الأبحاث وبدأ العلماء يعتبرون أن العلاج المترتب عن هذه النظريات إنما هو نوع من التهريج وأن الأجدر بالقائلين به أن يعرضوه على الناس فى المسارح الشعبية لا فى المستشفيات الجامعية .

وكان على أثر هذه الهجمات أن ضعف الإيمان (بالمزمرية) واتجه الاهتمام نحو اعتبارها ليست مسألة قوة مغناطيسية بدنية وإنما هى قبل كل شىء مسألة إيحائية نفسية .

نظر الشعوب فى طريق معاملة هذه الفئة من الأطفال . ففى (اسبرطة) مثلا وحسب قوانين (ليكارجوس) ، كان يعامل ضعاف العقول من الأطفال معاملة بقية الضعفاء فى النواحى الأخرى ، فقد كان القانون ينص على إهلاكهم عن طريق تعرضهم للهواء فى جو قارس البرودة . وفى حالات أخرى كان يلقى بهم بملابسهم فى نهر (أوروتاس) حتى تزهق أرواحهم .

و يشبه هذا الاتجاه ما كان يحدث فى ألمانيا النازية حيث كان يعامل ضعاف العقول — أو على الأقل المستويات الدنيا منهم — معاملة لا تخلو من القسوة .

أما أيام الدولة الرومانية القديمة فقد كانت القوانين تنص على إعدام المشوهين وضعاف العقول ، فيما عدا فئة قليلة منهم كان يسمح لها بالحياة لتستغل فى تسلية الناس و إضحاكهم .

تلك كانت نظرة المجتمعات لضعاف العقول فى اليونان القديمة وكذلك خلال حكم الدولة الرومانية ، وهى نظرة — كما رأينا — تتضمن معنى المهانة والتحقير . أما فى المجتمعات الشرقية القديمة ، فقد كان الناس ينظرون إلى ضعاف العقول نظرة تقديس ، وذلك بناء على الفكرة السائدة فى أذهانهم فى ذلك الوقت من أن لديهم قوة إلهية تخصهم دون غيرهم من البشر العاديين — وأعتقد أن هذا الرأى ما يزال يؤمن به البعض فى الريف المصرى ، حيث يوجد من يعتقد أن ضعاف العقول من أحباب الله .

ولقد كان ظهور المسيحية عاملا من العوامل التى ساعدت على تغيير النظرة إلى ضعاف العقول وطريقة معاملتهم التى كانت سائدة أيام حكم اليونان والرومان قبل ظهور المسيحية . و يستدل على ذلك بما يأتى : فى فرنسا مثلا نجد لفظ (Crétin) — وهو الاصطلاح الذى يطلق الآن على فئة من ضعاف العقول — مشتق من كلمة (Chrétien) أى مسيحى . كما أن الاصطلاح

(Les enfants du bon Dieu) إنما هو اصطلاح شائع كان يطلق على الأطفال ضعاف العقول . ومن هذا نرى أثر المسيحية فى رعاية البلهاء والمعتوهين فى فرنسا .

أما فى انجلترا فقد أخذ هذا الاتجاه شكلا آخر إذ صدرت فى عهد الملك (إدوارد الأول) بعض التشريعات التى فرقت بين المصابين بالضعف العقلى والخلل العقلى .

الدراسات الخاصة بالضعف العقلى فى القرن الثامن عشر :

فى عام ١٧٩٨ قام عالم فرنسى يدعى (إيتارد) بتطبيق الوسائل العلمية العملية الخاصة بالشواذ على طفل متوحش وجد ضالا فى غابة (أفيرون) بالقرب من باريس . كان هذا الطفل يخرج أصواتا تشبه أصوات الحيوانات كما كان يسير على قدميه وذراعيه ويستعمل أسنانه وأظافره عندما يحاول أن يبعد عن نفسه الأذى . حاول (إيتارد) تعليم هذا الطفل الأبله فترة بلغت خمس سنوات، وقد استعمل معه نفس الطرق التى كان يستعملها (Periére) فى تدريب وتعليم الصم البكم وعلى الرغم من أن (إيتارد) قد عجز عن تعليم هذا الطفل ولم تثمر جهوده فى رفع مستواه العقلى والاجتماعى ، إلا أنه استطاع أن يثير اهتمام الناس والباحثين بمشكلة ضعاف العقول .

ولقد شجعت محاولات (إيتارد) تلميذه (سيجان) على أن ينشىء فى باريس فى عام ١٨٣٧ أول معهد لضعاف العقول فى فرنسا . ولقد ذكر (Esquirol) [1] عبارته المشهورة مشيدا بفضل (سيجان) فى ميدان الضعف العقلى :

"Séguin removed the mark of the beast from the forehead of the idiot " .

---

(١) كان « اسكيرول » أول من فرق بين ضعاف العقول والذهانيين وذلك فى عام ١٨٣٨

أما فى انجلترا فقد أدت صيحة المحسن (أندرو ريد) إلى إنشاء أول مؤسسة للبلهاء فى منطقة (هاى جيت) فى مدينة لندن وذلك عام ١٨٤٠ . وقد كانت هذه المؤسسة تحت رعاية الملكة فكتوريا . ولقد ورد فى لائحة هذه المؤسسة أنها مشمولة بالرحمة الإلهية وأنها تعتمد اعتمادا كبيرا على تبرعات الناس وما يقدمونه من إحسان . وقد كان نجاح هذه المؤسسة عظيما مما أدى إلى تدريب عدد من نزلائها على الأعمال اليدوية البسيطة . وفى عام ١٨٥٥ نقل نزلاء المؤسسة إلى بناء جديد نموذجى فى منطقة (سارى) .

وفى عام ١٨٨٦ صدر في انجترا قانون خاص بالمعتوهين نص على ضرورة العناية بهم . وكان من نتائج هذا القانون أن انشئت عدة مدارس خاصة فى طول البلاد وعرضها لاستقبال ضعاف العقول والعناية بهم . وفى عام ١٩٠٤ تألفت لجنة لوضع الأسس الواجب مراعاتها فى معاملة ضعاف العقول والأخذ بيدهم . ولقد دامت اجتماعات هذه اللجنة عدة سنوات ثم أصدرت قراراتها فى عام ١٩٠٨ . ومن أهم ماجاء فى تقريرها : « أنه يوجد عدد كبير من ضعاف العقول يعيشون فى المجتمع دون عناية أو رعاية كما لا توجد عليهم رقابة كافية ، وقد نتج عن ذلك أن صدرت ضد الكثير منهم أحكام عديدة ترتب عليها دخولهم السجون . » ولقد كان لقرارات هذه اللجنة أثر فعال فى صدور قانون فى عام ١٩١٣ نظم طرق الإشراف والعناية بالفئات المختلفة من الضعف العقلى .

ولقد قامت فى فرنسا — فى الوقت ذاته — حركة مماثلة ، ذلك أن وزير المعارف الفرنسية استشار فى عام ١٩٠٤ الدكتور (بينيه) فى موضوع تعليم الأطفال المتأخرين عقليا وكان من نتيجة ذلك أن وضع فى عام ١٩٠٥ أول مقياس للذكاء .

(ثالثا) التطور التاريخى لمشكلة النزعات الإجرامية :

تتبعنا باختصار التطور التاريخى لناحيتين من نواحى الانحراف أو الشذوذ (الاضطراب العقلى والضعف العقلى) . وفى كل منهما كان الشذوذ يتعلق بالفرد نفسه دون أن ينجم عن ذلك أى ضرر بالغير .

إلا أنه بجانب ذلك فهنالك ناحية أخرى من الإنحرافات لها تاريخ قديم ، ألا وهى النزعات الإجرامية .

يرجع الاهتمام بدراسة هذه الناحية إلى أرسطو (٣٧٤ — ٣٢٢) قبل الميلاد ، الذى إهتم بدراسة تقاطيع الوجه وسيمائه وعلاقة ذلك بسلوك الأفراد . وظل الأمر على هذا النحو فترة طويلة من الزمن كان يفسر فيها الإجرام على أساس من علم الفراسة (Physiognomy) .

وظل الأمر على هذ النحو حتى كان عهد الامبراطور (فرانسوا جوزيف) ، حين أخذ (جول) يهتم بدراسة شكل الجمجمة للحكم على شخصية الفرد . ويعرف هـذا العلم باسم (Phrenology) أى معرفة قوى النفس بالنظر إلى الجمجمة .

أخذ علم (الفرينولوجى) يتقدم على أيدى تلاميذ (جول) ، أمثال : (Spurzheim) و (Combe) ، إلى أن قام فى إيطاليا عالم من علماء (الانتروبولجيا) يدعى (لمبروزو) أخذ ينادى بمبدأ جديد يقوم على ربط الجريمة بالوراثة . وقد دلل على ذلك بدراسات مستفيضة لبعض الحالات . من الحالات التى ذكرها للتدليل على ذلك ، الأسرة المعروفة باسم (Jukes) حيث درس حوالى ٣٠٠٠ فرد من هذه العائلة فوجد أن حوالى ٣٤ ٪ منهم

إما من المجرمين أو اللصوص أو النساء العاهرات . ويقول (لمبروزو) إن الجد الأكبر لهذه الأسرة كان من الخارجين على القانون .

ولقد استعرض (برت) فى كتابه « الجانح الصغير » آراء (لمبروزو) وذكر بعض الحالات المماثلة . ومن بين هذه الحالات ، حالة الطفلة (جريس) التى أحضرتها معلمتها إليه عندما كان يعمل مستشارا نفسيا لمنطقة لندن التعليمية . شكت المعلمة من أن الطفلة كانت تسرق من زميلاتها بالفصل . وعند فحص الحالة اتضح له أن والد الطفلة رجل سكير من الخارجين على القانون ، يعيش مع والدتها حياة غير شرعية ، كما أنه يدفعها إلى الفسق والفجور من وقت لآخر . هذا وجد الطفلة من أصل فرنسى ، هاجر من فرنسا إلى انجلترا عندما صدرت عليه بعض الأحكام . وفوق ذلك فإن للطفلة عمتين تعملان بالسوق السوداء . . . الخ .

وعلى الرغم من كل ذلك فإن (برت) وغيره من العلماء لم يأخذوا بنظرية (لمبروزو) من أن الجريمة تورث ؛ وقد أثبتت الأبحاث قبل ذلك بطلان علم الفراسة .

(ثانيا) علم نفس الطفولة وطبيعة النمو

(ا) معنى النمو :

يتعرض الكائن الحى لكثير من التغيرات والتطورات التى تلحقه جنينا ، وليدا ، فرضيعاً ، فطفلا ، فمراهقا ، فشابا ، فرجلا ، فشيخاً فهرما . إن الكثير من التغيرات التى تحدث فى المراحل الأولى من الحياة تتجه نحو تحقيق غرض ضمنى غير واضح فى ذهن الكائن الحى ، وهو النضج والبناء . على حين تعتبر تلك التغيرات التى تحدث فى أدوار متعاقبة من حياته — وخاصة فى دورى الشيخوخة والهرم — من النوع الهدام الذى ينهى الحياة .

ولا شك أننا نقصد بالنمو ، تلك التغيرات الإنشائية ، البنائية التى تسير بالكائن الحى إلى الأمام حتى ينضج .

إن كلمة النمو فى معناها الخاص الضيق ، تتضمن التغيرات الجسمانية والبدنية ، من حيث الطول والوزن والحجم ، نتيجة التفاعلات الكيماوية التى تحدث فى الجسم . ولكن معناها العام يشمل بالإضافة إلى ما سبق التغير فى السلوك والمهارات نتيجة نشاط الإنسان والخبرات التى يكتسبها عند استعمال عضلاته وأعصابه وحواسه وباقى أجزاء جسمه . ويتضمن هذا المعنى كذلك ، التغيرات التى تطرأ على النواحى العقلية والانفعالية والاجتماعية والحسية والحركية .

(ب) نواحى النمو :

يتضمن النمو نواحى عديدة ، فهناك نمو يتصل بالنواحى البدنية أو الجسمية ، وهناك نمو يتصل بالنواحى العقلية ، المعرفية وهناك نمو يتصل بالنواحى الانفعالية بالإضافة إلى ذلك النمو الذى يتصل بالدوافع والحوافز والاتجاهات والميول .

ويجب ألا يغيب عن الذهن أن تلك النواحى المختلفة تعمل فى انسجام وتوافق تام ، وهـذا التقسيم الدراسى لا يوجد ما يناظره فى طبيعة الكائن الحى ، فهذه النواحى تعمل كوحدة متماسكة يؤثر كل منها فى الآخر . فالنمو العقلى والانفعالى مثلا يتأثران إلى حد كبير بالنمو الجسمى . ونستطيع إيضاح ذلك ببعض الأمثلة :

الحالة الأولى : لطفل كان يشكو تأخرا فى نموه الجسمى نتيجة مرض تعرض له فى طفولته المبكرة . وتسبب عن ذلك شعور بالنقص أدى إلى اضطراب فى حياة الطفل الاجتماعية داخل المدرسة وخارجها ؛ مما أدى به إلى الفرار من المدرسة و إلى الإضطراب الانفعالى الذى أثر فى تـكامل شخصيته . والمدرسة مسئولة عن كل ذلك ، فلو أنها تداركت أمر التلميذ فى طفولته المبكرة لما حدثت تلك المضاعفات التى أثرت فى حياة الطفل المدرسية وعاقت شخصيته عن التكامل .

والحالة الثانية : صبى بدين الجسم ، كان رفاقه بالمدرسة يسخرون منه ويلقبونه بألقاب تبعث على تحقيره . وقد ترتب على هذا أن أصبح سلوك الطفل عدوانيا لمن دونه فى السن ، كما كان لا يجرؤ إلا على الإختلاط بالاناث من الرفاق . وقد أدى به هذا النوع من السلوك إلى عجزه عن مواجهة الصعاب وتحمل المسئوليات ، مع عدم نضج فى الناحية الانفعالية عند ما تقدمت به السن .

وهكذا نرى أن نواحى النمو المختلفة (الجسمية والعقليـة والانفعالية والاجتماعية) تعمل فى وحدة وانسجام ، وأن الاضطراب أو النقص أو الشذوذ فى أى ناحية من نواحى النمو ، يؤدى بدوره إلى اضطراب فى التـكوين العام للشخصية .

(جـ) العوامل التى تؤثر فى النمو :

هناك مجموعة من العوامل لها أثرها فى النمو ، وتعمل هذه العوامل المختلفة متداخلة ، بمعنى أن كلا منها يؤثر فى الآخر ، كما يتأثر به . وفيما يلى نذكر أهم تلك العوامل التى تحدد وتوجه عملية النمو :

(١) العوامل الوراثية :

تبدأ الحياة بخلية واحدة تتكون من (السيتو بلازم) ومن النواة . ويوجد بداخل النواة شبكة كروماتينية مكونة من خيوط رفيعة تسمى باسم الكروموزومات (Chromosomes) عليها بقع صغيرة تسمى الجينات (genes) ، وهى حملة الاستعداد الوراثى .
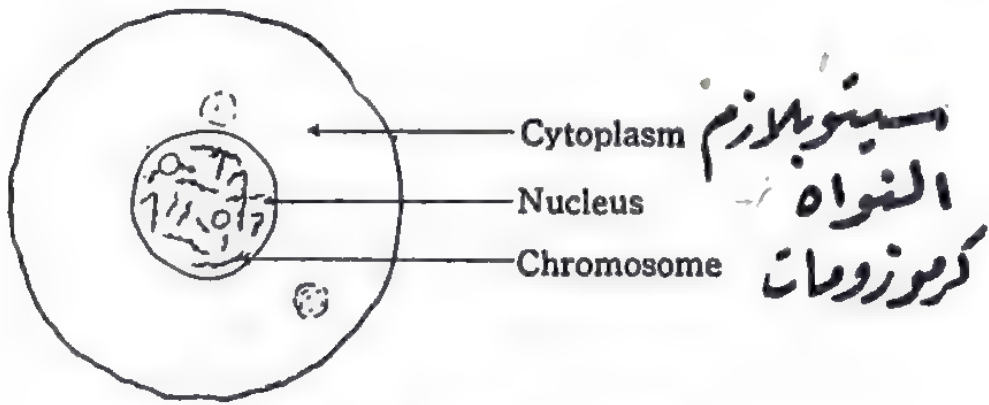
(شكل ١) تكوين الخلية

وتلعب الوراثة دورا هاما فى تحديد خصائص النمو منذ اللحظة الأولى التى تتم فيها عملية الإخصاب بالرحم . فقد أثبت علماء الحياة والوراثة أن الخلية الواحدة التى تبدأ بها الحياة تحمل ٢٤ زوجا من الكروموزومات (انظر شكل ٢) ، بعضها من الأب والبعض الآخر من الأم : وكل زوج من هذه الكروموزومات مقسم إلى عدد كبير من الجينات (انظر شكل ٣) ، وهى التى تميز كل فرد عن الآخر من حيث الطول والقصر والوزن ولون الشعر والبشرة والعينين ودرجة الذكاء والحساسية الانفعالية .
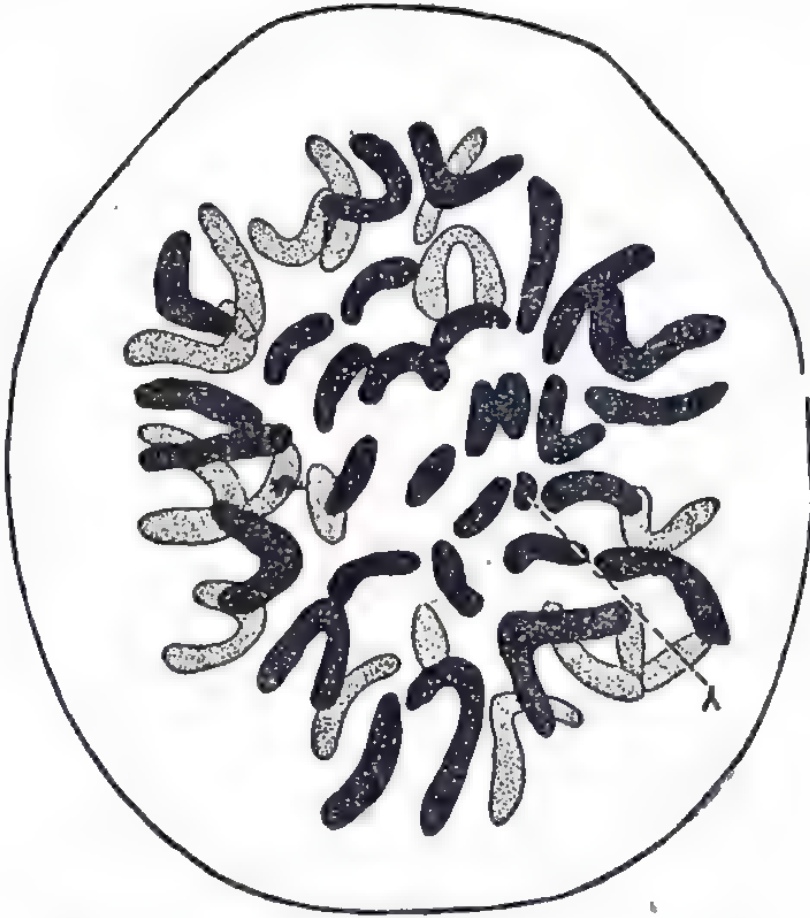
(شكل ٢) منظر الكروموزومات فى الخلية
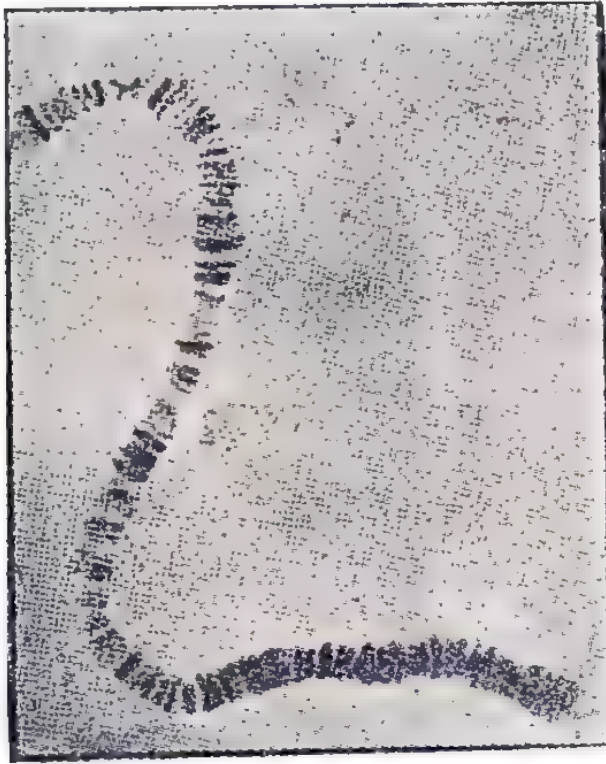
(شكل ٣) كروموزوم واحد عليه الجينات

وهذه الجينات لا تعمل منفردة ، بل يؤثر كل منها فى الآخر ، كما أنها تتأثر بالمجال الذى تنشأ فيه : فإصابة الأم مثلا فى الأسبوعين الأولين من الحمل (بالحصبة الألمانية) مدعاة إلى احتمال تعرض الجنين لإصابات فى العين أو الأذن

أو القلب . وقد يحدث فى بعض الحالات الأخرى أن ينتج عن الولادة العسرة التى تحدث جروحا وكدمات فى المخ ، أن يتحول الطفل الذى عنده استعداد لأن يكون مفرط الذكاء إلى طفل أبله أو معتوه . ويتسبب عن إصابة الطفل فى الأسابيع الأولى من حياته بالحمى القرمزية أن ينشأ ضعيف القلب ، بالرغم من أن استعداداته الموروثة كانت تؤهله ليكون بطلا رياضيا .

ويتضح من هذه الأمثلة المتنوعة كيف تؤثر البيئة الخارجية فى الاستعدادات الوراثية التى يولد الطفل مزودا بها . إن تأثير العوامل البيئية فى الاستعدادات الموروثة يختلف من سمة إلى أخرى . فمثلا يلاحظ ألا أثر للبيئة على لون العين أو الشعر وملامح الوجه وتكوين الجسم من حيث الطول أو القصر ، فهذه سمات أو خصائص تحددها الوراثة . أما الصحة والقوة والقدرة العقلية والقابلية للاصابة ببعض الأمراض دون الأخرى ، فهذه أمور تتأثر بالاستعداد الوراثى من جهة ، وبالظروف الخارجية من جهة أخرى . فقد يحدث مثلا أن يكون لدى الشخص استعداد موروث للاصابة بمرض السل ، ولكن العوامل البيئية قد لا تظهر هذا الاستعداد ، وفى حالات أخرى مخالفة ، تعمل تلك العوامل على إظهار ما لدى الفرد من استعداد مرضى .

(٢) الغدد :

للغدد وإفرازاتها تأثيرات واضحة فى عملية النمو . ومن أهم الغدد التى تؤثر فى سرعة النمو فى السنة الأولى من حياة الطفل ، الغدة الدرقية (Thyroid) وموضعها أسفل الرقبة أمام القصبة الهوائية ، ووظيفتها إفراز (الثيروكسين (Thyroxin) ، وهو يؤثر فى تنشيط الأعصاب . وأى نقص فيه يؤدى إلى تأخر المشى والكلام والقدرة على تحريك الأطراف ، كما يجعل نمو العظام غير طبيعى

ويؤثر فى تكوين الجسم والهيكل العظمى ويجعله معوجا ، بالإضافة إلى خشونة الجلد وعدم انتظام الأسنان وتأخر نموها ، أما إذا كانت هناك زيادة فى إفراز تلك الغدة ، فإنه ينتج عن ذلك المرض المعروف باسم (Graves' disease) وأعراضه هى: بروز فى العينين ، وسرعة فى التنفس ، وفى تتابع ضربات القلب وحساسية شديدة فى الناحية الانفعالية .

الغدة النخامية : (Pituitary)

هى غدة أخرى من الغدد الصماء[١] ، وهى صغيرة الحجم توجد فى قاع المخ . وتتكون هذه الغدة من جزأين هما : الفص الأمامى (Anterior lobe) والفص الخلفى (Posterior) . وتؤثر إفرازات الفص الأمامى فى عملية النمو الجسمى ؛ فإذا نقصت هذه الإفرازت ، يلاحظ تأخر النمو الجسمى ، ويكون ذلك على شكل ضآلة فى الجسم ، وتأخر فى النضج ، وخاصة نضج الجهاز العظمى .

الغدة التيموسية والصنوبرية :

الغدة التيموسية (Thymus) ، تقع فوق القلب ، أما الغدة الصنوبرية (Pineal) فتقع فى قاع المخ خلف الغدة النخامية . وتتعرض الغدتان عادة للضمور قبل مرحلة البلوغ ، وهذا الضمور يتيح فرصة العمل للغدد التناسلية . وإذا لم تضمر هاتان الغدتان بقى الفرد — رغم نموه الجسمى — كالطفل فى سلوكه وعاش ضعيف الإرادة رفيع الصوت . وأحياناً يحدث ضمور هاتين الغدتين فى وقت مبكر ، فتنشط الغدد التناسلية وتعمل قبل السن المألوفة ، وعندئذ يحدث النضج الجنسى المبكر .

---

(١) الغدد نوعان : غدد صماء (endocrine) وتصب إفرازاتها فى الدم مباشرة ، وغدد غير صماء (duct glands) وتصب إفرازاتها فى الخارج ؛ مثل الغدد اللعابية والدمعية والعرقية .

البارائيرويد : (Parathyroids)

هى عبارة عن أربع غدد صغيرة ملاصقة للغدة الدرقية (Thyroid) ، وإفراز هذه الغدد له علاقته بحاجة الجسم إلى الكلسيوم والفسفور ، وينتج عن نقص إفراز هذه الغدد آلام المفاصل والعضلات ، كما ينتج عن زيادة إفرازها ليونة فى العظام تجعلها مشوهة .

الغدد الأدرينالية : (Adrenal glands)

وهما غدتان موقعهما فوق الكليتين . وتتكون كل غدة منهما من جزأين : جزء خارجى (Cortex) وجزء داخلى (Medulla) . وتفرز القشرة (الجزء الخارجى) هرمونات لها علاقة كبيرة بالمهارة العضلية وبالنواحى الجنسية والعقلية.

أما إفرازات الجزء الداخلى فهى تقوى الجهاز السمباثاوى ، وتجعل الجسم أكثر قابلية لمواجهة المواقف الفجائية ؛ فكأن وظيفة هذه الإفرازات هى تنشيط الفرد تنشيطا عاما .
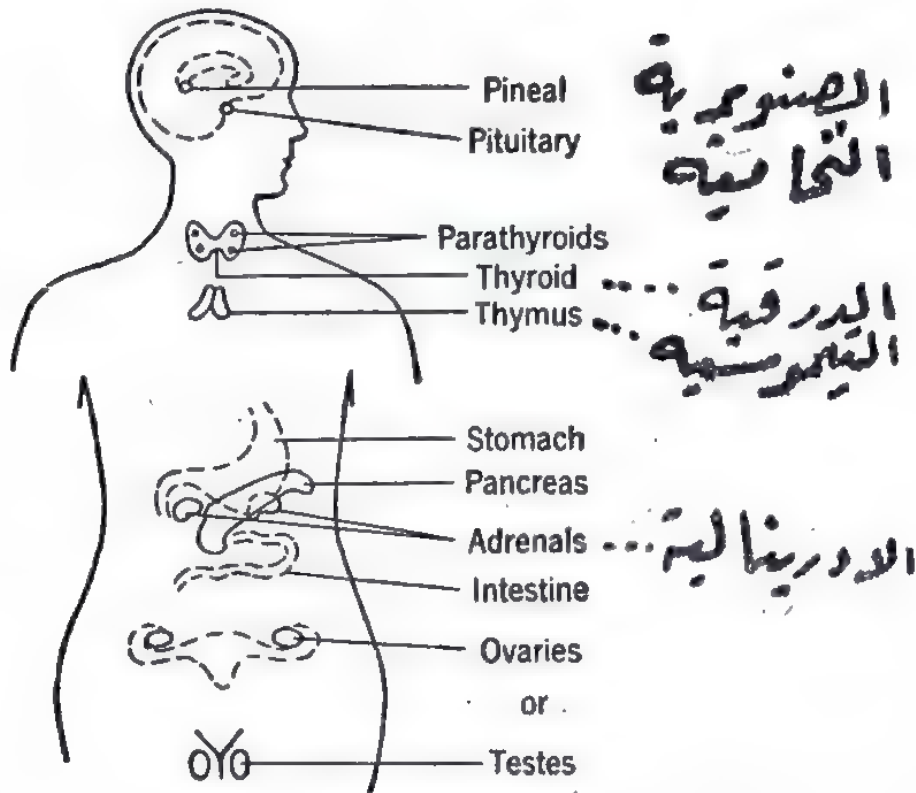
(شكل ٤)

يبين موضع الغدد المختلفة فى الجسم

R. G. Hoskins : The tides of life

(٣) التغـذية :

يلعب الطعام دوراً هاما فى عملية النمو ، ويكون ذلك على شكل تغيرات كيماوية تحدث داخل البدن ، وينتج عن هذه التغيرات تـكوين بنية الجسم من ناحية ، وتجديد بناء الأنسجة المستهلـكة فى أثناء نشاط الفرد وحركته خلال دورة الحياة من ناحية أخرى . وعندما تفوق عملية الهدم عملية البناء لسبب من الأسباب — كالتعب أو ضعف التغذية أو إصابة الجسم بخلل يعوقه عن أداء وظيفته — لا تسير الحياة سيرا عاديا ، ومن ثم يتعرض النمو للتوقف أو التباطؤ ، أو يسير بطريقة غير طبيعية . وينشأ عن ذلك إصابة الـكيان النفسى والعضوى بالوهن والهزال والنقص . وهذه أمور تنقل الـكائن الحى من حيز النمو العادى إلى حيز النمو الشاذ .

(٤) النضج والتعلم :

لـكى تنمو خاصية أو مهارة فى ناحية معينة ، لا بد من عامل النضج الذى يمكن الطفل من القيام بهذه المهارة ، ثم نتناولها بالتمرين والتعلم فى الوقت الملائم ، وإلا فإنها لا يتاح لها أن تصل إلى نهاية نموها الطبيعى . ولنأخذ لذلك مثلا نستمده من دراستنا لبعض القدرات الحركية لدى الطفل ، كالمشى والقبض الإرادى على الأشياء وتسلق درجات السلم ، فـكل هذه أمور تحتاج أولا إلى درجة من النضج العضلى ، إلا أنه بجانب هذا ، فللتدريب أثر فعال فى أن تصل هذه القدرات إلى نهاية نموها فى وقت ملائم . فالطفل يبدأ المشى بتحريك رجله حركة كلية عامة ، ثم تنضج هذه المهارة عنده ، وتتميز حركة القدم ، وتـكون أيضاً كلية عامة ، ثم تتميز من هذه الحركة الأخيرة حركة أصابع القدم . وكل هذه النواحى تنمو بالنضج والتمرين[١] .

(١) ارجع للفصل الخاص بالنضج والتعليم فى كتاب سيكولوجية التعلم للمؤلف .

(د) الطرق العامة لدراسة النمو :

(١) طريقة الملاحظة : تعتمد العلوم كلها على الملاحظة كطريقة من طرق البحث العلمى ؛ ففى علم الكيمياء يلاحظ عالم الكيمياء التغيرات التى تتعرض لها المادة عند وضع أحماض خاصة عليها ، وفى علم الفلك يلاحظ عالم الفلك تحركات النجوم والشمس والقمر وغيرها من الكواكب السيارة وهكذا . وكذلك الحال فى دراسة الطفولة ، يعتمد الباحثون عادة على جمع المعلومات بطريقة الملاحظة فى النواحى والتصرفات التى لا تتطلب وسائل خاصة فى دراستها . والفرق بين الملاحظ الماهر وغيره ، يتمثل فى قدرته على تسجيل تصرفات الأطفال فى المواقف المختلفة وتصنيفها ، وعلى استخلاص نتائج عامة مما يلاحظه ، ثم فرض الفروض التى تساعد على تفسير ما يلاحظ من تلك التصرفات.

وأحيانا يكون تدوين هذه التصرفات شاملا ، بمعنى أن يدون الملاحظ كل ما يصدر عن الطفل لفترة من الزمن . وتعرف هذه الطريقة بالاصطلاح (Time sampling technique) وهى طريقة ابتكرها (ألسن Olson) . وتمتاز هذه الطريقة بأنها لا تقتصر على تدوين بعض الحوادث المتفرقة المفككة ، بل تربط بين عنصرى الزمن وما يلاحظ من تصرفات الطفل ، وتدخل فى حسابها كل العوامل التى قد تؤثر فى تصرفات الطفل .

(٢) القياس بواسطة الأدوات والأجهزة : إن استعمال الآلات فى قياس النمو أتى بنتائج عظيمة تفوق ما اكتسبناه عن طريق الملاحظة . فالمقاييس الطولية ، الموازين ، وأجهزة قياس ضغط الدم ، وتحليله ، وكذلك الأجهزة الخاصة بالأشعة ، كان لها أثر كبير فى تقدم الدراسات الخاصة بالطفولة .

إلا أن هذه الوسائل الآلية ، لم تكن لها قيمة فى قياس الاختلافات الفردية فى الذكاء ، أو العلاقات الاجتماعية ، أو الحالات الانفعالية لدى الأفراد .

(٣) القياس بطريقة الاختبار : (Test method) للقياس بطريقة الاختبار وسائل كثيرة تختلف بحسب الصفة أو القدرة التى يراد قياسها ؛ فهنالك مثلا الاختبارات المختلفة لقياس الذكاء ، وبعض هذه الاختبارات لفظى والبعض الآخر عملى . وهناك كذلك اختبارات الشخصية . ويستعمل الاستخبار (Questirnnaire) كأداة أخرى للقياس ، فعن طريقه يمكن الحصول على البيانات والمعلومات اللازمة .

(٤) الطريقة التجريبية : (Experimental) وهى الطريقة التقليدية فى القيام بتجارب تساعد على فهم عملية النمو . وتتلخص فى استعمال مجموعتين ، تسمى إحداهما المجموعة الضابطة (Control) وتترك ظروفها لتأخذ طريقها الطبيعى فى النمو ، وتحاط الأخرى بظروف خاصة يُظن أن لها تأثيرا خاصا على عملية النمو ، ثم تقارن النتائج بعد فترة معلومة . ويشترط أن تكون المجموعتان متماثلتين فى جميع النواحى عند بدء التجربة ، لكي يمكن التأكد من أن التغير الذى حدث عند النهاية ، كان نتيجة العوامل التى أحيطت بها المجموعة التجريبية (Experimental group)

ولما كان إجراء التجارب على الإنسان أمرا معقدا لا يمكن ضبطه والتحكم فيه تماما . فإننا نجد أهم التجارب فى النمو قد أجريت على الحيوانات وأخذت نتائجها .

(٥) طريقة بحث الحالة : (Case history method) هذه الطريقة فردية ، تفيد فى دراسة الأطفال وخاصة فى ميادين العلاج ، فمعظم مشكلات الأطفال وانحرافاتهم تعرض للمشتغلين فى هذا الميدان فى صورة حالات فردية .

ولا تعتمد هذه الطريقة على أى أداة قياسية ، وإنما وسيلتها الاختبار الشخصى مع الطفل نفسه ، أو مع أحد والديه ، وأحيانا تستعمل بعض الطرق

غير المباشرة للحصول على بعض المعلومات من الطفل ، وذلك عن طريق اللعب (play therapy)،أوعن طريق التحليل بالصور (picture discussion)

(٦) طريقة تسجيل تاريخ الحياة : (Biographical Method) إن تاريخ حياة الطفل من أولى المصادر التى تمدنا بحقائق كثيرة عن الطفولة ، وقد سجل (جيزل) ومعاونوه تاريخ حياة ٨٤ طفلا من الولادة حتى سن العاشرة ، وكان بين هؤلاء الأطفال ، أطفال عاديون وآخرون يمتازون بسرعة النمو أو تأخره . وأمثال هذه الدراسات تعتبر دراسات فردية .

(٧) الطريقة الطولية والطريقة المستعرضة : يتبادر دائما إلى ذهن المشتغلين بمسائل نمو الأطفال وتطورهم السؤال الآتى :

أمن الأفضل دراسة مجموعة كبيرة من الأطفال من بيئات مختلفة تمثل مرحلة معينة من العمر حتى تحيط مرة واحدة بمظاهر النمو وخصائصه فى هذه المرحلة ، أم دراسة مجموعة صغيرة دراسة تفصيلية ، نلاحظهم فيها شهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام ؟

وتعرف الطريقة الأولى بالطريقة المستعرضة (Cross section) وهى أسرع من الطريقة الثانية ، لأنها تمكننا من الحصول على حقائق كثيرة فى وقت قصير ، وتعرف الطريقة الثانية بالطريقة الطولية (Longitudinal) ، وهى طريقة بطيئة تتطلب جهدا ، وتستغرق أعواما طويلة حتى يمكن الحصول على معلومات ذات قيمة .

(٨) الطرق الإحصائية والتحليلية : تحتاج الحقائق التى نحصل عليها بالوسائل السابقة إلى التحليل للتأكد من صحتها ، وهذا التحليل يكون بالطرق الإحصائية ، وبه يعرف معامل الارتباط بين العوامل المختلفة المسببة للخصائص

الـكمية أو الـكيفية . وخير الطرق الإحصائية التى يمكن استعمالها فى معالجة معاملات الارتباط بين العوامل المختلفة هى طريقة التحليل العاملى .

ونحب أن نشير إلى أن طابع البحث يختلف تبعا لاتجاه الباحث ؛ فقد يتجه بعض الباحثين وجهة اجتماعية فيعتمد على طريقة الملاحظة ؛ بينما يتجه البعض الآخر وجهة نفسية فيعتمد على طريقة الاختبار . ونحن نرى أن خير البحوث فى ميدان علم نفس الطفولة هى التى يستعين فيها الباحثون بأكثر من طريقة من طرق البحث التى أشرنا إليها .

(هـ) مراحل النمو :

يتم نمو الفرد العادى على فترات أو أدوار يتميز كل منها بخصائص معينة واضحة ، وهى :

أولا : دور ما قبل الميلاد (Prenatal Period) ويبدأ من حدوث الحمل لغاية الميلاد ، ومدته تسعة شهور .

ثانيا : سنى المهد وتتضمن :

(ا) الأسبوعين الأولين من حياة الطفل (Neonate infancy) .

(ب) فترة الرضاعة وتنتهى بنهاية العام الثانى (Infant stage) .

ثالثاً : الطفولة المبكرة ، وتبدأ من سن (٢ — ٥) أعوام ، وهى تقابل مرحلة مدرسة الحضانة .

ويطلق على المرحلتين الثانية والثالثة دور ما قبل المدرسة .

رابعاً : الطفولة المتأخرة ، وتبدأ من سن (٦ — ١٢) عاما ، وهى تقابل مرحلة الدراسة الابتدائية .

خامسا : دور المراهقة ، ويبدأ عادة من سن ١٢ إلى ١٨ عاما . وتقابل هذه الأعمار المرحلة الثانوية بأنواعها المختلفة .

سادسا : دور الشباب . ويبدأ من سن (١٨ — ٢٤) عاما . وهو دور له مشاكله المتعلقة بالتوجيه المهنى والتعليمى . ويقابل هـذا الدور مرحلة التعليم العـالى .

سابعا : دور الرجولة والأمومة .

ثامنا : دور الشيخوخة الذى يختلف باختلاف الأفراد . ويكون عادة فيما بين (٦٥— ٧٠) عاما . ويتميز هذا الدور بالانحلال والنسيان والضعف العام.

الباب الأول

الطفـــولة

النمو العادى وأهم مظاهره

الفصل الأول

النمو الجسمى والعضلى

وعلاقتهما بالنمو الحركى

دور ماقبل الميلاد (المرحلة الجنينية) :

تبدأ الحياة من بو يضة الأنثى التى تتـكون أصلا من خلية واحدة ، ثم تنقسم بعد عملية الإخصاب إلى خليتين ، ثم إلى أربع ثم إلى ثمان ... الخ .

وهكذا يزداد عدد هذه الخلايا حتى تصبح كرة صغيرة تتـكون من عدة خلايا متماسكة ، وبعد فترة من تـكوين تلك الـكرة ، تتخلل الخلايا المـكونة لها مادة سائلة تعمل على فصلها بعضها عن بعض ، وهنا يتكون الجسم الإنسانى من مجموعة من تلك الخلايا ، بينما تتحول الخلايا الباقية إلى غلاف وقائى مملوء بالمواد السائلة لحماية الجنين ، ويتصل جزء من هذا الغلاف بالرحم (uterus) وهو وسيلة لتغذية الجنين أولا وللتخلص من المواد التالفة ثانيا .
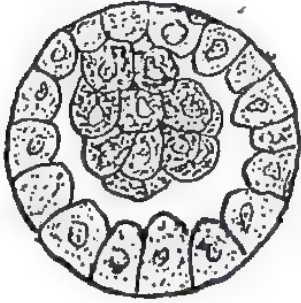
انقسام الخلية

انفصال عدة خلايا وتماسكها
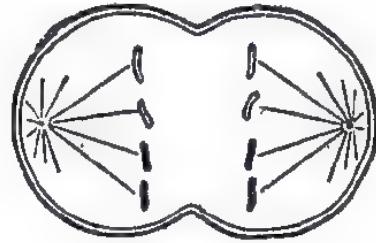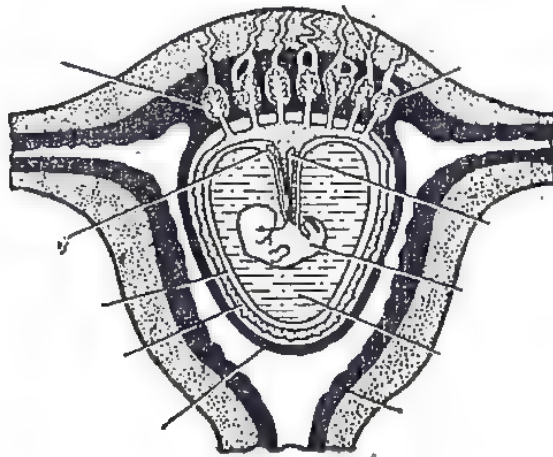
اتصال الجنين بالرحم

ويطلق على الطفل فى الأسبوعين الأولين من الحياة الاصطلاح (Ovum) أى بويضة ؛ بينما يطلق عليه بعد ذلك حتى نهاية الشهر الثانى من الحمل ، الاصطلاح (Embryo) أى جنين وتأخذ الخلايا فى تلك الفترة فى التكاثر والكبر والتميز من حيث الشكل الخارجى والتركيب الداخلى ، بمعنى أن بعضها يتحول إلى خلايا عصبية (Nerve cells) ، والبعض الآخر يصبح خلايا عظمية (Bone cells) ، أو خلايا خاصة بتكوين العضلات (Muscle cells) . وهكذا يكون قد تكون للجنين فى نهاية الشهر الثانى عند الحمل ، جهاز عصبى بسيط ، إلا أنه يكون عديم الإحساس ولا يستطيع القيام بأى حركة . ويطلق على الجنين من نهاية الشهر الثانى حتى الميلاد الاصطلاح (Fetus) .

يأخذ الجنين بعد دخوله فى المرحلة الثالثة صفات جديدة ، إذ تأخذ التفصيلات التشريحية فى التميز ، كما يزداد وزنه وطوله بسرعة . وفى الشهر الخامس يكون وزن الجنين رطلا تقريبا ، كما يكون طوله حوالى القدم ، بينما يزداد هذا الوزن والطول عند الميلاد ، إذ يكون وزن الرضيع العادى ما بين (٦ — ٨) أرطال ، وطوله حوالى ٢٠ بوصة . ولا شك أن مثل هذه الزيادة تعتبر طفرة سريعة فى النمو (أنظر شكل ٥) .

الأسبوعان الأولان فى حياة الوليد :

يولد الطفل عادة بعد انقضاء ما يقرب من (٢٨٠) يوما على الحمل ، فينتقل الجنين إلى وليد . وتختلف بيئة الطفل قبل الميلاد عن البيئة التى يجد نفسه فيها بعد الميلاد . ففى الأولى يقضى الأشهر الطوال فى درجة حرارة ثابتة لا يتعرض فيها للمؤثرات الخارجية ، ويستمد ما يلزمه من الأوكسيجين والطعام عن طريق الأم دون أن يقوم بأى تنفس أو هضم للطعام . ويتغير
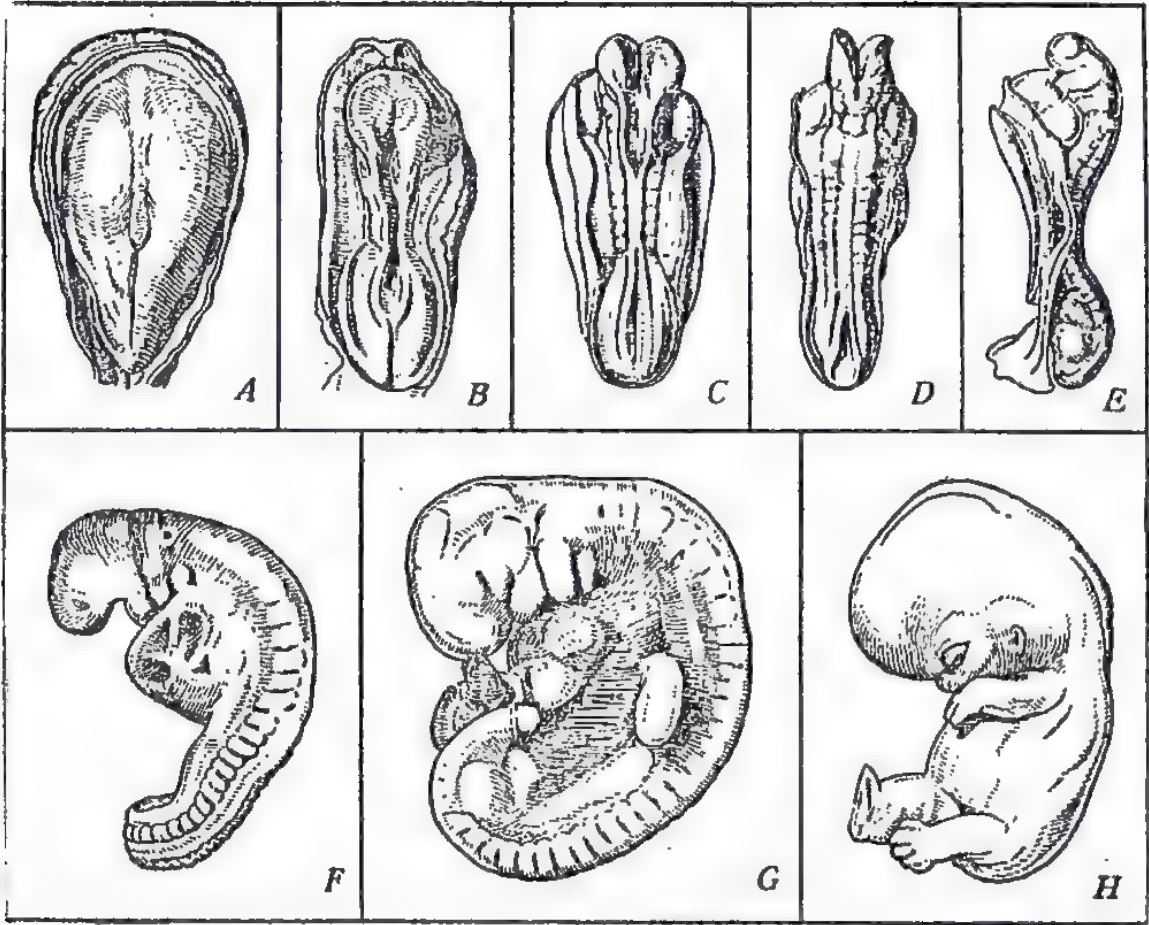
(شـكل ٥)

(A) الجنين عندما يبلغ عمره ١٦ يوما (B) الجنين عندما يبلغ عمرها ١٨ يوما
(E) » » » » ١٩ » (D) » » » » ٢٠ »
(C) » » » » ٢٢ » (F) » » » » ٤ أسابيع
(G) » » » » ٥ أسابيع (H) » » » » ٨ أسابيع

عن : (Streeter — Scientific monthly)

الحال بعد الولادة ، فيتعرض لدرجات متغيرة من الحرارة والبرودة ، ويبدأ يستقل عن أمه فى عملية التنفس والطعام . وهنا يحدث تغير فى نظام الدورة الدموية وعملية التنفس والهضم . ولقد دلت بعض الأبحاث على أن الجهاز التنفسى والهضمى والدموى يصل إلى درجة من النضج تسمح له بتأدية وظيفته قبل الميلاد بشهرين ؛ ويؤيد تلك الأبحاث ما لوحظ من أن الطفل الذى يولد فى حدود (٢٢٠) يوما ، يستطيع الحياة بعكس الطفل الذى يولد فى حدود (١٨٠) يوما مثلا ، فإنه يتعذر عليه غالبا مواصلة الحياة ، لأن جهازه الهضمى لا يكون قد وصل إلى درجة النضج التى تسمح له بتأدية وظيفته .

دراسة تتبعية لبعض مظاهر النمو البدنى والحركى خلال العامين الأولين:

وزن الطفل :

يزيد وزن الطفل زيادة مطردة تدل على تمتعه بصحة جيدة ونمو طبيعى ، كما تدل على أن طريقة تغذيته صحيحة . وتستطيع الأم أن تتبين ما إذا كان الطفل ينمو نموا طبيعيا عن طريق وزنه من وقت لآخر ، فوزن الطفل بعد الولادة مباشرة يتراوح بين (٢ — ٣½) كيلوجرام ، أى ما يعادل (٦ — ٨) أرطال . ولا يأخذ هذا الوزن فى الزيادة مباشرة ، إنما يحدث العكس ، إذ يبدأ فى النقص عقب الولادة ، ويستمر ذلك مدة تتراوح بين ثلاثة وخمسة أيام ، يأخذ بعدها فى الزيادة المستمرة . ويزيد وزن الطفل فى الشهور الستة الأولى بمعدل (٢٠٠ جرام) أسبوعيا ، ويزيد وزنه فى الشهور الستة الثانية بمعدل (١٠٠ جرام) أسبوعيا . وفى نهاية السنة الثانية من عمر الطفل ، يزيد وزنه بمعدل ٢½ كيلوجرام تقريبا عن وزنه فى نهاية السنة الأولى .

شكل الطفل عند الميلاد :

إن مظهر الطفل الخارجى بعد الميلاد مباشرة لا يبعث على الراحة ولا يجلب السرور لمن يراه ؛ فكم من أم شعرت بصدمة نفسية عندما وقع بصرها على وليدها عند ميلاده مباشرة . وسبب تلك الصدمة يرجع إلى أن الأم — وخاصة التى تلد لأول مرة — تكون قد كونت فى ذهنها صورة رائعة للطفل الوليد استمدتها من الإعلانات والدعاية التى تقوم بها شركات بيع طعام الأطفال المحفوظ .

إن لون الطفل عند الميلاد مباشرة يكون قريبا إلى الحمرة ، كما تكسو جسده التجاعيد . ويكسو هذا الجسد عند الميلاد طبقة من مادة شمعية دهنية

تزول من تلقاء نفسها (عن طريق الامتصاص) بعد انقضاء ثمانى ساعات ؛ ولذلك ليس من الصواب ازالتها .

أما طول الرأس والوجه عند الميلاد فتبلغ ربع النسبة العامة للجسم فى ذلك الوقت ؛ على حين يكون طولهما معا عندما يبلغ الطفل رشده بنسبة ١ : ١٠ من طول الجسم العام .

وتشبه تقاطيع وجه الطفل عند الميلاد مباشرة تقاطيع الأقوام البدائيين (اتساع الجبهة مع وجود بعض الغضون وانتفاخ العينين والأنف) . أما عن الشعر فتكاد تكون الرأس خالية منه عادة ، إلا أنه فى بعض الحالات يلاحظ وجود الشعر على جسم الطفل الوليد وخاصة على الظهر وخلف الأذنيين .

حركات الطفل :

تأخذ حركات الطفل فى هذه الفترة الأشكال الآتية :

أولا : حركات عشوائية ، تلقائية متنوعة ، سريعة وغير منتظمة . فنجد جسمه يتحرك دفعة واحدة . . . دفع بالأرجل وتلويح بالذراعين .

ثانيا : مجموعة من الأفعال المنعكسة تحدث استجابة لمثيرات خاصة . ومن أمثلة ذلك :

(ا) إذا ضرب الوليد ضربة خفيفة على ركبته أدى ذلك إلى تحريك الساق.

(ب) إذا لمس فم الوليد فإنه يفتح فاه ويقوم بعملية امتصاص .

(جـ) خلع الملابس يصحبه رفع ذراعى الطفل .

(د) لمس منطقة العين يؤدى إلى إغماضها .

(هـ) وضع الوليد فى ماء فاتر يجعل الجسم فى حالة استرخاء .

ثالثا : بالإضافة إلى كل هـذه الحركات — الإرادية وغير الإرادية — نلاحظ أن فى مقدور الطفل الوليد فى هذه الفترة الصراخ والامتصاص والبلع

والقيء والسكحة والتثاؤب وإخراج اللسان والتخلص من المواد التالفة فى الجسم والقبض على الأشياء والمشى .. . الخ .

وسنتتبع فيما يلى خطوات النمو التى تتعرض لها هذه العمليات ، وسنبين إلى أى حد كيف تعتمد فى تكاملها الوظيفى على النضج العضلى أولا ثم على التدريب (التعلم) ثانيا .

الصراخ :

يستطيع الطفل الصراخ بعد الميلاد مباشرة ؛ ومعنى ذلك أن حباله الصوتية تستطيع العمل منذ ذلك الوقت المبكر .

أن طبيعة الصرخة الأولى — على حسب تفسير علماء الفسيولوجيا — ينظر إليها على كونها فعلا منعكسا لمثير خارجى (مرور الهواء من القصبة الهوائية إلى الرئتين) لمساعدة الطفل الوليد على التنفس ليضمن لنفسه الحياة . ثم يتحول الصراخ بالتدريج و يصبح معبرا عن صور شتى من عدم الارتياح ؛ يؤيدنا فى ذلك الأبحاث التى قام بها (أولدريش وسونج و كونب [1]) على صراخ ٥٠ طفلا خلال ثمانية الأيام الأولى من حياتهم . و يمكننا أن نلخص نتائج هذه الأبحاث فيما يلى :

(١) متوسط ضراخ الأطفال فى اليوم الواحد خلال ثمانية الأيام الأولى يبلغ ١١٧ دقيقة .

(٢) يكثر الصراخ فى الفترات التى تسبق ميعاد أكل الطفل .

(٣) يقل صراخ الأطفال الذين يتمتعون بصحة جيده .

(٤) تتنوع أسباب الصراخ ؛ فقد وجد أن ٣٥ر٥٪ من هذه الأسباب ترجع إلى الجوع و ٣٥ر١٪ يرجع لأسباب غامضة و ٢٠ر٦٪ من التبلل و ٨ر٣ من التبرز و ٠ر٥٪ من القيء .

(1) Aldrich, Sung, and Knop : The crying of newly born babies. Jour . Pediat , 1945

الامتصاص (الرضاعة) :

يستطيع الطفل الوليد امتصاص حلمة الثدى بعد ميلاده بفتره قصيره جدا . ان رضاعة الثدى بالنسبة للطفل مصدر لذة كبرى من حيث هى وسيلة الأكل الطبيعية . وقد وهب الله الطفل الرضيع نضجا مبكرا فى شفتيه يساعده على القيام بحركة الامتصاص للتغذية . هذا و يتلقى الطفل عن طريق الفم الحنان والعطف الأموى . ولذلك كان من الطبيعى أن تتركز أولى انفعالات الطفل الرضيع حول الفم ، فهو يفرح و يأمن عن طريق الفم حين يستولى على حلمة الثدى ، وهو يغضب حين يسحب الثدى منه .

ان عملية الرضاعة عملية هامة فى نمو الطفل النفسى ، ومن ثم وجب تنظيمها ، « والتنظيم يقتضى ألا نقدم الثدى للطفل حسب طلبه أو حين نريد اسكاته عن البكاء لسبب غير الجوع ، لأن معنى ذلك أن نعوده على أن يتخذ البكاء وسيلة لإشباع رغباته ومن ثم يتعلم العناد »[١] .

ولقد تمكن المؤلف من جمع المعلومات الكثيرة عن رضاعة الأطفال وفطامهم وذلك أثناء إقامته فى جنوب السودان فى عام ١٩٥٤ للقيام بدراسات اجتماعية[٢] ونفسية على جماعات (الشيلوك) التى تسكن مديرية أعالى النيل . تمتاز فترة الرضاعة بين جماعات (الشيلوك) بالطول ، على عكس ما هو مألوف فى بيئتنا أو فى أية بيئة أوروبية أو أمريكية ، إذ تستمر عملية الرضاعة فى هذه البيئة البدائية حتى سن متأخرة من حياة الطفل ، فلا يمنع الثدى عنه قبل نهاية

---

(١) كتب فى هذا الموضوع (فى غير إيجاز) الدكتور عبد المنعم المليجى فى كتابه النمو النفسى (ص ٥١ و ٥٢ و ٥٣) .

(٢) قام زميلى الدكتور عبد اللطيف فؤاد ابراهيم بدراسة الخصائص الاجتماعية لجماعة الشيلوك .

العام الثالث ، ويستمر ذلك فى بعض الحالات حتى نهاية العام الرابع . ومرجع ذلك أن (الشيلوك) يعتقدون أن الطفل قبل أن يتم عمره ثلاث سنوات يكون غير مكتمل التكوين ، ولذلك فهو فى حاجة إلى غذاء طبيعى من أمه عن طريق ثديها ؛ وتحقيقا لذلك فإن الزوج يتجنب أى معاشرة جنسية خوفا من أن تحمل الزوجة فيمتنع اللبن عن ثديها بسبب الحمل .

هذا وقد لاحظنا أن ثدى الأم بين جماعات الشيلوك يعطى للطفل الرضيع فى أوقات غير منتظمة ، كما أنه يكون فى متناول فمه فى كل وقت : أثناء عمل الأم وأثناء حديثها مع الغير وتناولها الطعام وحتى خلال ساعات النوم والراحة . ومعنى ذلك أن الأم فى (الشيلوك) تقدم ثديها على حسب طلب الطفل أو حين تريد اسكاته عن البكاء لسبب غير الجوع . ويزداد تدليل الأم للطفل عن طريق الثدى لدرجة أن يصبح الفم كما يقول (فرويد) مصدرا لا يستغنى عنه للحصول على اللذة . وأصدق دليل على ذلك أن الطفل (الشلكاوى) عندما يصل إلى مرحلة المراهقة الأولى يقوم ببعض المظاهر السلوكية التى تعتبر امتدادا للمرحلة الفمية ؛ ومن هذه المظاهر : تدخين الغليوم فى هذه السن المبكرة (بنين وبنات) وكذلك الرغبة فى الحديث المستمر ، فإذا جمعتك الصدفة بجماعة منهم ، لا يسكت لهم لسان ، فهم فى حديث دائم وجلبة لا تنقطع .

ويتم فطام الأطفال (الشيلوك) فجأة وبدون سابق إنذار بعكس ما هو حادث فى المجتمعات المتحضرة ، إذ تحدث عملية الفطام فى نهاية العام الأول من حياة الطفل ، وبشكل تدريجى قبل أن تتوقف الرضاعة من الثدى .

ويحدث الفطام عند (الشيلوك) بناء على رغبة الأب حيث يكون الحرمان الجنسى بينه وبين زوجته قد طال أمده طوال فترة الرضاعة الطويلة على نحو ما بينا . وتبدأ عملية الفطام بأن يباعد بين الطفل وأمه ، بأن يرسل الطفل

إلى جدته لأمه أو لأبيه أو إلى إحدى معارف الأسرة ممن يقطن فى قرية بعيدة ، ويبقى معها حتى ينسى الثدى ، ثم يعود إلى الأم بعد فترة من الزمن تكفل له نسيان الثدى وتكون قد انقضت فترة يتعود خلالها الطفل على تناول المواد الغذائية الصلبة .

ولاشك أن حدوث الفطام على هذا النحو غير المألوف لنا ، يترتب عنه بعض الآثار والنتائج التى تؤثر فى تكوين الطفل النفسى ؛ إن انتزاع الطفل الرضيع من أمه بعد فترة من التدليل والعطف والحنان ، وإرساله بعيدا عنها حيث يعيش مع أم بديله تقوم برعايته واطعامه ، كفيل بأن تحدث فى نفسه صدمة يصح أن نطلق عليها « صدمة الفطام » .
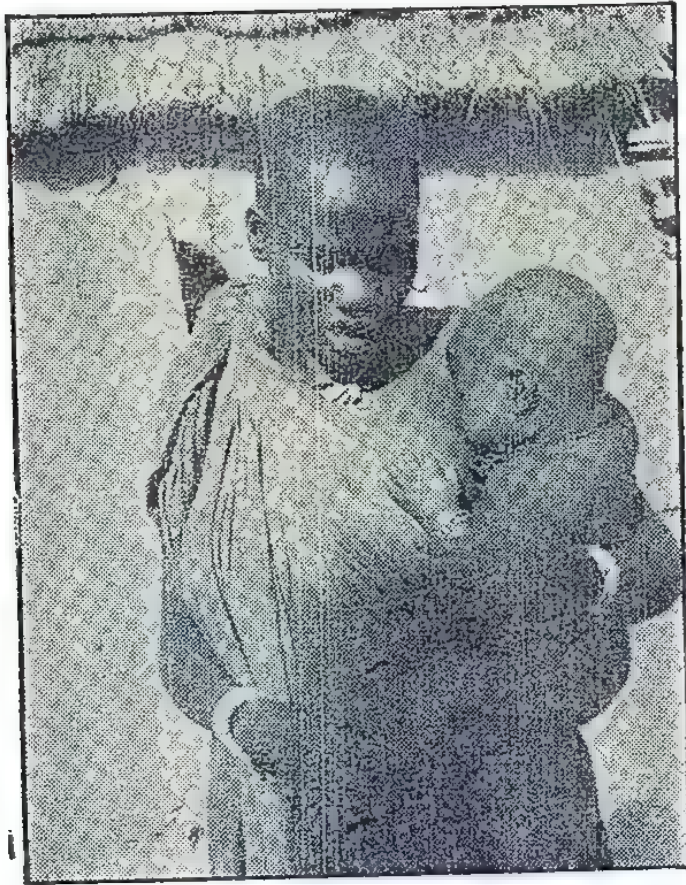
شكل (٦)
شلكاوية ترضع طفلها

المشى :

يقول (جيزيل) « إن النمو عملية مستمرة تبدأ عند الإخصاب وتمر فى مراحل وخطوات تمتاز كل منها بمستوى معين من مستويات النضج »[1] .

ونستطيع أن نوضح قول (جيزيل) بدراستنا للتاريخ التطورى لموضوع المشى باعتباره مظهرا من مظاهر النمو الحركى الذى يعتمد اعتمادا كبيرا على النضج العضلى .

ابتداء من الشهر الثالث تأخذ عضلات الطفل فى النضج ، ومن أولى الدلائل على ذلك أننا نلاحظ أن عضلات رقبته تكتسب شيئاً من الصلابة تساعد على السيطرة على حركاته . وتنتقل هذه السيطرة بالتدريج من الرقبة إلى الكتفين ثم إلى الذراعين ، ثم تعم الجزء العلوى من الجذع . و بعد ذلك تنتقل سيطرة الطفل تدريجيا إلى الجزء الأسفل من الجذع والساقين فيصبحان أكثر صلابة .

وسنوضح فيما يلى المراحل التى يمر بها الطفل حتى تكتمل لديه القدرة على المشى :

الشهر	نوع الحركات
٢	الإنبطاح على الوجه
٣	الإنبطاح على الأرض مع رفع الرأس وحمل الجسم على الذراعين .
٣٫٥	الجلوس بمساعدة
٦٫٢	الجلوس بدون مساعدة لمدة ٣٠ ثانية فأكثر
٨٫٢	الزحف
١٢	الوقوف بدون مساعدة
١٤	المشى بمساعدة
١٥	المشى بدون مساعدة إلى الأمام
١٦٫٩	المشى بدون مساعدة إلى الخلف

(1) Gesell, A. : Dev. diagnostic nor. and abnor. child dev. (1947)

تلك هى أهم معايير عملية المشى كما جاءت فى الدراسات التى قامت بها جامعة كاليفورنيا بأمريكا[1] . ونحب أن نشير إلى أنه بجانب هذه المعايير توجد معايير أخرى ذكرها (جيزيل) لا تختلف فى أساسها عما أوردناه من أرقام .

ولقد قام المؤلف بجمع بعض المعلومات عن نمو وتطور عملية المشى بين أطفال قبيلة (الشيلوك) فى منطقة أعالى النيل بجنوب السودان . وتدل تلك المعلومات على أن عملية المشى فى هذه البيئات لا تسير بنفس الخطوات المألوفة لدى الطفل العادى فى البيئات الأوروبية والأمريكية ، والمصرية (انظر الأوضاع الموضحة لذلك فى الشكل رقم (٧)) .

(1) George Thompson : Child Psychology, P. 278

(شکل ۷)

التحكم فى عملية الإخراج :

(ا) التبرز :

تتوقف قدرة الطفل على التحكم فى عملية التبرز على عاملين ؛ هما : النضج والتمرين . فمن ناحية النضج ينبغى أن يصل جهاز الإفراز إلى درجة تساعد الطفل على التحكم فى هـذه العملية متى تـكونت لديه العادات التى تمـكنه من ذلك . ويخطىء كثير من الآباء حين يتعجلون تحكم الطفل فيها قبل اكتمال النضج ، وحين يعمدون إلى التهديد والعقاب فى ذلك ؛ مما ينشأ عنه غالبا بعض الانحرافات لدى الأطفال .

ومن ناحية التمرين يمـكن تدريب الطفل على ضبط هـذه العملية منذ الأسبوع الثامن من عمره ، ويكون ذلك بتعويده الجلوس بعد وجبة الإفطار على الـكرسى الخاص بذلك لمدة قصيرة — لا تتجاوز ثلاث دقائق — حتى لا يشعر بالتعب . وفى الشهر السادس من عمر الطفل ينبغى أن نحاول تدريبه على إحداث صوت أثناء القيام بهذه العملية ؛ فلذلك أثر كثير فى تدريبه وتمـكينه من الاستعانة بمن حوله إذا أراد التبرز . ويمـكن تنظيم الوقت الذى تحدث فيه هذه العملية تنظيما يساعد على تدريب الطفل والإشراف عليه .

وتحدث هذه العملية عادة مرة أو مرتين فى السنة الأولى ، وقدرة الطفل على التحكم فيها وضبطها تسبق قدرته على ضبط عملية التبول .

وقد لوحظ أثر هذه الإرشادات التى قدمناها من تمـكين كثير من الأطفال من ضبط عملية التبرز فى نهاية السنة الأولى من حياتهم .

(ب) التبول :

تـكتمل قدرة الطفل على ضبط هذه العملية والتحكم فيها فى وقت متأخر

عن تحكمه فى العملية السابقة ، والتحكم فى عملية التبول أصعب من التحكم فى عملية التبرز ، وهى أيضا تحتاج إلى عاملى النضج والتمرين .

ولتدريب الطفل على ضبط هذه العملية تنبغى ملاحظة المواعيد التى يحدث فيها التبول النهارى ، حتى يمكن تنظيمها وضبطها . وينبغى أن يدرب الطفل منذ الشهر الثامن من عمره على الكرسى الخاص بذلك لقضاء هذه العملية ، ويكون التمرين على ذلك قبل و بعد كل من النوم وتناول وجبات الطعام والخروج لقضاء بعض الوقت بعيدا عن المنزل وما إلى ذلك . و يصح أن يتكرر التمرين كل ساعتين . و ينبغى هنا أيضا تدريب الطفل على إحداث صوت معين عند قيامه بهذه العملية ، ويمكننا استغلال التشجيع والمدح فى تعويد الطفل على ضبط التبول ، ولنحاول دائما أن نجعل الطفل فى حالة جفاف حتى يشعر بالفرق بينها وبين حالة التبلل .

وقد أثبتت ملاحظات بعض الباحثين أن الطفل العادى تكتمل قدرته على التحكم فى عملية التبول النهارى فى الشهر الثامن عشر غالبا ، وقد تتأخر حتى سن العامين ، فإذا تأخر الطفل أكثر من ذلك وجب عرض حالته على الطبيب ، أما التحكم فى عملية التبول الليلى فيتم عادة فى المدة التى بين منتصف العام الثالث ونهايته .

الفترة ما بين العام الثالث حتى نهاية مرحلة الطفولة :

ذكرنا فى الصفحات السابقة أهم خصائص النمو البدنى والعضلى فى العامين الأولين من حياة الطفل ، و بينا إلى أى حد ترتبط نواحى النمو السابقة بالنمو الحركى . وسنتتبع فيما يلى التطورات التى يتعرض لها جهاز الطفل البدنى والعضلى حتى نهاية مرحلة الطفولة ، تلك المرحلة التى تنتهى بابتداء دور البلوغ .

النمو الجسمى :

لا تنمو أجزاء الجسم المختلفة — فى هذه المرحلة — بسرعة واحدة . ويتضح ذلك جليا من الشكل (٨) الذى يتضح منه أن هناك نموا سريعا فى الأنسجة اللمفاوية وفى الغدة التيموسية وهى المرموز لها فى الشكل بالرمز (ا) ؛ ويطّرد النمو فى هذه الناحية حتى سن الثانية عشرة ، وللغدة التيموسية أهمية كبرى حيث تساعد فى النمو الجسمى فى هذه المرحلة .

ويوضح الشكل أيضا سرعة نمو المخ والنخاع الشوكى والجهاز البصرى ، ويبدأ هذا النمو منذ الميلاد ، ويأخذ فى الاطّراد حتى سن الثانية عشرة ، وهذه هى الناحية المرموز لها فى الشكل بالرمز (ب) . ويقابل هذا النمو السريع فى هاتين الناحيتين نمو بطىء فى الأعضاء التناسلية يبلغ حوالى ١٠ ٪ من نموها النهائى ، وهذه الناحية المرموز لها فى الشكل بالرمز (ى) .

ومن هنا نرى أن كل عضو من أعضاء الجسم وكل جهاز من أجهزته ينمو بسرعة خاصة وفى وقت بعينه ، والسر فى ذلك يرجع إلى حكمة فى التكوين ، فتأخر نمو الجهاز التناسلى فى مرحلة الطفولة — لا شك — أنه يتيح الفرصة لبعض أعضاء الجسم الأخرى وأجهزته للنمو . ودليلنا على ذلك ما تتعرض له الغدة التيموسية من ضمور قبيل مرحلة البلوغ ، إذ ينشأ عن ذلك ما تتعرض له الغدة التناسلية من نضج يتيح لها القيام بوظائفها .

أما عن النمو الجسمى العام فيسير بشكل خاص ، وهو يبلغ فى سن الرابعة من حياة الطفل ٤٠ ٪ من النمو الجسمى العام الذى ينتظر أن يصل إليه الطفل بعد أن يكتمل نضجه فى حوالى سن العشرين ؛ ويصل هذا النمو العام إلى ٤٢ ٪ فى سن السادسة ، ٤٥ ٪ فى سن الثامنة ، ٥٠ ٪ فى سن العاشرة ،

٥٨ ٪ فى سن الثانية عشرة ، و يمكن ملاحظة نسبة النمو الجسمى فى المراحل المختلفة من الجدول الآتى والذى يتضح منه أن هناك فترة نمو سريع فى السنوات الأربع الأولى تليها فترة نمو بطىء تستمر إلى سن الثانية عشرة ، وقد عبرنا عن ذلك بالرسم البيانى كما يتضح ذلك بالرمز (حـ) فى الشكل (٨) :

العمر بالسنوات	نسبة النمو
٢	٢٠ ٪ من النمو العام
٤	٤٠ ٪ « «
٦	٤٢ ٪ « «
٨	٤٥ ٪ « «
١٠	٥٠ ٪ « «
١٢	٥٨ ٪ « «

شكل (٨)*
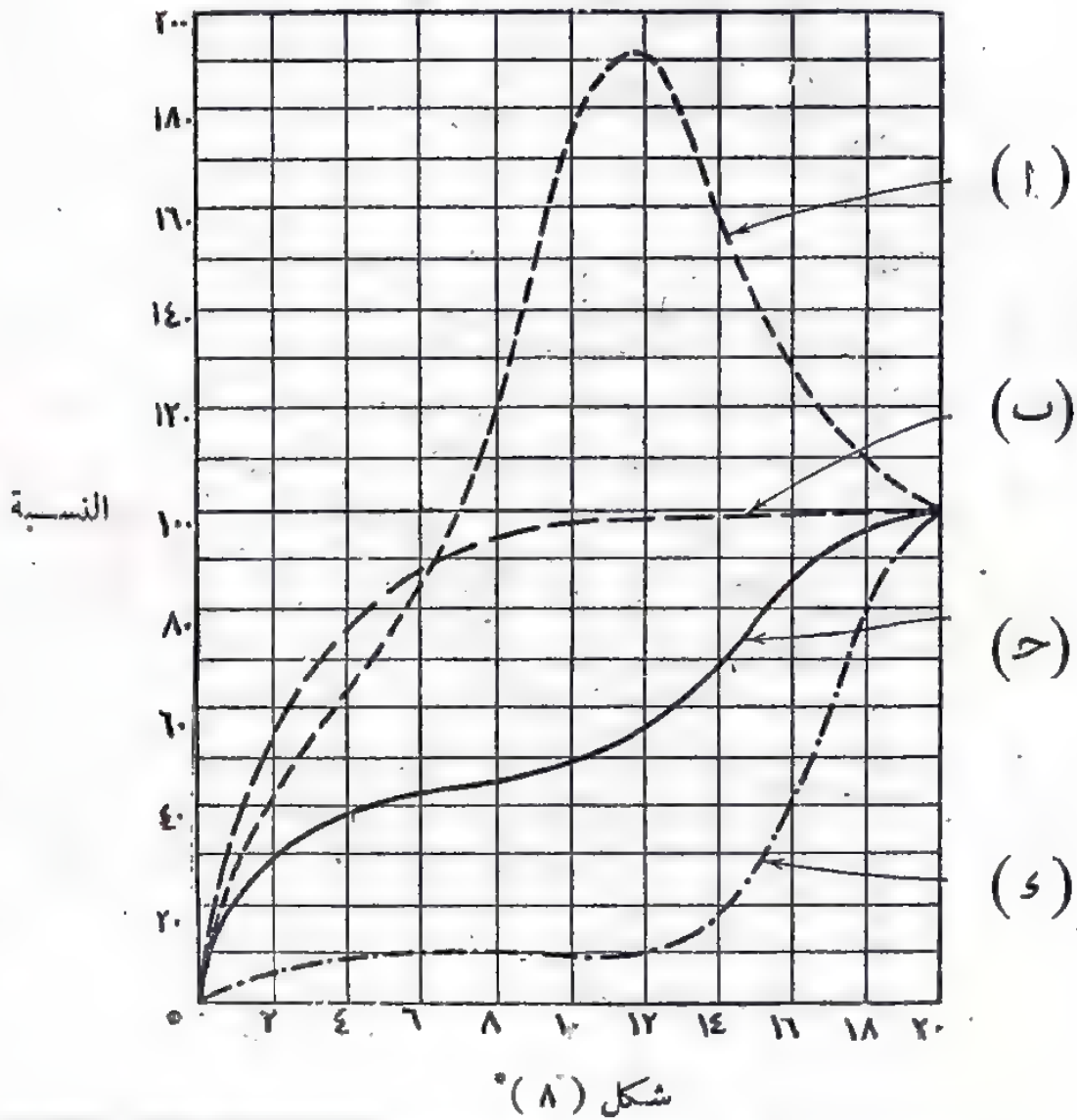
* From the measurement of man (T. A. Harris),

معايير الطول والوزن فى هذه المرحلة :

إلى عهد قريب لم تـكن هناك معايير مصرية للطول والوزن ؛ فقد كنا نعتمد إذ ذاك على المعايير الأجنبية . ولقد كان للإدارة العامة للصحة المدرسية فضل كبير فى إجراء بعض الدراسات لمعرفة متوسطات الطول والوزن بين تلاميذ وتلميذات المدارس المصرية . وفيما يلى جدول يبين تلك المتوسطات :

السن	الجنس	الطول	الوزن
		سم	ك
٤	بنين	٩٧٫٨	١٦٫٤
	بنات	٩٦٫٦	١٥٫٦
٥	بنين	١٠٧٫٩	١٨٫٢
	بنات	١٠٦٫٨	١٧٫٧
٦	بنين	١١٠٫٧	١٩٫٣
	بنات	١٠٩٫٨	١٨٫٨
٧	بنين	١١٧٫٥	٢١٫٦
	بنات	١١٥٫٦	٢٠٫٨
٨	بنين	١٢٢٫٨	٢٤٫١
	بنات	١٢٢٫٦	٢٤٫٧
٩	بنين	١٢٦٫٩	٢٥٫٧
	بنات	١٢٦٫٤	٢٥٫٨
١٠	بنين	١٣١٫٣	٢٧٫٤
	بنات	١٣٠٫٧	٢٧٫٨
١١	بنين	١٣٥٫١	٢٩٫٧
	بنات	١٣٥٫٦	٣٠٫٦
١٢	بنين	١٣٩٫٥	٣٢
	بنات	١٤١٫٥	٣٤٫١

النمو الحركى : (الحركات التى تعتمد على العضلات الـكبيرة) :

تمتاز حركات الطفل ابتداء من العام الثالث بالشدة وسرعة الاستجابة والتنوع ، ذلك أنه بعد أن كانت حركات الطفل فى العامين الأولين من حياته ، قاصرة على المشى وتحريك أعضاء الجسم والقبض على الأشياء (فى صورة ساذجة) ، نجد هذه الحركات تأخذ صورا شتى من النشاط الحركى ، كالجرى والقفز من أعلى إلى أسفل ، والقفز لمسافات بعيدة ، والتزحلق وصعود ونزول السلالم ، والسير على أطراف الأصابع ، وركوب الدراجة ذات الثلاث عجلات والعجلتين . ومما يجدر الإشارة إليه أن هذه الحركات تعتمد فى أساسها على العضلات الـكبيرة ، بعكس الـكتابة والرسم وأشغال الإبرة ، فإنها تحتاج إلى سيطرة الطفل على عضلاته التفصيلية ، وهذه السيطرة تأتى فى مرحلة متأخرة من مراحل النمو ، كما سنشرح ذلك فى حينه .

و إليكم تفصيلا عن مبدأ ظهور الحركات التى تعتمد على العضلات الـكبيرة :

الشهر	الحركة
٢٤	الجرى
٢٤٫٣	صعود السلالم بدون مساعدة
٣٠٫١	السير على أطراف الأصابع
٣٢٫١	القفز من فوق الـكرسى
٣٩٫٧	القفز لمسافة بعيدة
٤٨	ركوب الدراجة ذات الثلاث عجلات

وأحب أن أشير إلى أن هذه الحركات فى أول مراحلها لا يكون فيها أى انسجام أو ترابط ، أى أنها تكون عبارة عن حركات يقوم بها الطفل فى شىء من عدم الاتزان والتوافق الحركى ، إلا أنه بالتدريج يستطيع الطفل السيطرة

على هذه الحركات ، وذلك بفضل ما يصيبه من نضج وما يقوم به من تدريب.
وهنا يبرز مبدأ تعليمى هام يجب مراعاته فى مدارس الحضانة ، تلك الفترة التى تسبق المرحلة الابتدائية ، إذ يجب أن يكون هذا النوع من المدارس مرنا بحيث يعطى لهؤلاء الأطفال الفرصة للتعبير عن هذا النشاط الزائد ، كما يجب أن تكون تلك المدارس مجهزة بالأدوات والمواد والأجهزة التى تساعد الأطفال على اللعب واستعمال أعضاء الجسم المختلفة ، ومن أمثلة تلك المواد : صناديق الرمل والأشجار للتسلق والعربات الصغيرة التى تدفع وتتحرك بسهولة ، وما إلى ذلك مما يمكن الأطفال من استعمال عضلاتهم ، وعن طريق هذا الاستعمال تقوى تلك العضلات وتتكون لديهم فى الوقت نفسه المهارات الحركية المختلفة .

وهناك بجانب هذا مبدأ تربوى آخر يجب مراعاته فى مدرسة الحضانة وفى السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية ، ونعنى به ضرورة تشجيع الأطفال أثناء لعبهم ونشاطهم . إن السخرية والتأنيب وعدم اشباع الحاجة إلى النجاح، تحدث فى نفوس الأطفال الصغار نوعا من الإعاقة الانفعالية (Emotional blocking) الذى يقف فى سبيل التقدم والنشاط ؛ وهنا تصبح حركات الطفل جامدة ؛ بطيئة ، لا يؤثر فيها أى تعليم فى المستقبل . إن حرمان الطفل من متعة النشاط المنظم المتصل بلعبه مرتبط ارتباطا وثيقا بصحته العقلية ، فبقدر نجاح الطفل فيما يقوم به من سلوك حركى ، و بقدر سيطرته على المهارات الحركية ، يحدد شعوره بالفشل أو النجاح.

الحركات التى تعتمد على العضلات التفصيلية :

الكتابة : يستطيع الطفل العادى وهو فى سن الرابعة أن يمسك القلم أو قطعة الطباشير و يخط خطوطا غير موجهة ؛ و يرجع سبب ذلك إلى عجز الطفل على السيطرة على العضلات التفصيلية .

وعندما يلتحق الطفل بالمدرسة الإبتدائية ، ويكون ذلك فى حوالى السادسة من عمره ، يستطيع الطفل أن يكتب ، إلا أن كتابته لا يكتمل فيها الانتظام والتماسك والدقة ، كما تكون سرعته فى الكتابة بطيئة ودرجة ضغطه على القلم ليست فى مستوى متزن (أنظر الشكل) :

احتفلت مصر والسودان بالتحرير

(مثال من كتابة طفل عادى فى سن الخامسة)[1]

وبالإضافة إلى كل ذلك يكون الطفل كثير التوقف عند الانتقال من حرف إلى آخر ، أو بين نهاية مقطع وبداية مقطع آخر ، وقد يكون للطريقة الجزئية التى تتبع فى التعليم أثر كبير فى ذلك .

ويستطيع المدرس الأخذ بيد الطفل فى التغلب على هذه العيوب عن طريق تدريبه على استعمال نماذج الخط المطبوعة ، التى تكون فى أول مراحلها عبارة عن خطوط منفصلة تأخذ أوضاعا مختلفة — أفقية أو رأسية أو مائلة — (= | | | / / /) . وتلى مرحلة الخطوط ، مرحلة الحروف والكلمات المنقطة ، فيطلب من الطفل أن يمر بقلمه عليها حتى تأخذ النمط المألوف .

وهذا النوع من التدريب يساعد الأطفال على اكتساب خبرات ومهارات فى الكتابة .

وهناك ظاهرة ينبغى الاهتمام بها ، وهى تفضيل استعمال إحدى اليدين على الأخرى ، فالطفل فى الـ « ١٨ » شهرا الأولى من حياته يستعمل يديه على السواء ، ثم يأخذ النشاط يتركز فى إحدى اليدين بالتدريج ، ويقل فى اليد

---

(١) احتفلت مصر والسودان بالتحرير .

الأخرى ، ويبدو للمشرفين على الطفل ما إذا كان الطفل أيمن أو أيسر ، حسب نسبة النشاط التى تتركز فى إحدى اليدين ، والتى تسير فى الغالب وفقا للجدول الآتى :

العمر بالشهور	النسبة
١٨ — ٣٠	٦٨ر٠
٣١ — ٣٧	٦٩ر٠
٣٨ — ٤٥	٩٧ر٠
٤٦ — ٦٦	٨٢ر٠

واستعمال اليد اليمنى فى الكتابة ظاهرة تنتظم غالبية الأطفال ، ومن هنا كان الذين يفضلون اليد اليسرى فى الكتابة مدعاة لقلق المشرفين عليهم فى المنزل والمدرسة على السواء ؛ حيث يبدو اليساريون شواذ بين زملائهم .

وقد اهتم العلماء ببحث هذه الظاهرة ، وظهرت نظريات مختلفة لتفسيرها ؛ فقال بعضهم : إن تفضيل إحدى اليدين على الأخرى فى الاستعمال والنشاط أمر يكتسبه الطفل من البيئة التى ينشأ فيها . ولكن الملاحظة العادية تبطل هذه النظرية ، فنحن نشاهد كثيرا من اليساريين لا يوجد فى أسرتهم ، وفى الوسط الذى يعيشون فيه أحد يفضل استعمال يده اليسرى على اليمنى .

وهناك من ربط هذه الظاهرة بسيطرة أحد النصفين الكرويين فى المخ ، فإذا كانت تلك السيطرة تتركز فى النصف الأيمن نشأ الطفل يساريا ، وإذا كانت فى النصف الأيسر كان أيمن ، ولكن ذلك يتأخر ظهوره فى بداية حياة الطفل إلى أن يكتمل نضج الجزء المسيطر من المخ وليس لهذه النظرية أساس علمى واضح .

ثم هناك فريق ثالث يقولون : إن تفضيل استعمال إحدى اليدين على الأخرى يرتبط بزيادة حدة الإبصار فى إحدى العينين ؛ بمعنى أنه إذا كانت

العين اليسرى أحدّ بصرا من اليمنى نشأ الطفل أيسرا ، وإن كانت العين اليمنى أحدّ من اليسرى نشأ أيمنا ؛ فالعلاقة توافقية طردية بين اليد التى تستعمل والعين القوية . ولكن البحث أثبت خطأ هذه النظرية ؛ فهناك كثير من اليساريين تتركز حدة إبصارهم فى العين اليمنى ، كما أن هناك كثيرا ممن يستعملون اليد اليمنى تتركز حدة إبصارهم فى العين اليسرى .

وقد أثبتت الدراسات والأبحاث الإحصائية الدقيقة ، أن تفضيل استعمال إحدى اليدين على الأخرى يخضع لعوامل فطرية يرثها الطفل ، إما من أحد والديه مباشرة ، وإما بطريقة غير مباشرة من أحد الأقرباء ، بصرف النظر عن مرتبته قربا أو بعدا فى السلم العائلى .

العوامل المؤثرة على النمو الحركى :

هنالك عدة عوامل تؤثر على قدرة الطفل الحركية ونموها . ومن أولى هذه العوامل حالة الطفل الجسمية وصحته العامة . فقد ثبت من الدراسات التى قام بها (ويش ، كامبيل) أن هنالك ارتباطا بين وزن الطفل وبين قدرته على الجلوس والزحف والمشى . هذا وقد أثبتت الدراسات التى قام بها (آبرامسن) أن هنالك علاقة بين التأخر فى النمو الحركى والإصابة بالمرض خلال فترة الطفولة.

وقد لاحظ المؤلف من دراساته الخاصة بالعيادة السيكلوجية الملحقة بمعهد التربية للمعلمين عند بحثه للتاريخ التطورى للأطفال الذين يحالون على العيادة ، أن هنالك علاقة بين ما يتعرض إليه بعض الأطفال من إصابات أثناء الحمل أو أثناء عملية الولادة ، وبين تطور العمليات الحركية المختلفة كالمشى والقبض على الأشياء واستعمال القلم فى الرسم أو الكتابة .

وهنالك عامل آخر يؤثر على النمو الحركى ، ألا وهو نقص القدرة العقلية . فهنالك دراسات عدة قام بها (سكوت ، سميث) أثبتت أن الأطفال المتأخرين فى عطائهم الذهنى يعانون كمجموعة نقصاً فى قدراتهم الحركية ، بعكس الأطفال

الموهوبين فإنهم كمجموعة يظهرون تفوقا فى نموهم الحركى . وكما أن النقص فى الذكاء يؤثر فى النمو الحركى ، كذلك إضطرابات الشخصية كالخجل والإنطواء والعدوان والاعتماد على الغير ، كلها عوامل تنعكس بدورها على نشاط الأطفال الحركى.

والبيئة تلعب دوراً هاما فى تنمية النمو الحركى . ويبدو أثر البيئة جلياً فيما يقدمه المشرفون على تربية الأطفال من تشجيع وتمرين و إيجاد الدوافع التى تثير الأطفال وتدفعهم إلى الحركة . ويكون ذلك عن طريق إشراك الأطفال فى الكثير من أوجه النشاط المدرسى على أن يكون ذلك تحت اشراف وتوجيه مشرفين لهم دراية بسيكلوجية النمو . فعن طريق هذا النشاط يكتسب الطفل المرونة والاتزان فى حركاته .

الخلاصة مع بعض التطبيقات العملية :

يلاحظ أن الطفل فى مرحلة ماقبل المدرسة ينمو نموا بدنيا سريعاً ، إذ يصل فى سن الرابعة إلى حوالى ٤٠٪ من نموه الجسمى العام . كذلك تكون عضلاته الكبيرة قد بلغت مرحلة من النضج تساعده على القيام بالأعمال الحركية كالجرى والقفز والتسلق . أما عضلاته الدقيقة فلا تكون قد وصلت إلى مرحلة كافية من النمو ، ولهذا نجده لا يحسن استخدام أطرافه فى الأعمال الدقيقة كالكتابة والرسم والتلوين . ولا شك أن دقة الحاسة العضلية عامل هام من عوامل المهارة اليدوية ، وهذه الدقه تنمو وتطرد فى المرحلة التالية من مراحل النمو.

يسير النمو الجسمى فى الزيادة . ولكن سرعة النمو تكون بطيئة ، إذ يصل هذا النمو إلى ٤٢٪ فى سن السادسة و ٤٥٪ فى سن الثامنة و ٥٠٪ فى سن العاشرة و ٥٨٪ فى سن الثانية عشرة . ويتضح من ذلك أن هناك فترة نمو سريع فى السنوات الأربع الأولى من حياة الطفل يليها فترة نمو بطىء نسبيا تستمر إلى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة . والسير فى ذلك يرجع إلى حكمة فى التكوين ، فالتباطؤ فى النمو الجسمى العام — لاشك — أنه يتيح الفرصة

للقـدرات العقلية للنمو . ودليلنا على ذلك ما نلاحظه من فرق كبير فى طريقة تفكير الأطفال فى مرحلتى الطفولة الأولى والثانية .

أما من حيث النمو الحركى فنلاحظ أن العمليات الحركية فى مرحلة الطفولة المتأخرة تصبح أكثر تهذيبا وتنسيقاً وتنظيما ودقة . فليست حركات الطفل ونشاطه المتصل باللعب قاصرين على الجرى والقفز والدفع غير المهذب ، بل تعدى ذلك إلى نوع من النشاط الحركى المنظم الذى يتطلب من الطفل دقة وتوافقاً فى الحركة وتعاونا مع الغير ليسهل عليه تحقيق الهدف .

أما فيما يتعلق بالعمليات الحركية التى تعتمد على الحساسية العضلية ، فيبدو على الطفل فى المدرسة الابتدائية خصائص جديدة فى هـذه الناحية لم تكن موجودة من قبل . ودليلنا على ذلك أنه بعد أن كانت كتابة الطفل فى سن السادسة وما قبلها عبارة عن خطوط غير موجهة وسرعته فى الـكتابة بطيئة ودرجة ضغطه على القلم ليست فى مستوى متزن ، نلاحظ أنه بعد سن السابعة ، تأخذ هذه القدرة فى التحسن .

التطبيق التربوى :

تلك هى خلاصة لأهم خصائص النمو العضلى والحركى فى مرحلة الطفولة . والسؤال الذى يواجهنا الآن : كيف نستفيد من هـذه الدراسات فى عملنا كمدرسين ؟ وأستطيع أن أضع السؤال فى صورة أخرى : ما الذى نستطيعه كمشرفين على تعليم النشء ، أن نوفق بين خصائص نمو الطفل وتربيته ؟

إن من أقدس مهام المدرسة الابتدائية العمل على تنمية امكانيات التعليم الحركى الذى يزود الأطفال بالتدريب المستمر ويمكنهم من استعمال عضلاتهم وعن طريق هذا الاستعمال تقوى تلك العضلات وتتكون لديهم فى الوقت ذاته المهارات الحركية المخفة تلالتى تمهد لسبيل للتدريب على الحرف المختلفة والهوايات التى تعتمد على الأدوات مثل الفلاحة وأعمال النجارة والبناء .

الفصل الأول

حياة الطفل الانفعالية

تمهيد :

تعتبر استجابات الفـرد الانفعالية من النواحى الأساسية فى تكوين شخصيته . فنحن نلاحظ — منذ أيام طفولته الأولى حتى أن يصبح شيخا— أن لانفعالاته اتصالا وثيقا بسعادته و بؤسه ، أو بعبارة أعم بسلوكه . و يتضمن هذا السلوك ميوله وعادته وصحته العقلية وقدرته على ملاءمة نفسه مع المجتمع الذى يعيش فيه .

وسنعالج فى هذا الفصل انفعالات الطفل وأثر تلك الانفعالات فى توجيه سلوكه . و يدعونا هذا إلى دراسة الموضوعات الآتية :

ما معنى الانفعال ؟ وما طبيعته ؟

كيف تدرس انفعالات الأطفال ؟

تطور انفعالات الطفل فى السنة الأولى من حياته ؛ إلى أى حد يؤثر عامل النضج وعامل التعلم فى استجابات الطفل الإنفعالية ؟

طبيعة الانفعال ومعناه :

من العسير تحديد معنى الانفعال عن طريق التعريف ولـكن من السهل علينا أن نفهمه بخصائصه والآثار المترتبة عليه ، وأهمها :

(١) أن الانفعال حالة تغير مفاجئ تشمل الفرد كله دون أن يختص بها جزء معين من جسمه .

(٢) أنه بطبيعته ظاهرة نفسية أو بمعنى آخر أنه عبارة عن حالة شعورية يحس بها الفرد كما أنه يستطيع وصفها . و بناء على ذلك يصبح من اليسير تمييز كل انفعال عن غيره ، فهناك انفعال الغضب ، والخوف ، والفرح ، والحزن ،

والمحبة ، والغيرة ، والقلق ، والنفور ، والارتياح . . . الخ . إن لكل انفعال من الانفعالات السابقة مظهرا خارجيا واضحا يمكن ملاحظته عن طريق التعبيرات الخارجية .

(٣) أنه فى بعض الحالات يكون للانفعال مظهر داخلى عضوى ، يعمل على تنشيط الكيان العضوى للكائن الحى ويجعله فى حالة تهيؤ ، ولقد كان للأبحاث المختلفة التى قام بها دارون (١٨٧٢) وكانون (١٩٣٢) أهمية كبرى فى الإبانة عن العلاقة بين الانفعال والنواحى الفسيولوجية . ومن بين تلك الأبحاث ما لاحظه (كانون) من تغيرات تعترى الغضبان والخائف كسرعة ضربات القلب واضطراب التنفس وازدياد إفراز بعض الغدد — وخاصة الغدد النخامية — فهذه التغيرات الداخلية تعمل على تنشيط الكيان العضوى للكائن الحى وتجعله فى حالة تهيؤ يؤدى به إلى الهرب فى حالة الخوف وإلى الاعتداء فى حالة الغضب .

ويمكن تلخيص رأى « دارون » و « كانون » فيما يلى : « تحدث الحالة الانفعالية أو الشعور الانفعالى أولا ثم يلى ذلك التغيرات الفسيولوجية » . وبعبارة أخرى : أن التغيرات الداخلية تكون نتيجة للحالة الشعورية التى تأتى فى المرتبة الأولى .

وقد خالف كل من « جيمس » و « لانج » التفسير السابق ، وقالا : إن الأساس فى أى انفعال يرجع إلى بعض التغيرات الحشوية (visceral) وكذلك إلى حركات الأوعية الدموية (vsao-motor acco mpaniments) وليست التغيرات الفسيولوجية فى نظرهما — نتيجة للانفعال أو مصاحبة له ، بل هى التى تحدثه .

كيف تدرس انفعالات الأطفال :

هناك طرق مختلفة لدراسة الانفعالات لدى الأطفال ، منها :

(١) أن نقدم للطفل بعض المثيرات الحسية أو الإدراكية ونلاحظ استجابات الطفل لتلك المثيرات ، كأن نحدث صوتا عاليا مفاجئا مثلا ، ثم نلاحظ ما يقوم به الطفل من سلوك ظاهرى ، سواء كان نوعا من الانزعاج أو البكاء أو اضطرابا فى التنفس . وعن طريق هذه الظواهر الخارجية نستطيع الحكم على نوع الانفعالات .

(٢) نستطيع الحكم على وجود حالة انفعالية لدى طفل ما عن طريق التغيرات الفسيولوجية الداخلية . و تشمل هذه التغيرات سرعة ضربات القلب وجفاف الفم ، ونشاط الغدد التى تفرز العرق ، و بعض التغيرات الكيماوية فى الدم ، وانقباض بعض عضلات الجسم أو ارتخاءها . ويمكن قياس تلك التغيرات بوساطة أجهزة خاصة تستخدم لتسجيل حركات التنفس والضغط والنبض .

وقد اتجه تفكير المحققين فى الأيام الأخيرة إلى استخدام المظاهر الانفعالية الفسيولوجية فى معرفة ما تنطوى عليه نفوس المتهمين فى الجنايات المختلفة . إذ من الممكن معرفة ما إذا كان الشخص يكذب أو يخفى بعض الحقائق عن طريق ملاحظة بعض الحركات الانعكاسية التى تقوم بها الغدد والحواس (كسرعة حركات العين) . وكذلك يمكن معرفة ما إذا كان الشخص يشعر بالخوف عن طريق دراسة ضربات القلب وجفاف الفم . . . الخ

(٣) كذلك تمكن دراسة الانفعالات عن طريق تسجيل التغيرات الكهربائية التى تحدث على سطح الجلد أثناء انفعال ما . و يمكن تسجيل ذلك بوساطة الجهاز المسمى « الجلفانومتر السيكلوجى »(Psycho-Galvanometer)

ويستعمل الجهاز على النحو التالى :

« نمرر تياراً كهربائيا فى الشخص المختبر وفى الجلفانومتر . ونكيف مقاومات الجهاز الكهربائى بحيث يكون مشير الجلفانومتر على الصفر . ثم ننبه الشخص بخأة إما بحركة مفاجئة أو بطلقة نارية وراء ظهره . . . الخ . فنلاحظ أن مشير الجلفانومتر يتحرك أحيانا ببطء وأحيانا بسرعة . ويدل ازدياد الانحراف على انخفاض مقاومة الجسم لمرور التيار الكربائى . ويرجح أن يكون سبب انخفاض المقاومة هو ازدياد إفراز العرق نتيجة لتنشيط الجهاز السمبثاوى ، إذ أن هذا السائل المالح — أى العرق — من شأنه أن يسهل مرور التيار . فيمكن أن يكون المنعكس السيكوجلفانى إذن دليلا على إفراز العرق وبالتالى على حدوث الانفعالات »[1]

(٤) وهناك بالإضافة إلى ما سبق بعض الاختبارات الذاتية لدراسة انفعالات الأطفال وخاصة التلاميذ وطلاب المدارس ، منها :

(ا) طريقة التداعى الحر (free association) وذلك بأن يذكر المختبر الكلمة ويلاحظ ما يعترى المختبر من تغيرات ظاهرية تبدو على وجهه — من ارتباك وفزع وحزن وخجل . . . الخ وما هذه كلها إلا مظاهر انفعالية مختلفة .

(ب) عن طريق اختبارات الثبات الانفعالى المختلفة ، ومنها استخبار « وود ورث » لدراسة الثبات الانفعالى

(The Woodworth emotional stability questionnaire)

وهو يتكون من ٧٥ سؤالا ، يجاب عنها بـ « نعم » أو « لا » وهى

(١) عن الدكتور يوسف مراد : مبادئ علم النفس العام . ص ١١٢ .

تعين على كشف الاتجاه الانفعالى إزاء موضع معين . وهذه بعض نماذج اقتبسناها منه :

(١) هل تخاف الظلام ؟ نعم لا .

(٢) هل تخاف أثناء هبوب العواصف ؟ نعم لا .

(٣) أأنت دائما سعيد ؟ نعم لا .

(٣) هل تشعر بالضيق وأنت تخترق طريقا أو ميدانا ؟ نعم لا .

(٥) هل تفضل أن تلعب وحدك أو مع أطفال آخرين ؟ نعم لا .

(ح) إختبار (بريسى The Pressey X. O. Tests)[1] .

ويتكون من ثلاثة أقسام وكل قسم عبارة عن ١٢٥ كلمة .

ويطلب من التلميذ فى القسم الأول شطب الكلمات التى يحبها أو يميل إليها . وهذه بعض نماذج اقتبسناها منه :

١ — المذاكرة — الرقص — أحلام اليقظة — المشى — القراءة .

٢ — بتهوفن — أديسن — نابليون — رافائيل — تنيسون .

أما فى القسم الثانى فيطلب منه شطب كل كلمة يعتقد أنها خطأ . وهذه بعض نماذج اقتبسناها منه :

١ — الخوف — الغضب — الشك — الكسل — الاحتقار .

٢ — الغباء — الضعف — الجهل — القذارة — الوضاعة .

وفى القسم الثالث يطلب منه شطب كل كلمة تثير مضايقته أو تجعله يشعر بعدم الراحة . وهذه بعض نماذج اقتبسناها منه :

١ — الظلام — السياسة — الأحلام — اللصوص .

٢ — النار — فقدان الأعصاب — الجراثيم — الاهانة .

---

(١) لهذا الاختبار تعديلات كثيرة ،من بينها التعديلات التى قامت بها الدكتورة (كولينز) بجامعة أدنبره ، وقد طبقت الاختبار بنجاح على أطفال فيما بين (١١ — ١٥) عاما .

(د) اختبار الاتجاهات الانفعالية نحو الأسرة :
(Emotional Attitudes Towards The Family)

وضعت هذا الاختبار (ليديا جاكسون) ، وهو يتكون من مجموعة من الصور بلغت ستا يمثل كل منهـا موقفا عائليا خاصاً . وهذه الصورة مرقمة من (صفر) إلى (٥) . فالصورة رقم (١) مثلا تمثل رجلا وامرأة جالسين بجوار بعضهما و يلعب أمامهما طفل بالقرب من باب حجرة نصفه مفتوح والنصف الآخر يختفى من خلفه رجل . أما الصورة المرموز لها بالرقم (٢) فيظهر فيها رجل ينظر إلى امرأة تحمل طفلا رضيعاً ، و بالقرب منهما طفل صغير ينظر إليهما فى شيء من الدهشة والألم .

أما طريقة اجراء الاختبار فإنه تعرض على حدة كل صورة من المجموعة و يطلب من الطفل أن يكوّن مما يراه قصة مناسبة . وفى حالة توقف المفحوص يمكن تشجيعه عن طريق إلقاء بعض الأسئلة التى تساعده على التفكير وتنيره على تكوين القصة .(١)

---

(1) Emotional Attitudes towoards the family by Lydia Jackson Part I & II . The Brit. Jour. of Psy. 1950 (Sep. & Dec.)

تطور النمو الانفعالى فى حياة الطفل

السـنة الأولى

ينقسم الباحثون فيما يتعلق بدراسة النمو الانفعالى لدى الطفل فى السنة الأولى من حياته إلى فريقين ؛ يؤكد أحدهما أن الطفل يولد مزودا ببعض الانفعالات ، بينما يرى الفريق الثانى أنه لا توجد لدى الطفل فى الأيام الأولى من حياته سوى نوع من النهج العام (excitement) الذى لا يتبين فيـه انفعال معين .

وسنحاول أن نعرض فيما يلى رأى كل من المدرستين مشفوعا بالتجارب التى أجراها كل فريق :

يتزعم الفريق الأول (وطسن) الذى يقول : إن لدى الطفل عند ميلاده ثلاثة انفعالات هى :

الخوف — الغضب — الحب

ولقد توصل (وطسن) إلى هذا القول بعد إجراء عدة تجارب والقيام بالكثير من الملاحظات على المواليد من الأطفال فى مستشفى (بالتيمور) بأمريكا ، حيث كان يخضعهم لبعض المثيرات الخاصة ، ويدون الاستجابات الانفعالية الحادثة . فمثلا عندما كان يوضع الوليد بين ذراعى الممرضة ، التى كانت تقربه من صدرها وتهزه بلطف ، لوحظ أن الوليد يكون فى حالة تدل على الارتياح ، كما أنه يبتسم إذا لمست الممرضة فمه لمساً خفيفاً .

ولقد فسر وطسن كل هذه الاستجابات على أنها عبارة عن نماذج تدل على الحب والرحة (Love - Comfort pattern)

ومما لاحظه (وطسن) كذلك أنه فى حالة فقد الوليد للسند وهو فى ذراع المرضة ، كان يشهق ويدفع ذراعيه إلى أعلى ؛ مما يدل على انزعاجه (Startle pattern) ؛ أما فى حالة وخزه بدبوس أو عند إحداث صوت مرتفع مفاجئ ، فقد كانت تحدث استجابة انفعاليه من نوع آخر كالخوف والألم (Pattern of fear & pain) ؛ وعندما كان يثبت ذراع الوليد إلى جانبه أو عندما يعاق عن القيام بأى حركة من حركاته ، فقد كانت تؤدى هذه الأعمال إلى البكاء مع أحمرار وجهه ودفع ذراعيه . وقد عبر « وطسن » عن هذه الاستجابة الأخيرة بالغضب (rage) .

وقد اعتبر « وطسن » كل المثيرات السابقة طبيعية ، أصلية (original) تثير الحالات الانفعالية التى وصفها (الحب والخوف والغضب) وهذه الانفعالات موجودة عند الوليد ، وعن طريق التعلم ، تكتسب بعض المثيرات الجديدة صفات المثيرات الطبيعية ، ودال على ذلك بالمثال التالى : إذا صاحب إحداث صوت مرتفع ظهور حيوان (أرنب مثلا) وتكررت العملية عدة مرات ، فإن ظهور الأرنب بمفرده كفيل بإثارة الخوف فى نفس الطفل ، ذلك لأن المثير الصناعى الجديد (وهو الأرنب) فى هذه الحالة قد اكتسب صفة المثير الطبيعى الأصلى وهو الصوت المرتفع .

أما الرأى الآخر فى تفسير الانفعالات وتطورها ، فإن نتائج أبحاثه لم تؤيد النتائج التى وصل إليها « وطسن » . فقد أجريت عدة تجارب على أطفال كانت أعمارهم تقل عن ١٢ يوما لمعرفة أثر الاستجابات الانفعالية عند تعرضهم لمثيرات خاصة مثل الجوع عن طريق تأخير الطعام لمدة ٣٠ دقيقة عن الميعاد الذى تعود عليه الطفل ؛ أو إسقاطه من ارتفاع يبلغ ثلاثة أقدام على سرير رخو ، وقد كانت تؤخذ لكل هذه المواقف صور سينمائية ثم تعرض على

مجموعة من المشتغلين بعلم النفس والطب والتمريض ؛ وفى الوقت نفسه كان يطلب منهم أن يذكروا أى انفعال تدل عليه صورة الطفل . وإليكم بعض النتائج :

تجربة الجوع :

١٣	فرداً	قالوا إن صراخ الطفل يدل على الغضب .
٧	أفراد	« « « « « « الخوف .
٧	«	« « « « « « الجوع .
٣	«	« « « « « « الألم .
١	فرد	قال « « « « « الحزن .

تجربة السقوط (فقد السند) :

١٥	فرداً	قالوا إن الصورة تدل على الغضب .
٥	أفراد	« « « « « الخوف .
٦	«	« « « « « الجوع .
٣	«	« « « « « الألم .

وهكذا نرى أن أفراد كل مجموعة من المجموعتين السابقتين لم يتفقوا على تحديد الإنفعال الناجم عن كل مثير من المثيرات الطبيعية السابقة التى ذكرها « وطسن » ؛ و بناء على ذلك فإن ما يعتبره « وطسن » مثيراً طبيعيا عاما (universal) ، لا يحدث نفس الاستجابة الانفعالية فى جميع الأطفال [1] ففى حالة سقوط الطفل من يد مربيته مثلا لم تكن الاستجابة الانفعالية قاصرة على انفعال الغضب كما كان يقول « وطسن » بذلك بل كانت هناك بناء على التجارب السابقة تفسيرات أخرى ، فقد فسر البعض الاستجابة الانفعالية الناجمة عن نفس المثير بأنها حالة ألم وفسرها البعض الآخر على أنها حالة غضب .

(1) Fowler D. Brooks : child psychology (1941) p. 283.

ولقد أجريت تجربة أخرى لمعرفة مدى صحة ما وصل إليه (وطسن) من نتائج . وتتلخص التجربة فى أنه أطلقت طلقة من مسدس عندما كان الطفل فى حالة بكاء ، فلوحظ أنه — فى كثير من الحالات — كان يكف عن البكاء عند سماع ذلك الصوت المفاجئ ، فى حين كان المفروض — على حسب رأى وطسن — أن يزداد بكاء الطفل لا أن يكف عنه عند سماع طلقة المسدس .

ومن بين التجارب الأخرى الحديثة التى لا تؤيد النتائج التى وصل إليها (وطسن) أبحاث كاترين بردجز[١]

قامت (بردجز) بملاحظة عدد كبير من الأطفال فى العامين الأولين من عمرهم ، واستخلصت من ملاحظاتها ما يلى :

أولا : لا نستطيع من مراقبتنا لطفل مولود حديثا أن نميز انفعالات محددة ، كما يقول بذلك (وطسن) إن الحكم بأن هنالك — فى هذه الفترة المبكرة — انفعالا كالغضب أو الخوف أو الحب قول لا يستند إلى دليل حاسم . وكل ما هنالك هو أن الطفل نتيجة للمثيرات التى ذكرها (وطسن) كان يقوم بنشاط انفعالى عام مصحوبا بالبكاء أو ببعض الحركات العشوائية بقدميه أو بيديه .

ثانيا : فى الأسابيع الأولى من حياة الرضيع لا تكاد تميز انفعالا محددا استجابة لمنبهات أو مثيرات معينة ، بل تكون الاستجابة الانفعالية تهيجا عاما (Generalexcitement) لا يظهر فيه انفعال بالذات . ثم عندما يتقدم العمر بالطفل يأخذ هذا التهيج العام فى التميز تدريجيا . ويمكننا إذ ذاك أن

---

(1) K. Bridges : Emotional development in early infancy (vol. 3) P. P. 324-344

تتعرف انفعالات معينة . ثم تأخذ هذه الانفعالات فى التنوع والوضوح ، وإليكم التفصيل :

فى الشهر الثالث من ميلاد الطفل يلاحظ إلى جانب هذا التهييج العام ، نوعان جديدان واضحان من الإنفعال هما : الارتياح — والضيق .

وابتداء من الشهر السادس يلاحظ أن انفعال الضيق (Distress) يتضح فيتخذ عدة أشكال ليست سوى انفعالات متميزة وهى انفعالات :

الغضب — والتقزز — والخوف .

ويقابل ذلك التنوع فى جانب الشعور العام بالضيق ، تنوعا آخر فى حالة الشعور العام بالارتياح (Delight) فنلاحظ فى الشهر الثانى عشر أن هذا الشعور العام يأخذ صورتين جديدتين متميزتين هما : الحنان — والزهو .

وحوالى الشهر الثامن عشر يتخصص انفعال الحنان ويتخذ مظهرين هما :

حنان نحو الصغار — وحنان نحو الكبار .

وهكذا ترى أن انفعالات الطفل فى نهاية السنة الثانية تنمو وتتنوع وتتخصص بعد أن كانت عبارة عن حالة تهيج انفعالى غامض . أى أن (بردجز) تؤيد فكرة التطور الإنفعالى . (Emotional growth) ، شأنه فى ذلك شأن التطور العقلى والجسمى . فالأمر هنا لا يخرج عن كون النمو الانفعالى عبارة عن عملية تطور ، مثله فى ذلك مثل الجنين الذى يكون فى بدء تكوينه عبارة عن كل غامض ثم يكتسب هذا الكل الغامض — بمرور الزمن — صفات تكوينية تعمل على توضيح عناصر ذلك الكل ؛ ومثل الجنين فى ذلك مثل اللغة التى تكون فى المراحل الأولى من مراحل التعبير عبارة عن أصوات مبهمة يقوم بها الطفل ثم تتضح هذه الأصوات المبهمة تدريجيا وتأخذ أشكالا متنوعة ذات دلالات خاصة .

أثر التعلم فى النمو الانفعالى :

يلعب التعلم دورا هاما فى تطور الانفعال وفى تعديل مظاهره الخارجية ، وكذلك فى اكتساب المثيرات الجديدة صفات المثيرات الطبيعية التى تثير الانفعال أصلا . وسوف نوضح ذلك فيما يلى :

هناك مثيرات تثير فى الأطفال — مثلا — انفعال الخوف . ومن بين هذه المثيرات الأصوات العالية الفجائية . وقد يحدث فى بعض الحالات أن يرتبط حدوث المثير الطبيعى ، بمثير آخر ليس له صلة أصلا بإثارة انفعال الخوف (رؤية أرنب مثلا) فيكتسب بذلك المثير الصناعى ، صفة المثير الأصلى عن طريق التكرار . فإذا تغيب المثير الطبيعى بعد ذلك ، أحدث المثير الصناعى المرتبط به ، نفس الأثر . ومعنى ذلك أن المثير الجديد قد ارتبط بالمثير الطبيعى أثناء التجربة وتكرارها . ولذا يحدث نفس الأثر لأنه اكتسب صفة جديدة عن طريق الاقتران . وهكذا نرى أن الاكتساب أو التعلم عامل هام فى النمو الانفعالى ، إذ يتعلم الطفل من البيئة أن يستجيب لأشياء لم يكن يستجيب إليها من قبل .

وهناك مظهر آخر يتضح فيه أثر التعلم فى إزاله الاستجابات الانفعالية التى يكون الفرد قد اكتسبها نتيجة ارتباط مثير معين بانفعال خاص . ولنوضح ذلك بالمثال الآتى : هب أن طفلا كان يخاف من الكلاب نتيجة خبرات مؤلمة تتصل بهذه الحيوانات . فمن المستطاع تخليص الطفل من الاستجابات الانفعالية المرتبطة بالكلاب عن طريق إيجاده فى مواقف توجد فيها بعض الكلاب المسالمة وتشجيعه على اللعب معها .

ونستطيع أن نضيف إلى ما سبق أن الطفل سوف يتعلم عن والديه فى

طفولته المبكرة كيف يستثار انفعاليا بالنسبة إلى مواقف معينة ، ويكون ذلك عادة عن طريق الاستهواء ، فالأب الذى يخاف من الأماكن المظلمة ، والأم التى تخاف من الأشباح والعفاريت من السهل أن يغرسا فى نفوس أطفالها الاستعداد للخوف من نفس هذه الأشياء . ويحضرنى — بهذه المناسبة — حالة سيدة كانت تخاف وتصرخ عندما تقترب منها قطة . وكانت تقوم بتلك الاستجابات الانفعالية أمام أولادها الصغار . ومن الغريب أن نجد إحدى بناتها الصغيرات كانت تشعر بنفس الشعور بالنسبة للقطط ، دون أن تمر بخبرات مؤلمة — كما كان الحال مع أمها — تتصل بهذه الحيوانات .

ويكتسب الأبناء عن آبائهم وأمهاتهم المظهر الذى يعبرون به عن انفعال ما ، ففى انفعال الغضب نتيجة الإعاقة أو الاحباط أو الوقوف فى سبيل تنفيذ الرغبات ، نجد الطفل يعبر عن ذلك بوسائل عدة منها : الانفجار بالبكاء أو التخريب أو الهجوم على الشخص الذى يتسبب فى الإعاقة أو الوقوف دون تحقيق رغباته ، أو التذمر والنقد والاحتجاج . إن هذه وسائل أو مظاهر متنوعة للتعبير عن غضبه . ولا شك أن توجيه الوالدين من شأنه أن يجعل الطفل يتحكم فى الطريقة التى يعبر بها عن غضبه ، بشكل يجعل استجابته الانفعالية تقرها الأسرة .

دراسة تفصيلية لبعض انفعالات الأطفال :

تبدأ انفعالات الأطفال فى العام الثانى فى الوضوح والتنوع ، بعد أن كانت غامضة ؛ وسوف نعرض فيما يلى بعض تلك الانفعالات ، موضحين خصائص كل منها والمثيرات التى تثيرها ، وأنواع الاستجابات الانفعالية وفقا لموقف الآباء والمحيطين بالطفل من هذه الاستجابات .

ومن بين تلك الانفعالات التى سنتناولها بالدرس والتحليل ، انفعالات الغضب والخوف والغيرة والمحبة .

الغضب :

ليس ثمة استجابات واضحة تدل على انفعال الغضب فى الأيام الأولى من حياة الطفل . وكل ما هنالك حالة انفعالية عامة على شكل صراخ مع تحريك بعض أعضاء الجسم حركات عشوائية لا ارتباط بينها .

إلا أن هذه الحالة لا تستمر طويلا ، بل يبدأ هذا الانفعال فى الوضوح والتحدد . ويكون من أهم أسباب الغضب فى الأطفال أثناء عامهم الأول عدم تحقيق حاجياتهم وخاصة الحاجات الفسيولوجية . إلا أنه عند ما يتقدم به العمر ويتحكم فى عملية المشى وتأخذ قدرته العقلية واللغوية فى النمو التدريجى ؛ نجد أن بواعث الغضب تزداد . ومن بين هذه الأسباب : نقد الأطفال ولومهم ، إغاظتهم ، التجسس عليهم ، لفت نظرهم إلى الصواب ؛ مقارنتهم بغيرهم أو تكليفهم بأعمال صعبة فوق مستواهم ، أو التدخل فى مشاريعهم وما يقومون به من نشاط .

ولقد قام جود إنف (Goodenough)[١] ببعض الدراسات على عدد من الأطفال بلغ (٤٥) طفلا ، وقد طلب من أمهات هؤلاء الأطفال أن يدونوا يوميا ملاحظاتهم عن غضب أطفالهن ولقد استمرت ملاحظات الأمهات مدة أربعة أشهر فى بعض الحالات ؛ وفى حالات أخرى لم تقل عن شهرين . ولقد تبين من تلك الأبحاث أن $\frac{3}{4}$ الأسباب التى تسبب غضب الأطفال لغاية سن

(١) أجريت تلك الأبحاث تحت إشراف جامعة منيسوتا بأمريكا .
Goodenough : unger in young children 1951.

الثالثة تدور حول علاقة الطفل بوالديه و إخوته وما يترتب على ذلك من التحكم فى تصرفات الطفل ، أو أن تفرض عليه رغبات معينة تتصل بذهابه إلى الفراش أو تناول الطعام أو مطالبته بالقيام بعادات صحية تتصل بالاستحمام والتبول والتبرز وتنظيف أســنانه وتمشيط شعره أو بتكليفه قضاء بعض الأمور داخل المنزل .

أما عن الطريقة التى يعبر بها الطفل عن انفعال الغضب فتأخذ أشكالا متباينة ، ويخضع هذا التباين إلى سن الطفل ، فقد اتضح من تجارب (جود إنف) السابق الإشارة إليها ما يلى :

(١) حوالى ٩٠٪ من استجابات الطفل الغضبية فى السنة الأولى تأخذ شكل نشاط غيره موجه (Undirected energy) : الصراخ ، إلقاء نفسه على الأرض ، الرفس بالقدمين ، العض ، القفز إلى أعلى وأسفل . . . الخ بينما نجد أن هذه النسبة تقل إلى ٤٠٪ وذلك فى سن ٤ سنوات .

يقابل ذلك أن الطفل فى سن الرابعة يستبدل هذا النوع من الاستجابات الانفعالية بنوع آخر يكون على شكل احتجاجات لفظية واستعمال ألفاظ بقصد التهديد أو القذف . وتصل نسبة ما يستعمل من هذا النوع من الاستجابات الانفعالية نتيجة الغضب حوالى ٦٠٪ مما يحدث للتعبير عن غضبه . بينما سلوك الغضب الذى يعبر عنه بالأخذ بالثأر يكاد لا يلاحظ فى العام الأول من حياة الطفل غير أنه يُكوِن حوالى ¼ انفعالات الطفل وهو فى عامه الرابع .

الخوف :

وتصدر مخاوف الطفل فى الأشهر الأولى من حياته عن أمور وأشياء مادية (Concrelte) توجد فى بيئته المباشرة ، ومن بين الأمور التى تثير انفعال

الخوف عند الأطفال فى هذه الفترة الأصوات العالية المفاجئة ، أو ظهور شخص قريب ، أو الشعور بفقدان شخص معين كالأم مثلا .

ولقد اعتبر (وطسن) الأصوات العالية أو السقوط ما هى إلا منبهات طبيعية لشعور الوليد بالخوف ، وأن باقى مصادر الخوف ما هى إلا مثيرات شرطية أى ارتبطت بالمثير الأصلى (الطبيعى) فاكتسبت صفته . فالمثيرات الطبيعية للخوف فى نظر (وطسن) — هى الأصوات العالية وفقدان السند . ثم يشتق منها مثيرات أخرى نتيجة الترابط الذى يحدث بينها .

إن الأخذ بهذا الرأى فيه تحديد لفهمنا لطبيعة السلوك الإنسانى كما أنه لا يتفق مع الواقع ، حيث أن الطفل عندما يتقدم به العمر قليلا و يصل إلى درجة من النضج العقلى والجسمى نجده يخاف من مصادر أخرى — غير المنبهات الطبيعية السابقة — إذ نجده يخاف من أى موقف غير متوقع وفيه غرابة ، كما أنه يخاف من كل مثير يؤلمه سواء أكان هذا المثير بصريا ، سمعيا ، أم لمسيا .

هذا و يحسن الإشارة إلى أنه ليس هناك مثير واحد يحدث الخوف فى الطفولة المبكرة ، بل مجموعة من العوامل المتداخلة ، فمثلا صوت مرتفع لا يثير خوف الطفل الوليد وهو فى حجر أمه ، فى الوقت الذى يثيره هذا الصوت إذا تواجد بمفرده فى حجرة خالية من الأشخاص . هذا وقد يخاف الطفل من حجرة مظلمة غريبة عنه لا تمت إليه بصلة، بينما لا يشعر نفس الشعور إذا كان فى حجرة نومه الخاصة فى حالة الظلام . وقد يخاف كذلك عند سماع صوت سيارة وصفير وابور بخارى عند حدوث الصوتين معا ، ولكن لا يخاف عند سماع كل صوت على حدة .

هذه هى بعض المنبهات التى قد تحدث الخوف فى حياة الطفل فى السنة الأولى ؛ إلا أن هذه المنبهات قد تفقد قوتها المثيرة و يحل محلها مثيرات

ومواقف أخرى عندما يتقدم الطفل فى العمر ؛ ذلك أنه فى الفترة التى تقع بين سنتين وخمس سنوات ، نلاحظ أن منبهات الخوف تزداد فى العدد وتختلف فى النوع . فنحن نلاحظ من بين مثيرات الخوف فى تلك السن الخوف من الأوهام والخيالات والأشياء البالية القديمة ، والخوف من المخاطر والخوف من الحيوانات القريبة والخوف من الفشل والخوف من الضحك والسخرية والخوف من الظلام ومن الأشباح . ولكننا نلاحظ فى مرحلة الطفولة المتأخرة أن أمثال هذه المخاوف تزول من حياة الطفل وذلك لنضجه العقلى(١)

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الطفل الصغير يتعلم كيف يخاف من بعض المثيرات ، ولنوضح ذلك بالمثال الآتى : طفلة فى الرابعة من عمرها كانت لا تبدى أى استجابة تدل على الخوف من الظلام . وفى ذات مساء طلب منها والدها أن تنزل إلى الطابق الأسفل لتحضر بعض الأدوات الخاصة بتناول الطعام فى الوقت الذى كان فيه معظم أفراد الأسرة فى الطابق العلوى . إلا أن الطفلة رفضت تنفيذ أمر والدها ، فلما سألها عن السبب ، أجهشت بالبكاء ثم أردفت قائلة : « إننى أخاف من الظلام هناك إذ ربما طلعت على بعض الأسود والنمرة » . وعند سؤال الطفلة عن الذى دفعها إلى هذا الاعتقاد ، أجابت أن مدرس الدين أخبرها أن الحيوانات المفترسة خرجت من الغابات الموحشة المظلمة وقتلت الأطفال الذين كانوا يسخرون من القديسين والأنبياء .

وبالطريقة ذاتها يكتسب صغار الأطفال الخوف من الأطباء . فعندما يرتبط الطبيب الذى يتردد على المنزل من وقت لآخر فى ذهن الطفل بخبرة مؤلمة فإنه يبدأ يشعر بالخوف منه ويحاول قدر المستطاع أن يتجنبه وإذا أجبر على مقابلته فإنه يأخذ فى البكاء .

---

(1) See Jersild : Chilren's fears.

يتضح مما سبق أن الخبرة السابقة تكسب بعض المثيرات صفات خاصة تدفع الأطفال إلى الشعور بالخوف فى مواقف معينة . ومن ثم تظهر الفروق الفردية بين الأطفال على حساب خبراتهم السابقة .

كيف تعالج مخاوف الأطفال ؟

وقد يبدو للبعض أن خير طريقة للتغلب على مخاوف الأطفال ، هى أن نجنبهم المواقف التى تثير تلك المخاوف . ومما لا شك فيه أن المشكلة أكثر تعقيدا من هذا ، ذلك لأسباب منها أنه يستحيل إبعاد الطفل عن المواقف التى تبعث فيه الخوف ، وثانيا أن الحياة نفسها مليئة بالمواقف التى تثير الخوف فى الأطفال والكبار . فإذا صح ذلك فمن الأفضل إذن ألا نبعد الطفل عن المواقف التى ارتبطت فى ذهنه بإثارة انفعال الخوف ، بل إن ما يجب على الآباء فعله هو أن يعودوا الطفل على مواجهة تلك المواقف فيحدث حينئذ شىء من التحكم فيها . ونستطيع أن نوضح ذلك بالمثال الآتى : حالة طفلة كانت تخاف من الاقتراب من مياه البحر والبحيرات ، ومن المستطاع مساعدة هذه الطفلة للتخلص من هذا الشعور ، عن طريق تشجيعها من الاقتراب من الماء و بث الثقة فى نفسها ، وتلقينها ألا خطورة هناك إن هى أخذت قاربها الصغير وحاولت اللعب به على حافة البحيرة أو البحر . . . الخ . كل ذلك دون شك يبعث الثقة فى نفس الطفلة ، و يوحى إليها بطريقة غير مباشرة من أن خوفها من المياه لا يستند إلى أى أساس .

أما إذا كان سلوكنا — ونحن نحاول أن نعالج فيها هذه الناحية — قائم على التهديد والنقد و إجبارها على مواجهة الموقف بأن ندفعها إلى المـاء ، فلا شك أن مثل هذا السلوك يزيد من مخاوف الطفلة .

الغيرة :

فى العام الثانى من حياة الطفل ، نلاحظ أن الكثيرين من الأطفال يقومون بنوع من السلوك يدل على الغيرة . إن الطفل بطبعه ميال دائما إلى أن يكون موضع انتباه ورعاية ومحبة والديه ، فإذا تصادف أن شاركه طفل آخر هذه المحبة فإنه يشعر بأنه مهدد . وهذا الشعور من شأنه أن يجعل الطفل ميال إلى الاعتداء على ذلك الذى شاركه محبة والديه . و يأخذ هذا الاعتداء مظاهر عدة منها جذب شعره ، أوضربه . أو إيقاع الأذى به ، وما هذه إلا مظاهر يعبر بها الطفل عن مضايقته .

ومن بين الأسباب الرئيسية لإثارة الغيرة فى نفوس الأطفال الصغار ، ميلاد طفل جديد يصبح موضع رعاية الأسرة بعد أن كان هو مركز الرعاية والاهتمام وتكون هذه الغيرة واضحة فى الأطفال فيما بين ١٨ شهراً وأربع سنوات .

ومن الأسباب الأخرى التى تولد الغيرة فى الصغار تعلق أحد الأطفال بأمه أو بأبيه . وتوجه الغيرة فى هذه الحالات نحو الأب أو الأم أو نحو أى فرد آخر . ومن الأمثلة المشهورة للتدليل على ذلك ما ذكره (فوستر Foster) فى كتابه « الصحة العقلية » : والمثال الأول لطفلة صغيرة كانت متعلقة إلى حد كبير بأمها ، ولذا فقد كانت تشعر بغيرة شديدة عندما كان أبوها يظهر عطفاً ومحبة نحو أمها ؛ والمثال الثانى لخاص بطفل كان إذا رأى أمه منشغلة عنه بالحديث مع إحدى جيرانها كان يحدث ضوضاء وجلبة فى المنزل ، وفى بعض الظروف الأخرى كان يكيل اللكمات لهذه السيدة ثم يجرى بعيداً عنها .

تلك هى بعض أسباب الغيرة فى السنوات التى تسبق الذهاب إلى المدرسة أى فى الفترة التى تسبق سن السادسة . وعندما يكبر الطفل نجد أن أسباب الغيرة تأخذ فى التنوع ، ومن هذه الأسباب الجديدة شعور الطفل بالغيرة ممن يفوقونه فى اللعب أو فى التحصيل الدراسى .

و يختلف الأطفال فى الطريقة التى يعبرون بها عن شعورهم بالغيرة . و يحدد هذا الاختلاف درجة نضج الطفل العقلى وخبراته . فمثلا فى العامين الأولين من حياة الطفل فإنه يعبر عن انفعال الغيرة بالصياح و إحداث الجلبة والضوضاء . و إذا ما تقدم به العمر قليلا فإنه يعبر عن غيرته من أخوته بالاعتداء عليهم . و بعد ذلك نجد شعوره بالغيرة يأخذ مظهراً جديدا ، يكون على شكل مضايقة و إغاظة الغير أو إظهار الضيق والتبرم ممن يسبب له هـذا الشعور . وعندما يبلغ من العمر عشر سنوات نجد أن شعور الغيرة يكون على شكل التجسس أو الإيقاع أو الوشاية بالشخص الذى يغار منه . و يستعمل الأطفال فيما بين العاشرة والثانية عشرة هذه الأساليب بكثرة .

خصائص النمو الانفعالى فى مرحلة الطفولة المتأخرة :

تمتاز هـذه المرحلة عن المرحلة السابقة بأن الطفل يسير نحو الاستقرار الانفعالى . وهذا هو السر فى أن بعض الباحثين يطلقون على هـذه المرحلة اسم مرحلة الطفولة الهادئة . ولا شك أن هذه التسمية تطابق الواقع ، إذ يتميز سلوك الطفل بالهدوء الانفعالى (Emotional stability) . و يرجع الفضل فى ذلك إلى أنه نظراً لاتساع دائرة الطفل وكثرة اتصالاته بالعالم الخارجى متمثلا ذلك فى المدرسة ومافيها من أساتذة وزملاء و زوار ، مضافا إليه مايطرأ على عقله من نضج بسبب تقدم السن فإنه يحاول جاهدا أن يوفق بين رغباته و رغبات هؤلاء . وهـذا يحدث شيئا من الهدوء الانفعالى ، نتيجة لإزدياد صلات

الطفل بالبيئة التى يعيش فيها . و يحدث نتيجة لتعدد صلات الطفل الاجتماعية تنوع و زيادة فى العوطف التى تتكون لديه .

فبعد أن كانت عواطف الطفل فى السنوات الأولى قاصرة على الأم والأب والإخوة — وخاصة الأم لأنها مصدر الغذاء والعطف والراحة والدفء . الخ . نجده مع النمو العقلى والجسمى والاجتماعى ، تتكون لديه اتجاهات وجدانية [١] نحو موضوعات جمعيـــة كالرفاق (gang) والمدرسة والجيران ، تلك الجماعات التى ينخرط فى سلكها و يتحد معها . وعن طريق هذه الاتجاهات الوجدانية الجديدة تكتسب الحياة الانفعالية لديه قدرا من الانسجام والهدوء . فبعد أن كان الطفل يثور لأتفه الأسباب ولا هم لديه إلا إشباع رغباته و دوافعه ، ولا يقيم و زنا للعالم الذى يحيا فى كنفه ، ولا يرغب أن يؤجل رغبة أو حاجة ويجيب عن كل تأجيل أو إعاقة لمطالبه وحاجاته بالصراخ والقيام بحركات جسمية — و كلها تبين إلى أى حد تمتاز انفعالاته بالحدة والتطرف وسرعة التقلب وعدم الاتزان والقصور — نجده فى هذا الدو ر من أدوار النمو ، يبدأ يتعلم كيف يتنازل عن اللذات العاجلة التى تثير سخط والديه و يكتسب الكثير من العادات والأفكار التى تدل على التوافق والانسجام مع الغير والخضوع للسلطة واحترام رأى الرفاق .

ونحن و إن كنا نصف انفعالات الطفل فى هذا الدو ر بالهدوء والاتزان ، إلا أننا لا نود بذلك أن نحرم الطفل من صفة أساسية من النمو النفسى تتصل

---

(١) يعرف (روبرت ثولس) : العاطفة بأنها عبارة عن اتجاه وجداني نحو موضوع بعينه مكتسبة بالخبرة والتعلم .

والفرق كبير بين العاطفة والانفعال فبينما الانفعال عبارة عن تجربة عابرة إذ العاطفة عبارة عن نزعة مكتسبة تكونت بالتدريج بعد أن مرت خلال تجارب وجدانية عدة .

بالناحية الانفعالية ، فالطفل فى هذا السن له انفعالات خاصة معينة فهو يثور ويغضب وهو يخاف ويعتدى ، شأنه فى ذلك شأن الطفل فى المرحلة السابقة والفرق بين استجابات الطفل الانفعالية فى المرحلتين إنما هو فرق فى الدرجة والحدة الانفعالية ، وفى الطريقة التى يستجيب بها لحالته الانفعالية ؛ بالإضافة إلى نوع المنبهات التى تثيره . ومن ذلك أن الطفل فى الثانية من عمره إذا ما غضب ، يصيح ويضرب الأرض بقدميه ويمزق ثيابه بينما طفل التاسعة أو العاشرة إذا ما غضب نلاحظ أن استجابته الانفعالية تختلف كل الاختلاف ، فهو إذا ما غضب لسبب ما ، اكتفى بأن يتخذ موقفا يقرب من المقاومة السلبية (uegative resistance) مع التمتمة ببعض الألفاظ وتغير واضح فى تعبيرات الوجه ، كل ذلك يحدث فى غير ثورة أو عنف . وبهذه المناسبة أذكر حالة طفل فى العاشرة غضب لأن شقيقته أخذت حقيبته المدرسية فذهب لأمه محتجا على هذا التصرف . ولكن الأم حاولت أن تهدئ من غضبه ووعدته بشراء أخرى جديدة له ، لكنه أظهر تأففه مما حدث ورفض الذهاب إلى المدرسة فى ذلك الصباح ثم انزوى فى حجرته غاضبا متمتما ببعض الكلمات الغاضبة .

أما عن انفعال الخوف فى هذه المرحلة فيختلف فى بواعثه عن المرحلة السابقة ؛ أن طفل المدرسة الابتدائية يخاف عادة من الأمور الآتية : المخاطر التى يتعرض لها فى الحياة اليومية ، كاقتراب سيارة مسرعة منه وهو سائر فى الطريق وهو لذلك يقفز على الرصيف تجنبا للخطر ، كما أنه يخاف من الظلام ومن الأشباح واللصوص والأشخاص الذين يتميز سلوكهم بالإجرام والحيوانات المفترسة الغريبة . هذا ويخاف أطفال هذه المرحلة من المخاطر الوهمية ، ولنوضح ذلك ببعض الأمثلة : شاهد طفل فيلما سينمائيا (كنج كنج والحسناء) وعند ذهابه إلى النوم طلب من والدته أن تغلق الباب والشبابيك جيدا ، لأنه

يخاف أن يدخل عليه (كنج كنج) من إحدى النوافذ فيختطفه كما خطف الفتاة الحسناء فى الفيلم الذى شاهده .

ومثل آخر يدل على هـذا النوع من المخاوف أو الأخطار الوهمية يتمثل فى أن طفلا عندما كان فى زيارة للمتحف المصرى مع رفاقه بالمدرسـة خيل إليـه وهو يشاهد القسم الخاص بآثار (توت عنخ آمون) أن المومياء ستخرج من تابوتها لتقبض عليه وتضعه بجوارها .

أما عن انفعال الغيرة فقد أوضحنا أن الطفل فيما بين العاشرة والثانية عشرة من عمره يعبر عن هذا الانفعال بوسائل وطرق تختلف عن الطفل قبل التحاقه بالمدرسة . فبعد أن كان الطفل وهو فى الرابعة من عمره مثلا يعبر عن غيرته من أخيه الأكبر بالاعتداء ، نجده عندما يبلغ العاشرة يعبر عن غيرته — من أحد أخوته الذى أصبح موضع رعاية والديه — بالدس والوشاية لدى مدرسيه ووالديه لما يقوم به من أعمال لا يقروها .

التطبيـق التربوى :

إن أى ضغط من جهة الكبار والمشرفين على تربية الطفل تحول دون التعبير عن مشاعره . وفى أمثال هذه الحالات يحاول الطفل أن يعبر عن مشاعره التى كبحها بشكل مقنع ، كالإغراق فى أحلامه اليقظة والعدوان والكذب وانتحال المعاذير . ومن أجل ذلك يجب أن يعمل المدرس جاهدا فى تفهم سلوك الطفل الإنفعالى كما يجب أن يشعره بالراحة والأمن وأنه مرغوب فيه ليستطيع أن يعبر عن انفعالاته . إن أى تربية تقوم على كبح مشاعر الأطفال ، لا تتيح لهم الفرصة لإشباع حاجاتهم النفسية ، ومن أهمها الحاجة إلى التقدير والنجاح والانتماء إلى جماعة تحبه وتعطف عليه . إن إشباع هذه الحاجات فى جو صحى يساعد الطفل أن ينمو نموا سليما متكاملا .

الفصل الثالث

النمو الحسى وعلاقته بالنمو العقلى

تمهيد :

سنعالج فى هذا الفصل ناحية أخرى من نواحى النمو تتصل بالناحية الذهنية المعرفية . وتتضمن هذه الناحية موضوع العمليات العقلية وموضوع الذكاء .

وعلى الرغم أنه ليس من السهل دراسة خصائص النمو العقلى فى العامين الأولين من حياة الطفل ، إلا أنه من المقطوع به ، أن هذه الفترة تتميز بسرعة نمو الوظائف الحسية . وسنتناول فيما يلى كل حاسة من حواس الطفل بالتفصيل حتى نرى كيف تتطور الحاسة وتتمكن من أداء وظيفتها :

حاسة النظر :

تكون العين أقل الحواس كمالا عند الميلاد ، وهى أبطأ الحواس فى الوصول إلى درجة النضج الكاملة .

ويستطيع الطفل فى الأسابيع الثلاثة الأولى من حياته التحكم فى أعصاب بصره بالنسبة للأجسام والمرئيات الكبيرة الجامدة والحية كالأم مثلا ، بدليل ما يظهر من كفه عن البكاء عندما يجد الأم قادمة نحوه .

وفى الشهر الرابع أو الخامس نجد الطفل يربط بين ما يراه وما تصل إليه يده ؛ فإذا ما رأى مكعبا صغيرا مد يده ليلعب به أو ليحركه . وفى الفترة التى تقع بين الشهرين السابع والتاسع ، تظهر لدى الطفل القدرة على أن يلتقط من الأرض أجساما دقيقة « كالدبابيس » . مما يدل على أن قدرته البصرية وصلت من النضج إلى أكثر مما كانت فى المرحلة السابقة وبالرغم من هذه السيطرة البصرية ، نلاحظ أن الأطفال عند التحاقهم بمدارس المرحلة الأولى ، تكون قدرتهم البصرية لا تزال يعوزها شىء من الدقة . ويرجع ذلك إلى أن كرة

العين لا تصل إلى درجة كاملة من النضج ، وهذا يلقى ضوءا يوضح سبب انتشار ظاهرة طول الأبصار التى نلاحظها فى أطفال المدارس عند بداية التحاقهم بالمرحلة الأولى . وتزول تلك الظاهرة عادة عندما يصل الطفل سن الثامنة ورغبة فى المحافظة على أبصار الأطفال قبل سن الثامنة ، يحسن النصح باستعمال نظارات خاصة ذات عدسات محدبة لتقريب مسافة تقاطع الأشـعة .

حاسة السمع :

إن المادة السائلة التى توجد فى قناة (استاكيوس) عند الميلاد تمنع الوليد من أن يستجيب أى استجابة سمية عقب ولادته مباشرة . ويكون الطفل أقرب إلى الأصم فى هذه الساعات الأولى التى تعقب الميلاد وعندما تزول هذه المواد السائلة ، نجد الطفل ينتبه ويستجيب للأصوات الحارة ، القوية ، الفجائية .

وبالرغم من أن الطفل فى الأيام العشرة الأولى يكون قادرا على سماع تلك الأصوات ، فليس هناك أى دليل على فهمه لمدلول تلك الأصوات ، ويرجع ذلك إلى أن خبراته البسيطة تجعله عاجزا عن الربط بين المعنى والصوت الحادث . ومعنى هذا أن جهاز الطفل السمعى فى هذه السن يكون على استعداد للعمل ، وأن الأصوات التى يسمعها تكون عديمة الدلالة بالنسبة له .

ونستطيع أن نعود الطفل وهو فى مرحلة الحضانة على التمييز بين درجات وأنواع من الأصوات الدقيقة ، وذلك عن طريق تعويد أذنيه سماع الموسيقى ، والأصوات الصادرة عن الطبيعة والأناشيد ، والكلام المنغم ذا الإلقاء الحسن .

حاسة الشم :

لا تؤدى هذه الحاسة وظيفتها عند الميلاد على وجه تام ، وبالرغم من ذلك فإن الطفل فى السنوات الأولى من حياته تسكون له حساسية شديدة نحو الروائح القوية ، لا تقل عن حساسية البالغين . والطفل فى العام الأول من حياته يقلد البالغ فيقرب من أنفه زهرة أو وردة ليشم عبيرها ، ويستجيب استجابات خاصة تدل على استمتاعه برائحتها ، وفيما بين العامين الثانى والثالث يقوم الأطفال باستجابات شمية تدل على نفورهم من بعض الروائح الكريهة ، شأنهم فى ذلك شأن الكبار .

وينبغى ألا نغفل الفروق الفردية فى حاسة الشم ، فهناك فروق بين الأطفال فى حدة هذه الحاسة ، والمدى الذى تتأثر فيه بالمشمومات ، فنحن نلحظ فى حياتنا العادية من يتأثر برائحة طيبة أو كريهة بعيدة المصدر ، بينما مخالطوه قد يكون إحساسهم بها بسيطا أو معدوما .

حاسة الذوق :

أثبتت الملاحظات التى أجريت على الأطفال فى الأيام الأولى ، أن الطفل ينفر من الأطعمة المرة المذاق وكذلك الأطعمة المالحة ، ويقبل على الأطعمة الحلوة المذاق . وتكون لدى الطفل فى سن ما قبل الالتحاق بمدارس المرحلة الأولى القابلية لتذوق ألوان مختلفة من الأطعمة ، كزيت السمك مثلا ، طالما لم يكن هناك تنبيه لهم إلى أن هذه الأطعمة كريهة أو غريبة المذاق .

حاسة اللمس وحاسة الألم :

تكاد حاسة اللمس تكون أكثر الحواس استعدادا للعمل على درجة تقرب من الكمال عند الميلاد . والدليل على ذلك أن أى لمس خفيف

لخد الطفل ينتج عنه حركة امتصاص ، وكذلك إذا لمست الأنف فإن الطفل يغمض عينه .

والإحساس بالألم يكون موجودا كذلك فى الأسبوع الأول من عمر الطفل ، فنحن عندما نضع جسم الطفل فى ماء درجة حرارته تزيد عن درجة الحرارة المحتملة ، نجده يأخذ فى البكاء ، والقيام بحركات تدل على المقاومة وعدم الراحة .

وقد أثبتت الأبحاث التى قام بهما كل من (ميفان — ١٩٣٨) و (جيزل — ١٩٤٠) أن الأطفال لا يستجيبون استجابة تدل على الألم إذا وخزوا بإبرة ، أو وجهت إليهم صدمة كهربائية ، وذلك فى الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى من حياتهم . وقد لوحظ أن الطفل يقوم باستجابات تدل على الألم فى الأسبوع الثانى من حياته (٨ — ١٠ أيام) .

ومن هذا العرض نرى كيف تتطور حواس الطفل المختلفة وتتمكن من أداء وظيفتها . إن حواس الطفل المختلفة تعمل منذ الميلاد وهى على استعداد لاستقبال المثيرات المختلفة التى تقع على حواس الطفل المختلفة . وقد دلت الدراسات التجريبية القائمة على الملاحظة على أن الأطفال تكون لديهم درجة من الحساسية الحادة منذ سن مبكرة ، فالأطفال فى خلال الشهور الأولى بعد ميلادهم تكون لديهم القدرة على استجابة حسية معينة ؛ استجابة بصرية ، ولمسية ، وسمعية ، وذوقية .

ولحواس الطفل المختلفة فى هذه السن المبكرة أهمية كبرى فى إدراكه للعالم الخارجى ، وهذا مما يدعونا إلى القول بأن إدراك الطفل فى هذه الأسابيع المبكرة ، إنما هو إدراك من النوع الحسى . ومعنى ذلك أن الطفل إذ ذاك

يدرك الموضوعات التى يراها بعينه ، و يشمها بأنفه ، و يلمسها بيده ، وهذه كلها محسوسات أو بعبارة أخرى أمور عادية .

إن حواس الطفل فى هذه السن هى النوافذ التى يطل منها على العالم الخارجى ، وعن طريق تلك الحواس تحدث الإحساسات المختلفة ، و بعض هذه الإحساسات يتعلق بموضوعات خارجية يندرج تحتها ما يصـــدر عن الحواس الخمس المعروفة ، و بعضها إحساسات داخلية كالإحساس بالجوع والألم ، وما هذه إلا أنواع من التأثيرات الداخلية التى لها مزيد اتصال بحياة الطفل الانفعالية .

وتأخذ حواس الطفل المختلفة فى النضج التدريجى ، فيبدأ يعتمد على هذه الحواس فى إدراك بيئته وفهمها . والحواس فى هذه السن — كما أشرنا — هى الوسيلة المباشرة التى يستعين بها الطفل على اكتشاف العالم الذى يحيط به ، فتتراكم فى الذهن تأثيرات متنوعة مستمدة من هذا العالم الخارجى . وتؤدى سيطرة الطفل على المشى ، إلى اتساع مجاله الإدراكى ، فيزداد إدراكه لما يقع عليه بصره من أشياء ، أو ما يصـل إلى سمعه من أصوات ، وتزداد بذلك دلالة هذه الأشياء فى ذهنه ، فتتضح وتتميز بعد أن كانت غامضة الدلالة ، مبهمة بالنسبة له .

(أولا) العمليات العقلية وكيف تتطور عند الطفل

فى هذه المرحــلة يتعرض النمو العقلى كغيره من نواحى النمو الأخرى للكثير من أوجه التطور والتغير التى ترتبط بازدياد النضج . و يشمل عرضنا لنشاط الطفل العقلى فى مرحلتى الطفولة المبكرة والمتأخرة ، موضوع العمليات العقلية : كالإدراك والحفظ والتفكير والتخيل . أما موضـوع الذكاء فسنخصص له جزءا خاصا .

الإدراك الحسى

ما معنى الإدراك الحسى ؟

الإدراك الحسى عبارة عن إحساس له دلالة ، أو هو علاقة بين الكائن الحى والبيئة ، عن طريق الجهاز العصبى والمراكز العصبية . ومن العسير إيجاد حد فاصل بين الإحساسات أو المنبهات التى تصل إلى المخ من جهة ، وما يصاحب تلك الإحساسات من معان من جهة أخرى .

وقد يحدث نتيجة نقص أو خلل فى التركيبات العصبية التى تسهم فى عملية بناء الترابطات ، ألا يستطيع المصاب ترجمة الأصوات أو المرئيات التى تقع عليها أبصارهم ، فيكون فى استطاعة هؤلاء سماع الصوت الحادث أو رؤية المرئيات ، إلا أنه يتعذر عليهم فهم مدلولات هذه الإحساسات . ومعنى هذا أن الإحساس السمعى أو البصرى موجود ، بينما الإدراك السمعى أو البصرى معدوم . وهذه الحالات نادرة ، لا توجد إلا عندما يكون الجهاز العصبى والمخ مصابين .

ونظرا لقلة خبرات الطفل فى الشهور الأولى من حياته ، نجد الكثير من إحساساته يكون عديم المعنى ، وبالتدريج تزداد خبراته ويترتب على ذلك أن تصبح الإحساسات التى تستقبلها حواسه ذات دلالة ومعنى .

كيف يبنى الطفل إدراكه الحسى:

فى أول الأمر يكون إدراك الطفل منحصرا فى الأشياء والخبرات التى تقع فى بيئته القريبة المباشرة ، كالطعام ووجه والدته ويدها التى تلمس جسمه ، بالإضافة إلى الإحساسات الجسمية المختلفة التى لها تأثير مباشر فى حياته . ويتكون من كل هذه الأمور عالمه الشعورى . ويتسع هذا العالم الشعورى

تبعا لما يقوم به الطفل من تحكم إرادى فى أعصاب بصره ، وسمعه ، و باقى أعضاء جسمه . ففى الشهر الثالث أو الرابع نجده يبدأ يحدق فى موضوع ، أو شىء من الأشياء ، ثم ينتقل بنظره إلى شىء آخر . وهذه هى طريقته فى اكتشاف العالم الصغير ، الضيق الذى يحيط به . وكذلك الحال فى مجاله السمعى ، إذ نجده ينصت بإمعان إلى ما يحدث حوله من أصوات ، فيقارن بينها و يميزها بعضها من بعض ، فيقرن بين صوت أمه ، وصوت آلة الراديو وصوت بوق السيارة فى الشارع . وهو فى كل حالة يستجيب استجابة انفعالية خاصة تدل على إدراكه لمدلولات الأصوات المختلفة .

أما من حيث الإحساس عن طريق اللمس ، فإن الطفل يتعذر عليه حتى الشهر السادس أن يفرق بين أعضاء جسمه والأشياء الخارجة عنه عن طريق اللمس ، ولذلك نجده يعض أصابع يده كما يعض لعبه . إلا أنه فى حالة عض يده يستجيب لذلك بالصراخ نتيجة للألم ، بينما لا تحدث نفس الاستجابة عند عض اللعبة حيث لا يوجد نفس الألم ، ثم يلاحظ الطفل أنه إذا حرك يده فى الهواء ، لا يشـــعر بألم ، بينما إذا اصطدمت هذه اليد بجسم آخر ، فإنه يشعر بالألم . وتنتج عن تـكرار تلك الحركات وغيرها زيادة خبرات الطفل ، يتبعها إدراكه أن جسمه وما به من أعضاء عبارة عن وحدة مستقلة ، حية ، منفصلة عما يحيط به من موضوعات غير حية (inanimate) . ثم نلاحظ أنه فى ذلك الوقت يبدأ يتحسس رأسه وأذنيه وأنفه وعينيه و بطنه وأصابع قدمه وأعضاء التناسل لديه ، وهو إذ يقوم بهذه العملية يحاول اكتشاف هذه الأعضاء ليتعرف عليها .

ونستطيع أن نضيف إلى ما سبق أن الطفل فى عامه الأول يستطيع أن

يربط بين أكثر من إحساس واحد ، فنجده مثلا يدرك أمه عندما يرى وجهها ، أو يسمع صوتها ، أو يحس بطريقتها فى لمس فمه أو جسمه . وتتكون من مجموع تلك الإحساسات صورة الأم ، وبجانب تلك الصورة تتكون فى ذهنه صورة الأب التى تكون مختلفة ، منفصلة من صورة الأم . وهكذا تكون الأم فى نظره عبارة عن شىء يُرى ، وشىء يُسمع ، وشىء يحس به . وتتضح هذه الإحساسات المختلفة لدى الطفل ، وترتبط بعضها ببعض فى داخل الشكل العام الذى يصير ذا معنى ودلالة .

وبعد تلك المرحلة ينتقل الطفل إلى مرحلة اعطاء أسماء للأشياء والأعمال ، ويكون ذلك فى العام الثانى من عمره . وبالتدريج تزداد قدرة الطفل على إدراك الفروق بين الموضوعات المختلفة ، كما تأخذ فكرته عن الأشكال والأوزان والأحجام والزمن والأعداد والألوان تتضح .

إدراك الأشكال :

نلاحظ أن الطفل حتى سن الرابعة يتعذر عليه التفرقة بين المثلث والمربع والمستطيل ، فإذا ما أعطيت له لوحة (سيجان) قبل ذلك السن ، نجده يضع المستطيل فى الموضع الخاص بالدائرة ، والمربع فى موضع المثلث وهكذا .

أما من حيث قدرة الطفل على رسم الأشكال وتقليد النماذج التى توضع أمامه ، فتكاد تكون معدومة فى الأطفال الذين يقل عمرهم العقلى عن ٤ سنوات . وسنوضح ما نقول ببعض الأمثلة التى اقتبسناها من (ڤنسنت)[1] ، وهى عبارة عن محاولات أطفال فى أعمار مختلفة لتقليد شكل (diamond) وهو المرموز له بالحرف (ا) :

---

(1) Vincent : Child Development P. 350 (1951).
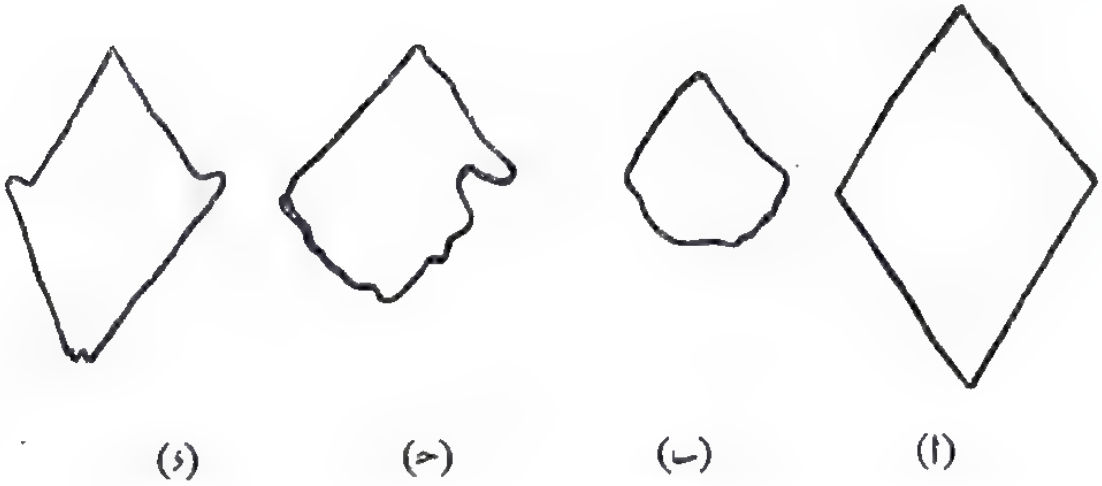
الرسمان (ب) ، (حـ) من محاولات أطفال فى أعمار صغيرة ، بينما الرسم (ء) من محاولات طفل عمره العقلى خمس سنوات ونصف .

ولقد تبين للمؤلف من تجاربه التى أجراها على قبيلة (الشيلوك) أن قدرة الأطفال (وخاصة من لم يتردد منهم على المدرسة) على الإدراك البصرى للأشكال محدودة . واستطاع أن يدال علىّ ذلك بالملاحظات التالية :

عندما أعطى طفل فى الثامنة من عمره ، لم يذهب للمدرسة ، لوحة الأشكال (لجودارد) ، تناول القطعة الخشبية ذات الشكل المعين ، وأخذ يدفعها دون أى فهم فى كل فتحة على اللوحة . وهناك حالة طفل آخر يبلغ من العمر السابعة ، وأمضى عدة أسابيع فى مدرسة القرية ، حاول أن يثبت الشكل الذى يمثل نصف الدائرة فى الفراغ الخاص بالشكل المعين . وحالة ثالثة لطفل فى الثانية عشرة ، لم يذهب للمدرسة ، عمد إلى اختيار القطع الخشبية الصغيرة وحاول أن يملأ بها الفراغات الأكثر اتساعا ؛ وطفل آخر من نفس العمر ، أخذ قطعة خشبية كبيرة وحاول أن يثبتها فى إحدى الفراغات الصغرى ؛ وقد نجح طفل فى وضع القطعة الخشبية المربعة الشكل فى المكان المطابق لها على اللوحة فى أول محاولة ، ولـكنه انتزعها ثانية بعد قليل من التأمل ثم دفعها فى مكان المستطيل .

هذه بعض الأمثلة الإيضاحية تصور لك سلوك غالبية الأطفال الذين أجريت عليهم تجاربي فى منطقة بدائية كمنطقه (الشيلوك) فى جنوب السودان. فهؤلاء الأطفال ، وجدوا صعوبة فى إدراك الأشكال الهندسية ، وخاصه ذات الأضلاع المتماثلة ، فلم يستطيعوا إدراك الفرق بين المربع والمستطيل أو بين المعين والمسدس أو بين الصليب والنجمة . أما الشكل الدائرى فقد كان مألوفا للجميع ، ذلك لأن بيوتهم وأوانى الشراب والطعام لديهم ذات شكل مستدير .

وهناك ملاحظة أخرى على إدراك هؤلاء الأطفال البدائيين . إن هذه الملاحظة تتصل بقدرة بعض المفحوصين على تمييز الأشخاص من الصور الفوتغرافية . فى إحدى مدارس الإرساليات عرضت صورة فوتغرافية لإحدى الراهبات بين جماعة من زميلاتها ، على مجموعة من الأطفال تزيد أعمارهم على عشر سنوات . وكانت الراهبة صاحبة الصورة معروفة للأطفال لأنهم يرونها كل يوم ، إما فى الكنيسة أو المدرسة أو المستشفى الملحقة بالإرسالية . عُرضت الصورة على كل طفل مرة ، وطلب منه أن يشير إلى الشخص الذى يعرفه فى هذه الصورة ، فأخذ كل طفل الصورة بين يديه ونظر إليها مليا ثم قلبها جاعلا عاليها أسفلها عدة مرات ، وأخيرا عجز عن التعرف على الشخص المقصود. وحينما قيل للأطفال بأن (الراهبة ×) فى الصورة بين جماعة من زميلاتها اللاتى فى إرساليات أخرى ، أخذوا الصورة من جديد ونظروا إليها بعناية ، وفجأة صاحوا وأحنوا رءوسهم علامة الرضى والدهشة .

ومن هذه الدراسات التى أجريناها على بيئات بدائية ، نستطيع القول بأن البيئة وما بها من أنماط حضارية تلعب دورا هاما فى تشكيل الناحية المعرفية الذهنية عند الأطفال . ولما كانت البيئة التى يعيش فيها الشيلوك بيئة

خالية من الأشكال الهندسية ، أدى ذلك إلى نوع من الجذب العقلى الخاص بالتصور البصرى للأشكال[١] .

إدراك أشكال الحروف الهجائية :

قبل سن الخامسة يتعذر على الطفل أن يميز بين الحروف الهجائية المختلفة ، ثم تظهر له هـذه السن قدرته على التمييز بين الحروف الهجائية الكبيرة المطبوعة ، كما يستطيع فى سن السادسة أن يقلد هذه الحروف بطريقة بدائية ، فيستطيع مثلا أن يُكون من حروف اسمه (كلمة) ، ولكن طريقة ربطة الحروف بعضها ببعض تكون غير منسجمة ، ولا انتظام فيها .

ويحسن بالمشرفين على تربية الطفل ألا يستغلوا رغبة الطفل فى تقليد الحروف الهجائية ، فيدفعوه إلى القراءة والكتابة دفعا . يجب أن تتدرج هذه العملية تدرجا طبيعيا ، فنحن نجد الطفل حتى هذه السن ما يزال يخلط بين الحروف المتقاربة (ج ، ح ، خ) و (ط ، ظ) و (ص ، ض) و (ب ، ت ، ث) فى اللغة العربية . وفيما بين سن السابعة والثانية عشرة ، نلاحظ تقدما فى طريقة كتابة الأطفال ، إذ يبدءون يدركون الفروق الدقيقة بين الحروف المختلفة .

أما عن رسوم الأطفال فإننا نلاحظ أنهم فى الفرق الأولى من مرحلة التعليم الابتدائى يستطيعون القيام برسوم خاصة (رسم منزل أو حصان أو رجل). ويقول « جود إنف »[٢] : إن هناك علاقة بين التفصيلات التى تحتويها رسوم الأطفال ودرجة ذكائهم ، فكلما كثرت تلك التفاصيل ، دل ذلك على ذكائهم .

---

(١) ارجع لمقال كتبه المؤلف بالإنجليزية عنوانه :
Initial Exploring of the Shilluk Intelligence (1954).

(٢) The Goodenough Test for judging mental age.

إن الطفل الذكى يدخل فى رسمه تفصيلات تمكنه من التعبير عما فى نفسه تعبيرا واضحا إلى حد ما . ولا يقف الأمر عند حد التعبير بالرسم ، بل يتعداه إلى فهم الرسم والصور التى تقع فى مجال إدراكه ؛ وقد لمست ذلك مرارا أثناء إجراء اختبار (بينيه) للذكاء (انظر الجزء الخاص بالمنزل الهولندى) .

إدراك الزمن :

تكون فكرة الطفل عن العلاقات الزمنية فى العامين الأولين غامضة ، بمعنى أنه لا يستطيع أن يفرق بين الماضى والحاضر والمستقبل ، كما أنه لا يستطيع أن يقارن بين فترتين زمنيتين ؛ فى حين أنه على العكس من ذلك يستطيع أن يفرق بين الأحجام والأوزان والأصوات ، إذ أن المقارنات الزمنية لا تعتمد فى إدراكها على الإدراك الحسى أو السمعى أو اللمسى ، كما هو الحال فى إدراك الفروق بين الأحجام والأوزان والأصوات المختلفة .

ثم يبدأ الطفل من سن الثالثة يدرك مدلول الألفاظ : اليوم ، وأمس ، والغد . وفى سن الرابعة يستطيع أن يدرك المدلول الزمنى لعبارة « الأسبوع الماضى والأسبوع المقبل . . العيد المقبل ، تاريخ الميلاد الماضى . . الخ » .

وفى استطاعة الطفل فى مرحلة الحضانة إدراك التسلسل الزمنى للأفكار والأعمال المتعاقبة ، فإذا ما ساءلناه عما فعله فى المدرسة مثلا قال : أخذنا كوبا من اللبن ، ثم لعبنا فترة طويلة بعد ذلك ، ثم درسنا حصة ، و بعد ذلك تناولنا طعام الغذاء ، ثم ذهب كل منا إلى سريره ليستريح .

ولقد دلت تجارب (استرت[1]) و (ريبلو) أنه يتعذر على الطفل قبل سن التاسعة أو العاشرة أن يدرك المدلولات الزمنية للأحداث التاريخية .

---

(1) Sturt. M. : The Psychology of Time.

ولهذا السبب نجد استيعاب الأطفال للأحداث التاريخية قبل هذه السن لا تتعدى حفظ تواريخ هذه الأحداث، دون أن تكون لديهم القدرة على تتبع الأدوار التاريخية ، وربط هذه الأدوار ربطا يدل على إدراك يتضمن معنى التتابع الزمنى الذى يدل على التطور .

إدراك المسافات :

يعتبر إدراك المسافات أكثر تعقيدا من إدراك الأوزان ويأتى فى مرحلة تالية . ونحن نلاحظ أن الأطفال يتعرضون لأخطار، إذ يقفزون من ارتفاعات ليس فى مقدورهم تقدير مسافاتها ، ومن ثم ينبغى ألا نترك الأطفال وحدهم يطلون من شرفات المنازل ونوافذها .

إدراك الوزن :

تأتى قدرة الطفل على إدراك الأوزان فى مرحلة متأخرة عن إدراكه للأحجام . وتعتمد قدرته على إدراك الأوزان ، على مدى قدرته على السيطرة على أعضائه أولا ، ثم على خبرته بطبيعة المواد التى تتكون منها الأجسام ثانيا .

وعجز الطفل عن السيطرة على أعضائه يعتبر العامل الأول المسبب لما يشاهد من سقوط معظم الأشياء التى يقبض عليها الطفل من يده .

إدراك الألوان :

من أدلة النمو العقلى لدى الأطفال قدرتهم على تمييز الألوان ، والطفل قبل اكتمال السنتين من عمره لا يستطيع أن يميز بين الألوان العادية ، كل مايبدو عليه أنه يستجيب للأضواء البراقة والأشياء اللامعة ، ولكنه لا يستجيب استجابة خاصة للون من الألوان . وفى الفترة التى تقع بين سنتين وسنتين ونصف من عمر الطفل ، نجده يستطيع أن يميز بين الألوان ، ويبدو

ذلك فى استجابته لنوع معين منها ، إذ يلاحظ أن الطفل العادى فى هذه السن يستطيع أن يفرق بين الألوان ويعطى كل لون اسمه بدقة . ويتمكن كثير من الأطفال فى هذه السن من ذكر أسماء الألوان ، وإن لم تكن موجودة فى مجال إدراكهم ، وأكثر الألوان إثارة الأطفال فى سن ما قبل المدرسة ، اللون الأحمر فالأزرق .

إدراك الأعداد :

يقول (جيزل)[1] فى ذلك : إن أساس تعلم العد عند الأطفال هو التشابه ، ولذلك فتعليم الجمع لهم ينبغى أن يكون عن طريق إضافة الأشياء المتشابهة . والطفل قبل الثانية إذا ما رأى مجموعة من السيارات فإنه عادة يعبر عن عددها بقوله : « هذه سيارة ، وهذه سيارة . . . وسيارة . . . وهكذا .

و بعد سن العامين نجده فى نفس الموقف يعبر بقوله : واحد . . اثنان . . ثلاثة . . مشيرا إلى كل سيارة على حدة . ويستطيع الأطفال فى هذه السن العد ، من ١ إلى ٨ أو ٩ ، بينما يستطيع الأطفال فى سن ثلاث سنوات العد من (١ — ١٩) أو ٢٠ . ولقد لاحظ (جيزل) فى الوقت نفسه أن الطفل بالرغم من أنه يعد ، مشيرا إلى الأشياء التى أمامه أو مستخدما مجموعة من (البلى) مثلا ، فإننا عندما نطلب منه أن يعطينا أربع بليات مما يعده ، يتعذر عليه تنفيذ هذا الأمر تنفيذا دقيقا .

أما القيام بعمليات الجمع البسيطة ، فإننا نلاحظ أن الطفل فى سن الخامسة يستطيع أن يجمع من الأعداد ما لا يزيد حاصل جمعه على « ٥ » ؛ ولكنه يتعذر عليه فهم المقصود بعمليات الضرب أو القسمة ، ومن ثم أخذت هذه

---

(١) Gesell et The first five years of life (1940).

العمليات وضعها المتأخر فى التعليم بعد عمليتى الجمع والطرح . والدليل على ذلك ، فإن الطفل إذا أجبر على حفظ (جدول الضرب) فإنه يحفظ عمليات الضرب حفظا آليا ، دون فهم منه . لمدلول هذه العمليات .

و يختلف الأطفال فيما بينهم فى القدرة الحسابية اختلافا يرجع إلى ما بينهم من فروق فردية تتصل بالذكاء والخبرة السابقة لـكل منهم .

إلى هنا نـكون قد استعرضنا إدراك الطفـل لأهم الظواهر من وزن وشكل ومسافة ولون وعد . . الخ . وسنتناول الآن بعض العمليات العقلية الأخرى وتطورها لدى الأطفال :

التذكر (الحفظ)

التذكر من العمليات العقلية التى يقوم بها الطفل فى سن مبكرة ؛ فهو عندما يبلغ من العمر سنة تقريبا ، يقوم ببعض الاستجابات التى تدل على أنه يتذكر ما مر به من خبرات ربما تـكون قد انقضت عليها عدة أسابيع ، فالطفل الذى يصحب والده فى زيارة قريب تعود أن يقدم للطفل فى كل زيارة صندوقا من الحلوى ، يخرجه من أحد أدراج مكتبه ، تجده بعد عدة مرات يتجه بمجرد دخوله الحجرة إلى الدرج الذى رأى قريبه يخرج صندوق الحلوى منه . وتدل هذه العملية على تذكر الطفل لنوع من الخبرات السابقة التى تتصل بميوله وتشبع حاجة من حاجاته العضوية .

ولقد أجرت (شارلوت بهلر)[١] عدة تجارب لدراسة التذكر عند أطفال تزيد أعمارهم عن عام . قدمت (بهلر) لهؤلاء الأطفال كرة يضغط الطفل على موضع معين منها ، فيخرج (كتكوت) صغير . وقد سمحت للأطفال أن

(١) Buhler C. : From birth to maturity (1935).

يلعبوا بهذه الكرة ، وفى أثناء لعبهم كان (الكتكوت) يخرج أثناء الضغط ، وعندما يخف الضغط يدخل (الكتكوت) داخل الكرة ، و بعد انقضاء فترة التمرين السابقة ، كانت تعرض عليهم ألعاباً أخرى لمدة ثلاث دقائق ، ثم تعود فتعرض عليهم كرة تختلف عن الأولى فى أنه لا يوجد بداخلها (الكتكوت) .

أعطيت الكرة الجديدة للأطفال، وكانت قدرة الأطفال على التذكر كبيرة تبدو فى الدّهشة التى تظهر على وجوههم عندما يضغطون على الكرة ولا يجدون الكتكوت ، واستمرت محاولاتهم فى الضغط على الكرة ليظهر الكتكوت .

وقد توصلت (بهلر) بتجاربها إلى النتائج الآتية :

يتذكر الأطفال الذين فى سن (١٥—١٧) شهرا الموضوع لمدة ٨ دقائق . و يتذكر الأطفال فى سن (٢١ — ٢٤) شهرا الموضوع لمدة ١٧ دقيقة .

ولقد أجريت تجارب مماثلة لقياس قدرة الطفل على التذكر ، على النمط الذى سارت عليه (بهلر) وتتلخص نتائج تلك التجارب فيما يلى :

يستطيع الأطفال فيما بين (١٩ — ٢٠) شهرا التذكر لفترة تبلغ ١٥ دقيقة ، كما أن الأطفال فيما بين (١٠ — ١١) شهرا يستطيعون التذكر بفترة لا تزيد عن دقيقة واحدة .

ومعنى هذا أن الأطفال فى الشهور الأولى من حياتهم يتذكرون لفترات قصيرة جدا ،ثم تتدرج تلك القدرة على التذكر آخذة فى الزيادة كلما تقدمت السن .

ثم تأخذ قدرة الطفل على التذكر فى النمو التدريجى مع تقدم العمر ، و يتحدد ذلك بميول الطفل ونوع المادة وما يكتسبه من خبرات . و يجب ألا ننسى أن هذا النمو فى عملية التذكر يتمشى مع نمو عمليتى الإدراك والانتباه .

وفيما يلى بعض التجارب التى توضح زيادة القدرة على التذكر كلما تقدمت السن :

أجرى كل يوم من (استرود ومول)[١] عدة تجارب على مجموعة الأطفال، تتراوح أعمارهم من (٧ — ١٤) عاما . وكانت المادة التى تطلب منهم حفظها عبارة عن ثلاث قطع من الشعر ، تتفق وميول هؤلاء الأطفال ، وتناسب مستوى أصغرهم سنا . وقد أعطيت القطع الثلاث لهذه المجموعة من الأطفال لحفظها ، و بعد انقضاء ١٥ دقيقة ، أخذا فى اختبار مدى احتفاظهم بها بعد ذلك مباشرة، وأجرى الاختبار مرة أخرى بعد مرور أسبوع على الاختبار الأول .

قد اتضح من نتائج هذين الاختبارين أن قدرة الطفل على التذكر تزداد مع تقدم العمر ، من حيث استيعاب أكبر عدد ممكن من الأبيات ، وتزداد فضلا عن ذلك من حيث الاحتفاظ بالمعلومات مدة أطول .

وفيما يلى جدول يبين ازدياد القدرة على التذكر واطرادها مع تقدم العمر فى حالة السمع المباشر :

متوسط السن	نسبة الذكاء	متوسط الحفظ
٧٫٧	١١٥	٩٫٧١
٨٫٥	١١٥	١١٫١٦
٩٫٤	١١٥	١٣٫١٥
١٠٫٤	١٠٠	١٦٫٠٢
١١٫٧	١٠٣	١٧٫٥٥
١٤٫٤	١٠٩	٢١٫٣١

لقد توصـل (Pyle)[٢] لنفس النتائج السابقة عند ما أجرى تجاربه على مجموعة متفاوتة فى العمر من الأطفال . وكانت مادة الاختبار عبارة عن حفظ

(1) Stroud & Maul : The influence of age upon learing (1933).
(2) Pyle : Nature & development of learning capacity (1925).

وكانت مادة الاختبار عبارة عن حفظ قطع من النثر تناسب سن المجموعة التى تكلف بحفظها . يدرس الأطفال القطعة ، ثم يوجه إليهم بعض الأسئلة التى تبين مدى قدرتهم على تذكر ما ورد فى هذه القطع من معلومات .

التذكر الآلى عند الأطفال :

يتضح التذكر الآلى (Rote memory) عند الأطفال الصغار وضوحا جليا ؛ وهذا يفسر لنا قدرة الأطفال على استرجاع الأناشيد دون أى فهم للمعنى ، ويرجع تفضيل الطفل للاسترجاع الذى لا يقوم على الفهم إلى أن قدرات الطفل العقلية محدودة ، ولذلك يلجأ إلى التذكر أو الاسترجاع الآلى ؛ وعند ما ينمو الطفل عقليا وتكون مادة الحفظ فى مستوى إدراكه ، نجده يفضل التذكر القائم على الفهم ، ويبذل فى الحفظ مجهودا أقل من حفظ المادة غير المفهومة .

التفكير

هناك سؤال أساسى يحسن أن نبدأ به موضوع التفكير : هل يقدر الأطفال قبل سن الحادية عشرة والثانية عشرة ، استعمال التعليل المنطقى فى تفكيرهم ، أما إن هذا قاصر على البالغين ؟

يعتقد (بياجيه) أن هذا النوع من التفكير القائم على التعليل العقلى ، يكاد يكون لا وجود له فى السنوات الأولى من حياة الطفل ، وأن العقل يبدأ يتدرب على هذا النوع من التفكير فيما بين (١١ — ١٢) عاما[1] .

وعلى الرغم من ذلك فإن (بياجيه) لا ينكر أن الطفل قبل هذه الفترة

---

(١) Piaget : Judment & reasoning in the chld. P. 32.

تـكون لديه القدرة على التعليل المـادى الحسى ؛ فنحن عند ما نقول لطفل فى سن السادسة : لماذا يسير المركب الشراعى ؟ فإنه يقول : « إن الذى يدفعها هو الهواء » . وكما يبدو فالتعليل هنا تعليل مادى متصل بالظواهر الخارجية .

وبالإضافة إلى هذا النوع من التعليل المـادى الحسى ، فهناك أيضا نوع آخر من التعليل يستعمله الطفل فى هـذه الفترة ، وهو « التعليل القائم على العلاقات المرتبطة بالدوافع النفسية لدى الطفل » ، و يتضح ذلك من قول الطفل إننى سأجلس فى هذا المـكان لأن (درجى) هنا ، أو ينبغى أن أسرع إلى المنزل لأن أمى ستحضر حالا .

ومما يدل على أن الطفل لا تـكون لديه القـدرة على التفـكير المنطق إلا فى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، إننا إذا قلنا لطفل فى سن السادسة أو السابعة مثلا : « يقول (على) إننى رأيت قطة صغيرة تبتلع كلبا كبيرا ، ولـكن صديقه (محمود) يرد عليه بأن هذا مستحيل » ؟ فما رأيك أنت ؟ فإن إجابته على قول (على) تـكون « هذا كلام فارغ » . بينما لو عرضنا مثل هذا القول على طفل آخر فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، فإن إجابته لاتقتصر على ذلك وإنمـا يحاول التعليل المنطقى ، كأن يقول مثلا :

« هذا كلام فارغ لأن القطة أصغر حجما من الـكلب » .

ويمـكن أيضا أن نوضح ذلك بمثال آخر : إذا قلنا لطفل فى السادسة أو السابعة مثلا : أكمل الجمـلة الآتية : إن (محمود) يقول ليست الأربعة نصف العدد تسعة لأن . . . . ، فإنه يكملها بمـا يشبه . . . لأنه لايستطيع أن يعد ، ولـكن إذا عرضت نفس السؤال على طفل فى الحادية عشرة ، فإنه يقول : « لأن هناك « ١ » زائدا على الأربعتين فى التسعة ولا شك أن مثل هذا التعليل ، تعليل منطقى لايتسنى لطفل فى السادسة مثلا .

ولم تـكن أبحاث (بياجيه) هى الوحيدة فى دراسة التفـكير عن الأطفال ، فهناك أبحاث أخرى لا تقل أهمية عن تلك الأبحاث ، قام بها كل من (بيرت)[١] فى انجلترا ، و (فـكتوريا هزلت)[٢] و (ديشيه)[٣] فى فرنسا .

وتتلخص أبحاث هؤلاء العلمـاء أن الطفل دون السابعة فى استطاعته أن يربط بين موضوعين ويدرك العلاقة بينهما وكل ما هنالك أنه لأجل أن يدرك الأطفال الصغار هـذه العلاقات يجب أن تـكون المـادة المستخدمة بسيطة ومألوفة وملائمة لقدراتهم .

هذا ولم تـكن أبحاث هؤلاء العلماء قاصرة على أن الطفل يدرك العلاقات بل اتضح لهم كذلك أن الطفل قادر على استنتاج نتائج معينة من مقدمات خاصة . ومن الأمثلة التى أوردها (بيرت) للتدليل على ذلك ما يلى :

فى سن السابعة :

(توم) يجري أسرع من (جيم) ، وجاك يجرى أبطأ من جيم .

فمن أكثرهم بطئا — جيم ، جاك أو توم ؟

فى سن الثامنة :

إننى لا أحب الرحلات البحرية ، كما لا أحب أن أكون بجوار البحر .

فأين أقضى اجازة عيد الميلاد : فى السويس أم فى الأقصر أم فى قبرص ؟

---

(1) C. Burt : The development of reasoning in children. Jour. of Exp. Pedagogy (1919).

(2) V. Hazlitt : Children's thinking. British Jour. of Psychology (1929).

(3) L. Deshaies : La notion de relation chez L'enfant. Jour. de Psychologie (1937).

في سن التاسعة :

ثلاثة أطفال يجلسون فى صف واحد : (هارى) يجلس على يسار (ويلى) وجورج يجلس على يسار (هارى) . فأى الأطفال يجلس فى الوسط ؟

أما عن التفكير المعنوى فإنه يظهر فى مرحلة متأخرة . ودليلنا على ذلك أننا إذا طلبنا من تلميذ فى المدرسة الابتدائية أن يعرف كلمة « ديمقراطية » أو « احتكار » أو « اشتراكية » فإنه سيتعذر عليه ذلك دون شك ، لأن هذه الكلمات ذات مدلول معنوى . وطالما كان التفكير المعنوى أو المجرد ، يفيد درجة عليا من درجات التفكير ، كان من الخطأ أن نعتمد على التعاريف كوسيلة من وسائل نقل المعلومات إلى عقول الأطفال الصغار . ولهذا السبب فإن مدرس اللغة العربية فى فصول المرحلة الأولى الذى يبدأ بالتعاريف فى شرح دروس القواعد يعتبر مدرسا فاشلا ليس له أى دراية بالتطور العقلى لدى الأطفال ، لأنه إذا بدأ تدريس (الفعل) مثلا بسرد التعريف المألوف : « أنه ما يدل على حدوث شىء فى زمن معين » ، تطلب ذلك نوعا من التفكير المجرد يتعذر على طفل السنة الأولى أو الثانية أو الثالثة وحتى الرابعة الابتدائية الوصول إليه فى هذه السن .

التخيـــل

ما معنى التخيل :

يمكن تعريف التخيل بأنه عبارة عن القدرة على تفسير الحقائق بطريقة تدعو إلى تحسن الحياة الحاضرة والمستقبلة . ومعنى هذا أن التخيل عبارة عن نوع من التفكير تستعمل فيه الحقائق لحل مشكلات المستقبل والحاضر ، ومن أمثلة ذلك تخيل المخترعين والكتاب الروائيين .

إن التخيل على حسب ذلك التفسير معروف باسم التخيل التكويني أو الإنشائى (constructive) [(١)] ، وهو نوع يرمى إلى البناء . وهناك نوع آخر من التخيل الهدام ، يمكن تعريفه على أنه ذلك النوع من التخيل الذى يساعد الفرد على حل مشكلاته الحاضرة أو المستقبلة بشكل يلحق الضرر بالفرد أو المجتمع . وهو يشمل التخيل الذى يبعد الإنسان عن عالم الحقائق إلى عالم الأوهام ، بشكل يؤثر فى حياته . ومن أمثلة ذلك تخيل العفاريت والأشباح .

التخيل عند الأطفال :

إن التخيل يكون جزءاً هاما من حياة الطفل العقلية فى السنوات الأولى من حياته . ويكون التخيل فى هذا الدور من أدوار النمو العقلى ، من النوع الإيهامى (Make-believe) ويعبر الطفل عن تخيلاته أثناء لعبه أو فى أحلامه . ويستمد الطفل عناصر خيالاته إما فى موضوعات منزلية (domesitc) ، أو يستمدها من نشاطه الذى يرتبط بمشاهداته أو بحياته الخاصة وما يراه من أشخاص يؤدون أعمالا معينة فى خدمة المجتمع كرجل البوليس وساعى البريد وكمسارى الترام . . . الخ .

---

(١) Vincent : Child Development P. 376 (1951).

هذا وتتصل خيالات الطفل برغباته المكبوتة ، فيحقق لك الرغبات فى لعبه الإيهامى . فمثلا إذا كان الطفل محروما من أكل الحلوى والفطائر ، نجده يكثر فى لعبه من توهم ألوان مختلفة من هذه المحرمات ، وهناك بالإضافة إلى ما سبق مصدر ثالث لخيالات الطفل الإيهامية ؛ فإذا كان الطفل يعانى اضطرابا انفعاليا من نوع معين ، فإنه يعبر عن هذه الاضطرابات أثناء لعبه . هب أن طفلا يغار من أخيه الصغير ، فإنه يتخيله أثناء لعبه فى مواقف تعرضه للعقاب .

ولقد قامت أبحاث عدة تناولت أحلام الأطفال ورغباتهم وذلك لدراسة المحتويات أو العناصر التى يتكون منها خيال الأطفال فى سن ما قبل المدرسة . ومن هذه الأبحاث بحث قام به (ماركى)[1] ، دل على أن متوسط ما يقوم به الطفل فى سن (٣٠) شهرا من مواقف خيالية ، هو بمعدل ستة مواقف ونصف فى كل مائة وخمسين دقيقة . وفى سن الثالثة والنصف تزداد هذه المواقف فتبلغ ستة وعشرين موقفا خياليا فى مثل المدة المذكورة ، وهنا تظهر زيادة كبيرة وسريعة تمهد لظهور (اللعب الإيهامى) الذى يبرز فى سن ما قبل الالتحاق بالمدرسة . ومن أمثلته أن الطفل يستعمل مجموعة من المكعبات الخشبية يرصها ويضع بعضها خلف بعضها الآخر ، متخيلا أنها قطار ؛ أو تلعب طفلة بالعرائس متخيلة أنها أطفال صغار ؛ ويركب طفل عصا متخيلا أنه يركب حصانا . . . الخ .

التخيل فى سن المدرسة :

عندما يلتحق الطفل بالمدرسة يكون عادة فى سن السادسة تقريبا ، ويأخذ تخيله فى هذه الفترة اتجاها جديدا ، فبعد أن كان خياله فى المرحلة

(1) Markey, F. : Imaginative behaviour of preschool children. Child dev. Monograph, 18, Teachers College (1935)

السابقة من النوع الإيهامى ، نلاحظ أنه — نتيجة للنضج العقلى — يصير تخيله فى سن المدرسة الابتدائية تخيلا إبداعيا أو تخيلا تركيبيا . وتستطيع التحكم فى قدرة الطفل الخيالية وتوجيهها فى اتجاه محدد عن طريق النشاط الفنى كالرسم والتلوين أو فى ميدان سرد القصة . وهذا النوع من التخيل يكون فى العادة موجها إلى غاية عملية أكثر من التخيل الحر المطلق من القيود الذى يقوم على الوهم ولا يتصل بماضى الطفل أو بحاضره .

ويأخذ خيال الطفل فى هذه السن شكلا آخر ، إذ نجده يتشبه بالأبطال وبأعمال البطولة . وتكون قراءة الطفل وما يشاهده من تمثيليات وأفلام سينمائية ، وما يسمعه من قصص فى الإذاعة ، مجالا خصبا يمده بعناصر متنوعة تبرز هذه الناحية فى الطفل .

الذكاء

النمو العقلى وتطوره :

إن النمو العقلى لا يسير بسرعة واحدة فى جميع الأعمار ، فقد أثبتت الأبحاث التجريبية أن هذا النمو يكون بطيئا فى الصغر ثم يأخذ فى الإسراع خلال فترة الطفولة المتأخرة حتى مرحلة المراهقة المبكرة

إن النمو العقلى لا يستمر فى زيادة مطردة بل يقف عند سن معينة ، وهذه السن تختلف باختلاف الأفراد ، فمثلا فى حالة الأشخاص النابهين يستمر هذا النمو حتى حوالى سن العشرين بينما فى حالة الأطفال متوسطى الذكاء يقف هذا النمو عند سن السادسة عشرة .

العمر العقلى للأطفال :

إن العمر العقلى لطفل ما هو عبارة عن قدرته العقلية « كما يقيسها اختبار الذكاء فى وقت معين ، وذلك بالنسبة للأطفال المتوسطين فى الأعمار المختلفة » ونستطيع إيضاح ذلك بالمثال التالى : هب أن طفلا فى الخامسة من عمره ، كان عمره العقلى ٥ سنوات ؛ فمعنى ذلك أن هذا الطفل متوسط من حيث القدرة العقلية ؛ أما إذا كان عمره العقلى يبلغ السابعة مثلا فهذا دليل على أنه فوق المتوسط ؛ بيد أنه فى حالة نقص عمره العقلى عن الزمنى فهذا دليل على أنه دون المتوسط .

العمر العقلى ونسبة الذكاء :

لما كان عمر الطفل العقلى فى زيادة تدريجية تتناسب مع عمره الزمنى ؛ أصبح من المتعذر الحكم على ذكائه حكما ثابتا (إلى حد ما) يفيدنا فى تاريخ حياة الطفل الحاضرة والمستقبلة . ومن أجل ذلك يعبر عن ذكاء الطفل بواسطة ما يعرف باسم (نسبة الذكاء) ، والتى نحصل عليها بقسمة العمر العقلى على العمر الزمنى وضرب الناتج فى ١٠٠ . ومعنى ذلك أننا إذا قلنا مثلا إن نسبة ذكاء الطفل (س) هى ١٠٠ . فهذا دليل على أن قدرته العقلية فى الماضى والحاضر والمستقبل حول المتوسط . بينما إذا كانت نسبة ذكاء طفل آخر وليكن (ص) قدرها ٥٠ ، فمعنى ذلك أن قدرة ذلك الطفل العقلية تنمو نموا يقل ٥٠ ٪ عن نمو الطفل المتوسط .

أثر العوامل البيئية فى الإثارة الذهنية للأطفال :

ان الذكاء استعداد يرثه الطفل ، شأنه فى ذلك شأن الخصائص الجسمية والانفعالية التى تنقلها حملة الاستعدادات الوراثية (الجينات) من الآباء والأجداد إلى الأبناء .

وعلى الرغم من أن الذكاء استعداد فطرى أو كما اصطلح على تعريفه بأنه « قدرة فطرية » فإن العوامل البيئية المختلفة تلعب دورا هاما فى إثارة هـذه القدرة ، ومن بين هذه العوامل :

١ — تعليم الطفل المدرسى

٢ — الحالة الإقتصادية والثقافية والاجتماعية فى الأسرة :

٣ — الرفاق وأثرهم .   ٤ — الحالة الصحية .

فقد يحدث فى بعض الحالات أن يولد الطفل مزوداً بقسط كبير من الذكاء ، إلا أن ظروفه البيئية والاقتصادية حالت بينه و بين الذهاب للمدرسة ليتعلم العلوم و يكتسب الخبرات ، ومن ثم لم تتح لهذه القدرة الظهور بالشكل المفروض أن كانت تظهر به لو اختلفت هذه الظروف . واقد ثبت — كذلك — من بحث احصائى أجريته بالاشترك مع زميلى الدكتور صبرى جرجس مدير العيادة النفسية العصبية التابعة لوزارة التربية والتعليم ، أن نسبة ذكاء الأطفال الحاصلين على أقل من (٧٠) بلغت فى مدارس حى الإمام وعرب اليسار حوالى ٩ ٪ . وليس معنى هذا أنه يوجد فى هذه المدارس مثل هذا العدد من طبقة ناقصى العقل ، ولـكنه كما اتضح من الدراسات الاجتماعية والصحية التى أجريت على هؤلاء الأطفال ، أن هناك ارتباطا كبيرا بين التخلف فى العطاء الذهنى و بين سوء الحالة الصحية والاجتماعية ، أو بعبارة أخرى ، أن سوء هذه الحالة لم يتح لقدرة الأطفال العقلية بالظهور بالقدر الذى يدل عليها .

التطبيق التربوى لدراسة النمو العقلى

فى مرحلة الطفولة

رأينا أهم خصائص النمو فى هذه الناحية ، و بينا كيف تتطور العمليات العقلية المختلفة لدى الطفل العادى فى هذا الدور من أدوار النمو .

والسؤال الذى يواجهنا الآن : كيف تستطيع المدرسة تحقيق أهدافها فى حدود هذا الإطار ؟ وسنورد هنا بعض الوسائل المقترحة :

١ — ينبغى أن تكون موضوعات المنهج ملائمة لدرجة النضج العقلى التى وصل إليها الطفل .

٢ — ينبغى أن يعتمد التدريس فى السنوات الأولى على حواس الطفل ، مع ملاحظة أن الاختلاف كبير بين الأطفال فى مدى إعتمادهم على حاسة دون أخرى فى عملية التعليم .

ويمكن تحقيق ذلك عن طريق تشجيع الملاحظة والنشاط واستعمال الوسائل السمعية البصرية فى المدرسة .

٣ — ينبغى استغلال استعداد الطفل فى هذه الفترة للتعرف على خصائص العالم الموضوعى وتشجيع نزعته الواقعية ، بأن نربط التدريس بمظاهر الحياة والأشياء الموجودة فى بيئته الخاصة .

٤ — يجب أن نراعى أن الحفظ ليس دليلا على الفهم وكذلك يجب أن نشجع الأطفال على الحفظ القائم على إدراك العلاقات وتجنب الحفظ الآلى .

٥ — خيال الطفل فى أول مرحلة الطفولة من النوع الإيهامى ، إذ تجده مثلا يمسك عصا و يقلد راكب الحصان ويسر من ذلك ، أما من فى سن ٦ أو ٧ فإنه يظهر رغبته فى ركوب حصان حقيقى ؛ ومعنى ذلك أن الطفل فى

مرحله الطفولة المتأخرة يتجه نحو الواقعية ومن ثم نرى أنه يمكن استغلال المهارات والهوايات الموجودة عند الطفل لعلها تكون خير سبيل لتنمية الخيال فى اتجاه سليم و بذلك نجنبه الإغراق الذى يبعده عن واقع الحياة .

٧ — يتجه انتاج الطفل وتفكيره وطريقة معالجته للأمور — فى أواخر مرحله الطفولة — نحو النقد والتمحيص . ويختلف هذا الاتجاه عما يتصف به سلوك الطفل فى سن الرابعة أو الخامسة مثلا . ونستطيع أن ندلل على ذلك ببعض الأمثله : إذا قصصت لطفل فى مدرسة الحضانة قصة خرافية ، فإنه يصدقها دون مناقشة لتفاصيل هذه القصة ، بينما طفل المدرسة الابتدائية فإنه فى هذه الحالة يسألك عن مدى صحتها ونفس الاتجاه يظهر فى انتاج الأطفال فى مرحلة الطفولة المتأخرة . انظر مثلا إلى رسومات الأطفال فى هذه المرحلة فهى مليئة بالتفاصيل وهى أكثر مطابقة للواقع ، بعكس رسومات الأطفال فى سن ٤ أو ٥ فهى عبارة عن مجموعة من الخطوط لا تخرج عن كونها (شخبطة) والغريب أن الطفل فى ذلك السن لا يدرك أن رسمه ردئ ، فكل ما هنالك أنه يمسك القلم ويخط خطوطا و يعجب بما يرسم .

٨ — يجب أن يراعى فى توزيع التلاميذ على الفصول الفروق الفردية من حيث المستوى العقلى ، وأن يراعى فى تلاميذ الفصل الواحد التجانس العقلى بقدر الامكان . و إن تعذر أن يكون ذلك قائما على تطبيق اختبارات الذكاء فينبغى أن يستعاض عن ذلك برأى المدرسين مجتمعين فى المستوى العقلى للأطفال .

٩ — من الخطأ وضع منهج ثابت نفرضه على جميع التلاميذ على السواء فالمنهج الذى يتمه بعضهم فى أربع سنوات ، لا يستطيع البعض الآخر إتمامه إلا فى ست سنين .

الفصل الرابع

النمـــو اللغوى

تمهيـــد :

لـكل لغة من اللغات — سواء فى ذلك لغات المجتمعات المتحضرة والمجتمعات البدائية — مظهران : مظهر اجتماعى ، ومظهر عقلى .

وتظهر الوظيفة الاجتماعية للغة فى كونها الوسيلة التى تمـكن الفرد من الاتصال بمن حوله . و بعبارة أخرى : هى أداة التخاطب والتفاهم والتأثير فى الأفراد والجماعات ؛ وهذا هو مظهرها الأول .

والمظهر العقلى — وهو المظهر الثانى — سابق للمظهر الاجتماعى ؛ فاللغة « أداة اصطنعها العقل » وهى — بهذا المعنى — عبارة عن مجموعة من الرموز (Symbols) تمثل المعانى المختلفة . والعقل يستخدم هذه الرموز لأنها أكثر مطاوعة عند التعبير عن المعانى والأفـكار المختلفة .

وتمر اللغة فى عدة مراحل حتى تصل إلى شكلها المألوف الذى يتيح للفرد استعمالها كأداة للاتصال فى المواقف الأربعة : التحدث والاستماع والقراءة والـكتابة . وسنتناول كل مرحلة من مراحل النمو اللغوى بالتفصيل فيما يأتى :

(أولا) مرحلة الصراخ :

تدل الصيحات الأولى للوليد على أنه قد بدأ يتنفس ، فالهواء عند مروره خلال الجهاز التنفسى يحدث صوتا يشبه الصوت « آ » أو « إى » ، وليست لهذه العملية فى صورتها الأولى قيمة سيكولوجية ، لأنها لا تعبر عن حالة انفعالية ؛ بل إنها أشبه ما تـكون بفعل منعكس ، مثيره هو اندفاع الهواء إلى الرئتين والاستجابة هى تلك الأصوات التى يصدرها الوليد لأول مرة فى حياته .

ثم يتحول صراخ الطفل بعد مدة قصيرة من عملية لا إرادية إلى عملية إرادية ؛ أى أن الصراخ يصير متصلا بحالة الطفل الانفعالية التى تكون فى

أول مراحلها عبارة عن مواقف تهيج متشابهة ، ثم تتنوع بين الارتياح والضيق ، ويكون كل موقف من مواقف الارتياح أو الضيق مصحوبا بصوت من نوع خاص ؛ فهو يصرخ عندما يشعر بالضيق ، ويصدر أصواتا هادئة فى حالة الارتياح . ويعتقد « شتيرن » أن الأم تستطيع بخبرتها أن تميز بين صرخات الضيق وأصوات الارتياح ، كما أنها تستطيع بعد أسابيع قليلة من ميلاد الطفل أن تميز بين صرخات الضيق المختلفة ، وأن تدرك الدلالة النوعية لكل صرخة ؛ فتعرف ما إذا كان الضيق راجعا إلى الجوع أو التبلل أو الألم . وهكذا يتضح لنا أن صيحات الطفل فى الأسابيع الأولى من حياته هى الوسيلة التى يعبر بها الطفل عن أحاسيسه المختلفة . ويتضح لنا كذلك أن من الخطأ الحيلولة بين الطفل وصراخه ؛ فالطفل عن طريق الصراخ يعبر عما يشعر به من الضيق أو الألم بوجه عام ، كما يعبر عن حاجاته الطبيعية كما ينبغى أن ننظر إلى هذا الصراخ وأثره فى تقوية الجهاز الصوتى لدى الطفل ؛ مما يؤهل الطفل للانتقال إلى المرحلة الثانية من مراحل النمو اللغوى .

(ثانيا) مرحلة الأصوات العشوائية :

يصدر الطفل منذ الأسابيع الأولى من حياته — إلى جانب ما يقوم به من صراخ — أصواتا عديدة غامضة ، يقوم بها بادىء الأمر بشكل آلى لا إرادى نتيجة لبعض الدوافع الحركية (motor impulses) وتعتبر هذه الأشكال الصوتية الصادرة عن الطفل المادة الأولية التى ينحت منها الطفل أصوات الحروف المختلفة . وأصوات الطفل تكون كثيرة متنوعة أكثر مما تحتويه أى لغة من الحروف ، ويلعب كل من النضج والبيئة دورا كبيراً فى تشكيل هذه الأصوات وتعديلها حتى تأخذ النمط المألوف فى البيئة التى ينشأ فيها الطفل

(ثالثا) مرحلة الحروف التلقائية :

تبين من ملاحظات بعض الباحثين — أمثال : «Stern»و«Lewis»[1] و «Preyer» — أن أصوات الطفل الأولى تتصل بالحروف المتحركة ؛ بينما تبدأ الحروف الساكنة فى الظهور عند ما تأخذ حركات الانقباض أو الانكماش فى أعضاء الجهاز الكلامى ، شكلا أكثر تحديدا ، ويرجع ذلك إلى نمو الطفل الجسمانى وما يستتبعه من نضج .

وأول الحروف الساكنة ظهورا الحروف الأمامية ؛ وهى قسمان : حروف شفوية مثل الحرف « ب » وحروف سِنِّيَّة (denta ،مثل « د » و « ت » ، وترجع أسبقية ظهور تلك الحروف إلى أن الطفل حين يستعد للقيام بما يتوقعه من الرضاعة فإن الأصوات التى يصدرها تكون قريبة من الشفتين أوالأسنان؛ أى المكان الذى تبدأ مباشرة عملية الرضاعة فيه . ثم تظهر الحروف الأنفية ؛ مثل الحرفين : « ن » و « م » ؛ وهذان الحرفان يصدرهما الطفل فى الغالب عندما يكون فى موقف من مواقف الارتياح فى النصف الثانى من العام الأول .

وعندما يصل الجهاز الكلامى إلى درجة من النضج تمكن الطفل من السيطرة على حركات لسانه تبدأ الحروف الساكنة الخلفية — وهى المعروفة بالحروف الحلقية — فى الظهور ، مثل « ك ، ج ، ق ، ع ... الخ »

(رابعا) مرحلة التقليد :

بعد الشهر الخامس من حياة الطفل نلاحظ أن الأصوات التى كان يصدرها الطفل بصفة تلقائية تأخذ معنى آخر ؛ إذ تبدأ تظهر بعض التأثيرات فى نفس الطفل نتيجة تكرار هذه الأصوات التى كان يصدرها دون قصد منه فالطفل عندما يصدر الصوت « دا Da » مثلا وهو صوت يصدر عنه

---

(1) Lewis : Infant Speech (1936).

فى بادئ الأمر بشكل تلقائى لا إرادى — يشعر عند سماعه له بشئ من السرور يدفعه إلى تكرار الصوت . وهنا يرتبط سروره الحادث من اللعب بالأصوات (vocal play) بإدراكه للصوت المسبب لهذا السرور . أو بعبارة أخرى ترتبط حالة شعورية معينة عنده ببعض الأشكال الصوتية المسببة لتلك الحالة[١] .

ويخلق سماع الطفل لصوته وسروره الحادث من هذه العملية عاملا وجدانيا فى نفسه يشعره بالمقدرة والإحساس بالقوة . كما يشعره بلذة النجاح ، ويدفعه إلى القيام بمحاولات تكرار جديدة ، فيقول . (دا . . دا . . دا) . ويصبح الوضع الجديد لهذا النوع من ردود الأفعال ، عبارة عن حلقة دائرية (circular) ، تتضمن القول والسمع (أنظر شكل رقم ٧ — ١) . وبنفس الطريقة تتكون أشكال أخرى مماثلة من التركيبات الدائرية الشرطية (circular conditioned responses)

وعندما تتكون مجموعة من تلك التركيبات ، يتخذ منها الكبار حوله ، موقفا خاصا : فرغبة منهم فى تشجيعه ، وتعبيرا عما يشعرون به من سرور وانشراح نجدهم يكررون نفس ما يقوله الطفل ، فيبدأ الطفل يقارن الأصوات التى يخرجها بتلك التى نطقت بها أمه أو مربيته . وكم يكون سرور الطفل ، وكم تتضاعف سعادته عندما يدرك وجه الشبه بين ما يفوه به وما ينطقون . ويحاول الطفل إذ ذاك أن يربط بين أصواته وأصواتهم . (أنظر الشكل رقم ٧ . . . ب) . وهنا ينتقل الطفل من التقليد الذاتى الذى يقلد فيه نفسه دون التأثر بالتجارب الخارجة عن محيطه ، إلى التقليد الموضوعى الذى يقلد فيه غيره[٢] .

---

(١) Stern : Psychology of early childhood. P. 143,

(٢) « نظرية الجشتلط وأثرها فى تعليم اللغات » للدكتور مصطفى فهمى . رسالة ماجستير قدمت لكلية الآداب بجامعة فؤاد فى عام ١٩٤٢ .

(خامسا) مرحلة المعانى : (acquisition of meanings) .

لتشجيع الطفل على الكلام ، نجد الأم وهى تكرر الصوت (دا ..Da) مثلا — وهو فى الأصل صادر عن الطفل — تنطق به من وقت لآخر ، مصحوبا بكلمة تبدأ بنفس المقطع الصوتى (مثل الكلمة الإنجليزية doll) . ثم فى موقف آخر نجدها تبرز الشىء الذى تدل عليه الكلمة ، أو تكتفى بالإشارة إليه . (أنظر الشكل ٧ . . . ج) . وهنا يدخل عامل جديد فى عملية اكتساب اللغة ؛ هو عامل الإدراك البصرى ؛ فيربط الطفل ، إذ ذاك معنى الشىء المدرك بالكلمة التى يسمعها (إدراك سمعى) ، ثم يحاول أن يلمس الشىء المدرك ويعبث به (إدراك لمسى) . ومن ثم فإننا نلاحظ أنه إذا وقع الطفل فى ظروف أخرى على (عروسة doll) ، فإنه يصرخ مناديا بالكلمة (أنظر شكل ٧ . . . د) .

وهكذا يتعلم الطفل معانى الأشياء والألفاظ التى تدل عليها .وقد ابتدأت العملية — كما رأينا — بإصدار أصوات لا إرادية نتيجة لحركات الجهاز الكلامى (وهذا مظهر حركى صرف) . ولكن سرعان ما تكتسب هذه الأصوات دلالات معينة نتيجة لنمو المدركات الحسية — سمعية ، وبصرية ، ولمسية — (وهذا مظهر حسى) . ولا يمكن أن يستقيم كلام الطفل ، إلا إذا كان هناك توافق بين المظهر الحركى الكلامى والمظهر الحسى الكلامى ، مما يدعونا إلى اعتبار (ميكانيزم) الكلام كلاً ديناميكيا [١] .

وعن طريق التفاعل بين النواحى الحركية الكلامية والنواحى الحسية الكلامية ، يكتسب اللفظ معنى ، ويتحقق ذلك عن طريق التعلم . وهكذا

---

(١) زيادة فى التفصيل ارجع إلى الفصل الأول من كتاب أمراض الكلام للمؤلف .

(شكل ٧)

تتكون الـكلمات أو المفردات الأولى للطفل ، وزيادة فى التوضيح نسوق مثلا آخر : عند ما ينطق الطفل الصوت (با) نجد الأم تشجعه بتكرار نفس الصوت ، ثم نجدها فى موقف آخر تنطق بلفظ يبدأ بنفس اللفظ ، وتشير إلى مدلوله (بابا مثلا) . و بتكرار هذه العملية يربط الطفـل بين اللفظ ومدلوله . فإذا رأى الطفل (والده) نطق باللفظ (بابا) . هـكذا يتم ميلاد الـكلمة ، و بذلك يستطيع الطفل معرفة أسماء الأشياء المختلفة . وتأخذ الـكلمات التى يعرفها الطفل فى أول الأمر صفة العموم فيطلق كلمة (بابا) على كل رجل يراه ، و يطلق كلمة (لبن) على كل أنواع الطعـام . وعندما تزداد إمكانياته العقلية تبدأ مرحلة التمييز والتخصيص فى استعمال الألفاظ ، فيستعمل كل كلمة فى مدلول خاص . وتحتاج هذه العملية إلى الملاحظة والمقارنة والانتزاع والتجريد والاستنتاج أو الحـكم . وهكذا نرى أن العلاقة بين التفـكير واللغة وثيقة

للغاية ، فليست اللغة نتاجا اجتماعيا فقط ؛ بل هى بالإضافة إلى ذلك نتاج عقلى . وكلما زاد عمل العقل شعر بحاجة قصوى إلى التعبير . واللغة هى إحدى وسائل التعبير عن مكنونات العقل . فالتفكير يتطلب رموزا تحمل المعنى الذى نريده ، والألفاظ هى خير ما يرمز به إلى المعانى ، كما أنها خير وسيلة لتوصيل هذه المعانى إلى الغير ، و بدون تلك الرموز لا تبقى المعانى والأفكار حية فى ذهن الأطفال .

متى تبدأ الكلمة الأولى :

تظهر الكلمة الأولى للطفل فى الشهر التاسع تقريبا ، غير أنه قد تتأخر عن ذلك ، تبعا للفروق الفردية بين الأطفال . ومن أهم تلك الفروق ، ما هو متصل بالقدرة العقلية الفطرية العامة (الذكاء) ، إذ ينتج عادة عن نقص نسبة الذكاء التأخر فى القدرة اللغوية ؛ ومن تلك الفروق ما هو متصل بالجنس ، فقد دلت الدراسات على أن القدرة الكلامية عند البنت تكون أسرع ظهورا منها عند الولد . ومن أهم الأبحاث التى أجريت لدراسة الكلمة الأولى ومعرفة وقت ظهورها بحث قام به (Bateman)[1] على مجموعة من الأطفال عددها ٣٥ طفلا (منهم ١٨ طفلا إنجليزيا ، ١٢ ألمانيا ، ٢ فرنسيان ، ٢ بلغاريان ، طفل بولندى واحد) .

و إليك جدولا يوضح ما جاء فى ذلك البحث :

---

(1) From Speeoh in Childhood (Seth & Guthrie).

العمر بالشهر	عــدد الأطفال		المجموع
	بنين	بنــات	
٨	١	—	١
٩	١	٤	٥
١٠	١	١٠	١١
١١	٢	٤	٦
١٢	١	٢	٣
١٣	٣	٢	٥
١٤	٢	١	٣
١٥	١	—	١
	١٢	٢٣	٣٥

ويتضح من الجـدول السابق أن نسبه كبيرة من هذه المجموعة من الأطفال قد ظهرت الـكلمة الأولى عندها فى الشهر العاشر. كما أن ستة وعشرين طفلا من بين الأطفال الخمسة والثلاثين (أى بنسبة ٧٥٪) قد نطقوا أول كلمة قبل نهاية السنة الأولى من حياتهم ، كذلك استطاعت عشرون بنتا من ثلاث وعشرين (أى بنسبة ٨٧٪) أن ينطقن الـكلمة الأولى قبل نهاية العام الأول ، ويقابل ذلك ستة من البنين من اثنى عشر طفلا (أى بنسبة ٥٠ ٪) ، وتؤيد هذه النتيجة الاعتقاد السائد بأن البنت تبدأ الـكلام مبكرة قبل الولد .

نمو مفردات الأطفال :

تنوعت طرق الباحثين فى دراسة نمو مفردات الأطفال ، وأكثر هذه الطرق انتشارا هى الطرق التى تقوم على ملاحظة حديث الطفل فى فترة معينة لمدة تتراوح من بضع ساعات إلى يوم أو أكثر ، ثم تدون الـكلمات التى

ينطقها الأطفال . ويستمر استعمال هذه الطريقة مع نفس الطفل مع تقدم السن به ، لمعرفة محصوله فى المفردات ونموه تبعا لتقدم السن بالطفل . ومن أمثلة هذه الأبحاث الفردية بحث قامت به السيدة (W. S. Hall) على نجلها ، وبحث قام به (Deville) على ابنته .

وقد أجرى بعض الباحثين أبحاثهم بطريقة جمعية ؛ فكانت ملاحظاتهم تنصب على مجموعة من الأطفال ؛ ومن أمثلة هذا النوع الجمعى من الأبحاث ما قامت به سميث (Smith)[1] فى أمريكا ، ويمكن تلخيص نتائج أبحاثها فى الجدول الآتى :

العمر بالسنوات والشهور	عدد الأطفال	عدد المفردات
٨ شهور	١٣	صفر
١٠ »	١٧	١
— ١ سنة	٥٢	٣
٣ » ١ »	١٩	١٩
٦ » ١ »	١٤	٢٢
٩ » ١ »	١٤	١١٨
— ٢ »	٢٥	٢٧٢
٦ » ٢ »	١٤	٤٤٦
— ٣ »	٢٠	٨٩٦
٦ » ٣ »	٢٦	١٢٢٢
— ٤ »	٢٦	١٥٤٠
٦ » ٤ »	٣٢	١٨٧٠
— ٥ »	٢٠	٢٠٧٢
٦ » ٥ »	٢٧	٢٢٨٩
— ٦ »	٩	٢٥٦٢

ويلاحظ أن نمو المفردات يأخذ فى الزيادة المضطردة فيما بين العام الثانى والسادس ، وتبلغ تلك الزيادة ما بين خمسمائة كلمة وستمائة فى العام الواحد ؛

(1) Smith, M. E. : The extent of vocabulary in young children.

فيما عدا الفترة التى تقع بين « ١٥ — ١٨ » شهراً ويعللون توقف الزيادة فى هذه الفترة بأن الطفل يكون مشغولا بتركيز انتباهه فى عملية المشى .

التعبير الشفهى :

يستعمل الطفل فى العام الأول من حياته الكلمة فى معنى الجملة ، ويطلق على هذه المرحلة التعبيرية « مرحلة الكلمة الجملية (Word sentence) » وهى مرحلة تعبيرية غامضة بالنسبة للسامع ؛ فالطفل عندما يرى كرة أمامه ويقول « كرة » ، فإن السامع تتطرق إلى ذهنه معان عدة ؛ أيريد الطفل بذلك أن يقول : « هذه كرتى » أم يريد أن يقول : « ناولنى الكرة » أم يريد أن يقول : « إلعب معى بالكرة » إلى غير ذلك من الاحتمالات الكثيرة التى يعتمد الكبار فى اكتشاف مراد الطفل منها على ما يظهر عليه من انفعالات عندما يقومون بتلبية نوع خاص .

ويستطيع الطفل فى سن عامين أن يستعمل فى تعبيره كلمتين معا ، ثم يأخذ عدد الكلمات فى الزيادة وفقا لسن الطفل ودرجة ذكائه والبيئة التى يعيش فيها .

وعبارات الطفل فى السنوات الأولى من حياته تكون سليمة من الناحية الوظيفية ؛ بمعنى أنها تؤدى المعانى التى يريد الطفل التعبير عنها . ولكنها تكون غير كاملة أو غير صحيحة من ناحية التركيب اللغوى .

ويستطيع الطفل بعد انتهاء العام الثانى التعبير عن أفكاره فى جمل قصيرة بسيطة ؛ كما أنه يستطيع استخدام الأفعال فى بناء الجملة ، وهكذا يأتى استخدام الفعل فى مرحلة متأخرة ؛ فإدراك الأسماء واستعمالها يسبق إدراك الأفعال واستعمالها ، ويرجع ذلك إلى ما فى طبيعة الفعل من تعقيد ؛ إذ أنه يدل على « حدث » و « زمن » بعكس الأسماء .

ويتمكن الطفل فى عامه الثالث من استعمال جمل يبلغ عـــدد مفرداتها ثلاث كلمات ثم تزداد قدرته على تكوين الجمل حتى يتمكن فى سن الرابعة والنصف من استعمال جمل تتكون الواحدة منها من أربع مفردات أو ست . وتنمو قدرة الطفل على استعمال الجمل المركبة تبعا لدرجة ذكائه ومستواه الاجتماعى .

وقد لوحظ أن عدد مفردات الجملة يزيد من متوسط « ٢ر١ — ٧ر١ » فى سن « ١٨ » شهراً إلى « ٦ر٤ » فى سن أربع سنوات ونصف[1] .

ومما لوحظ كذلك أن جمل الأطفال فى سن « ١٨ » شهرا تكون بسيطة وقصيرة ، ثم يضيف الطفل إلى الجملة البسيطة التى يستعملها ، عبارات جديدة حتى تصبح الجملة معقدة أو مركبة (Compound Complex) .

ويزيد استعمال الجمل المركبة كلما تقدم الطفل فى السن ، ولا يقف الأمر عند حد التعبير الشفهى ؛ بل يتجاوز ذلك إلى كتابة الأطفال ؛ فالطفل فيما بين العاشرة والحادية عشرة يميل إلى استعمال الجمل المركبة الطويلة فى حديثه وكتابته ونسبة استعمال هذه الجمل المركبة تبلغ حوالى ٧٣٪ من مجموع الجمل التى تحتويها القطعة التى يكتبها أو يقولها .

التعبير التحريرى :

إن الأطفال الذين يعيشون فى أوساط اجتماعية راقية يكونون — كما لاحظ Davis — أقل احتمالا للوقوع فى أخطاء خاصــة بالاستعمال اللغوى من الأطفال الذين يعيشون فى أوساط فقيرة ، ويرجع ذلك إلى أن الأطفال الذين يعيشون فى الأوساط الأولى قد تمكنهم فرصتهم من أن يسمعوا عبارات

---

(١) (نفس المرجع ، ص ٧٥) Smith, M. E.

ونماذج لغوية منتقاة ، وتكون هذه النماذج فى الغالب قريبة إلى حد كبير من النماذج اللغوية الصحيحة .

والطفل عند التحاقه بالمدرسة تأخذ قدرته على التعبير التحريرى فى النمو البطىء ، وتتدرج هذه القدرة مع مرور الزمن ومع انتقال التلميذ من فرقة إلى أخرى . ويرجع ذلك إلى أن التعبير التحريرى عملية معقدة يجد الطفل فيها صعوبة عند استخدامها فى التعبير عن أفكاره ، ومن ناحية أخرى فإن الطفل قد تطلب منه الكتابة فى موضوع تعوزه فيه الأفكار التى تتصل به ، ثم هناك — من جهة ثالثة — صعوبات بالخط والهجاء تحد من قدرته على ذلك . وهناك أمر رابع يتصل بجهل الطفل بقواعد اللغة واستعمال الألفاظ والأساليب.

هذه أمور تعوق التلاميذ فى الفرق الأولى من المدرسة الابتدائية وتحد من قدرتهم على التعبير التحريرى . ومن هنا نجد التربية الحديثة تعنى فى هذه الفتره المدرسية بالتعبير الحر والحديث الشفهى وتتدرج بالتلميذ فى التعبير التحريرى فتقدم للطفل بعض الجمل أو العبارات الناقصة ليكملها . كما تقدم إليهم بعض الصور التى يعبرون عن محتوياتها ، أو يكونون من مناظرها قصة. كذلك يوجه الأطفال فى هذه الفترة إلى العناية بكتابة يومياتهم ، وتدوين ما يشاهدونه من حوادث ، وتلخيص ما يعجبون به من قصص ، إلى غير ذلك من الأمور المتصلة ببيئة الطفل والتى تجعل الخبرات المدرسية التى يمر بها مألوفة له غير غريبة عن بيئته. ومن أهم النواحى التى ينبغى أن يلاحظها المدرس ، عدم الإسراف فى تصحيح أخطاء التلاميذ حتى لا يتسبب عندهم الشعور بالفشل ، فينبغى ألا يصحح للطفل إلا ما يمكنه أن يعرف السبب فى اعتباره خطأ ، كما ينبغى جمع أخطاء التلاميذ وتصنيفها وتقسيمها بحيث تمكن معالجتها معالجة مثمرة ينتج عنها اتجاه التلاميذ إلى تلافيها بعد ذلك .

أهمية النماذج الكلامية :

إن التمكن من استعمال اللغة كأداة للاتصال يقوم فى أساسه على التقليد والسماع ؛ إذ أن اللغة عبارة عن عملية تقليدية . وهنا تبرز أهمية النماذج الحسنة التى يسمعها الطفل ويقلدها . ويقوم المدرس بدور هام فى هذه الناحية ، فتدريس اللغة العربية مثلا إذا انحصر فى حصص اللغة العربية التى تقوم على أساس التمزيق والتفريق بين فروع هذه المادة ، واقتصرت ممارسة التلميذ للتعبير بها على الوقت الذى يكون فيه مدرس اللغة موجودا معه لم يأت التدريس بالفائدة الموجودة . أما إذا كان هناك اتصال بين مدرسى الفصل الواحد ، يدرس فيه مستوى الفصل وتحدد مشكلاته ويضع المدرسون الأسس التى يسيرون عليها فى تدريسهم ، ويتفقون على اللغة التى يستعملونها مع تلاميذهم فإن التلميذ سيفيد من ذلك وستكون لغته فى جميع الحصص المدرسية فى مستو واحد تقريبا .

ولا يصح أن نغفل أهمية البيئة التى ينشأ فيها التلميذ ، ففيها تقدم له النماذج الأولى التى تتخذ أساسا للترقى اللغوى بعد ذلك . وبعد التحاق الطفل بالمدرسة قد تكون بيئة التلميذ عونا لمدرسته فى تهيئة وسائل النمو اللغوى بما يسمعه التلميذ فيها من عبارات منتقاة وما يجده فيها من تشجيع وما تمده به من كتب وقصص . وقد يحدث العكس فى بعض البيئات الفقيرة أو المتواضعة .

موقف المدرس من أخطاء الطفل اللغوية :

سبق أن أشرنا إلى أن المدرس ينبغى ألا يسرف فى تصحيح أخطاء التلاميذ ، فنحن نهدف فى تعبير الأطفال الشفهى والتحريرى إلى تحقيق

أمرين : الانطلاق واستعمال اللغـة الجيدة . فلـكى ننمى عادة الإنطلاق عند التلميذ فى الفرق الدراسية الأولى ينبغى أن نتركه يعبر عن نفسه باللغة التى يختارها ، وأن نتحاشى إيقافه فى أثناء التحدث كى نصوب له أخطاءه ، فذلك مما يضعف ثقته بنفسه و يشعره بفشلة و يؤدى به إلى التردد . على أن ذلك لا يمنع المدرس من انتهاز الفرصة التى يتناول فيها بعض الأخطاء البسيطة فيصوبها بالاشتراك مع تلاميذه ، وخاصة تلك الأخطاء التى ترد بكثرة فى كتاباتهم وأحاديثهم . ومتى تمكن الطفل من الحـديث وثبتت فيه عادة الانطلاق وجب أن يعنى المدرس بناحية استعمال اللغة الجيدة فعليه أن يعمل على تنقية اللغة العامية التى يستعملها التلاميذ وترقيتها وردّها إلى أصولها الصحيحة . ثم عليه أن يسمعهم القصص والنماذج الـكلامية الجيدة ويحبب إليهم القراءة والاستماع فلذلك كله آثاره الـكبيرة فى تكوين المستوى اللغوى الذى يسير عليه التلميذ فى تعبيره .

القدرة على القراءة :

عند ما يلتحق الطفـل العادى بالمدرسة « فى سن السادسة تقريبا » تكون عدد المفردات التى يعرفها حوالى « ٢٥٠٠ » كلمة . كما أنه يكون قادرا على استعمال جمل فى تعبيره الشفهى تتكون الواحدة منها من خمس كلمات تقريبا . ويستطيع الطفل فى هذه السن أن يعرف أشكال الحروف الهجائية وأن يعطى ما يعرض عليه منها اسمه ؛ ويستدل بذلك على بدء استعداد الطفل للقراءة .

وعملية القراءة عملية مركبة معقدة ؛ فهى تعتمد على بعض العادات الحركية وعلى التفكير ، كما أن لها ارتباطا كبيرا بالناحية الشعورية .

والطفل عندما ينظر فى كتاب تحدث عدة عمليات أساسية حتى تخرج الـكلمات من فمه ، ويمكننا تلخيص هذه العمليات أو الخطوات فيما يأتى :

(١) آثار بصرية على الشبكية ، فتنقلها الأعصاب إلى المراكز البصرية بالمخ .

(٢) انتقال هـذه الآثار من المراكز البصرية إلى المراكز الحركية الـكلامية بالمخ .

(٣) انتقالهـا بعد ذلك من المراكز الحركية الـكلاميـة بالمخ إلى الأعصاب المتصلة بالشفاه واللسان وسقف الحلق . . . المخ .

(٤) وهنا تتحرك هذه الأعضاء حركات خاصة حسب الاستجابات التى ترد إليها .

(٥) وأخيرا يحدث الـكلام .

العادات الحركية أثنـاء القراءة :

ينبغى أن تتكون لدى الطفل عادات حركية أثناء تعلمه القراءة ، لاسيما فيما يتصل بالحركات الخاصة بالعين ؛ وقد أجرى « جود »[1] عدة تجارب فى جامعة « شيكاجو » أثبتت أن العين فى أثناء القراءة تمر بفترات توقف (Pauses) أو تثبيت (Fixation) دون أن يشعر بها القارئ ، وتستغرق الفترة مدة تتراوح بين ٢/١٠ و ٤/١٠ من الثانية . ولهذه الفترات أهميتها فى مساعدة الطفل على رؤية المـادة المطبوعة وفهم المعنى فى أثناء انتقال العين بين السطور المطلوب قراءتها . وعندما تنقص هذه الفترات عن الحد العادى تصبح المعانى غامضة فى ذهن القارئ .

والقارئ فى أثناء قراءته لا ينظر إلى كل حرف من حروف الـكلمة

(1) Judd, C. H. : Reading, its nature and development (1918)

على حدة ، ولكنه ينظر إلى عبارات قصيرة أو كلمات كاملة . ويعرف مدى ما يستطيع الطفل القارىء إدراكه فى فترة واحدة من التوقف (eye pause) باسم مدى الإدراك البصرى (visual perceptual span) ويكون هذا المدى قصيرا فى أول الأمر ، ثم يأخذ فى الزيادة كلما تقدم نمو الطفل .

التحسن فى القراءة الجهرية :

عند قياس قدرة الطفل على القراءة يعنى الفاحص بناحيتين : السرعة والجودة ، فيحصى عدد الكلمات التى يستطيع الطفل قراءتها فى كل دقيقة ، وكذا عدد الأخطاء التى تحدث فى أثناء قراءته لفقرة من الفقرات المقننة .

وقد أثبتت الأبحاث التى أجريت فى أمريكا أن الطفل الذى يقضى ستة شهور بالفرقة الدراسية الأولى (والذى تكون سنه حوالى السادسة) يستطيع أن يقرأ حوالى خمس وسبعين كلمة فى الدقيقة قراءة جهرية على أن تكون المادة مناسبة لمستواه . وعندما يصل إلى الفرقة الثالثة حيث تكون سنه حوالى الثامنة يستطيع أن يقرأ ضعف العدد السابق فى نفس المدة . فإذا ما وصل إلى الفرقة السادسة أو السابعة — أى فيما بين (١١ — ١٢) عاما — أمكنه أن يقرأ حوالى مائتى كلمة فى الدقيقة(١) .

وهكذا نجد النمو فى سرعة القراءة الجهرية يكون سريعا فى الفرق الأولى ، ولكنه بعد الفرقة السادسة أو السابعة يكون التحسن فى السرعة بطيئا .

وتأخذ الجودة أو قلة عدد الأخطاء اتجاها يشبه اتجاه السرعة ، فقد لوحظ وجود علاقة عكسية بين نمو مفردات الطفل وأخطائه فى القراءة .

---

(١) نفس المرجع ص ٨١ .

القراءة الصامتة :

إن القراءة الصامتة لا تقل أهمية فى حياة المتعلم عن القراءة الجهرية ، بل هى فى الواقع النوع الغالب من القراءة فى حياتنا . ويتجه الاهتمام عند قياس القدرة على القراءة الصامتة إلى ناحيتى السرعة والفهم .

وقد أثبتت الأبحاث فى أمريكا أن الطفل فى الفرقة الثانية من المرحلة الأولى يمكنه أن يقرأ حوالى مائة كلمة فى الدقيقة قراءة صامتة ثم تزيد هذه القدرة حتى يمكنه فى الفرقة السادسة أن يقرأ مائتى كلمة أو أكثر . ومما لوحظ أن الطفل فى سن الثانية عشرة يمكنه أن يقرأ فى الدقيقة عددا من الكلمات يتراوح بين ٢٥٠ — ٢٩٠ كلمة(١) .

وإذا أردنا أن نقوم بمثل هذه الأبحاث التى أجريت فى أمريكا فى مدارسنا المصرية فإننا نشاهد فى الغالب اختلافا فى النتائج يرجع إلى عدم العناية بالقراءة الصامتة أو إهمالها فى معظم الدروس ، وقد اتجهت دراسة اللغة أخيرا فى المدارس المصرية اتجاها يرمى إلى العناية بالقراءة الصامتة فأفردت لها بعض الحصص وجعلت كل قراءة جهرية مسبوقة بقراءه صامتة(٢) .

العوامل التى تؤثر فى النمو اللغوى :

تتدخل فى النمو اللغوى عدة عوامل منها : العمر والجنس والذكاء والبيئة الاقتصادية والاجتماعية للطفل . وسنناقش كلا من هذه العوامل فيما يأتى :

---

(١) Gray, H. : Summary of investigations relating to reading (جامعة شيكاجو) .

(٢) يقوم الأستاذ أحمد عبيد المعيد بمعهد التربية للمعلمين بدراسات على القراءة الصامتة فى مدارس المرحلة الأولى ، ولم يتمكن المؤلف من تلخيص نتائج هذا البحث لأنها ما زالت موضع مناقشة الأستاذ المشرف عليه .

(١) العمر الزمنى (Chronological age) :

كلما تقدم الطفل فى السن تقدم فى تحصيله اللغوى وفى قدرته على التحكم فى لغته ، و يرجع ذلك إلى الارتباط بين السن والنضج ؛ وخاصة نضج الجهاز الـكلامى والنضج العقلى وما يصحب ذلك من زيادة فى خبرات الطفل .

(٢) الصحة العامة :

إن الطفل الذى يكون فى حالة جسمية سليمة يكون أكثر نشاطا و إلماما بما يدور حوله على عكس الطفل الذى يكون سيىء الصحة . فالحالة الصحية من حيث تقدمها أو تأخرها تؤثر فى عمليات النمو المختلفة . و إن أى تأخر فى النمو الحركى فى مرحلة الطفولة المبكرة بسبب المرض تنتج عنه قلة اللعب بالأصوات فى المرحلة الخاصة به والتى سبقت الإشارة إليها ، وهو ذو أهمية كبرى فى النمو اللغوى . ولقد أثبتت الأبحاث أن هناك علاقة إيجابية كبيرة بين نشاط الطفل والنمو الـكلامى ؛ فكلما كان الطفل سليما من الناحية الجسمية كان أكثر نشاطا ، ومن ثم يكون أكثر قدرة على اكتساب اللغة .

(٣) الجنس :

أثبتت الدراسات أن النمو اللغوى عند البنات يكون أسرع منه عند البنين ، وذلك فيما يتصل بعدد المفردات وطول الجمل والفهم . و يكون هذا الفرق ظاهرا فى السنوات الخمس الأولى ، وفيما بين الخامسة والسادسة نجد أن الذكر والأنثى يتساو يان أو أن الفروق بينهما تتقارب .

(٤) الذكاء :

هناك علاقة واضحة بين الذكاء والقــدرة اللغوية ؛ فضعاف العقول يبدءون الــكلام متأخرين عن العاديين . والعاديون يتأخرون فى ذلك عن الأذكياء .

وليس معنى هــذا أن كل طفل يتأخر فى الــكلام لا بد أن يكون ضعيف العقل أو غبيا ؛ فهناك عوامل أخرى تتدخل فى التأخر اللغوى غير الذكاء .

وللطفل ذى القدرة العقلية الممتازة ميزات تتصل بقدرته على الملاحظة وإدراك العلاقات وفهم المعنى وإدراك الفروق التى بين المعانى المختلفة ، وهذه كلها عوامل تساعد على النمو اللغوى .

(٥) البيئة :

هناك علاقة إيجابية بين المركز الاقتصادى والاجتماعى للأسرة التى ينشأ فيها الطفل ونموه اللغوى . فالأطفال الذين ينشئون فى بيئات مريحة مجهزة بوسائل الترفيه ويكون أهلهم متعلمين تمكنهم فرصهم من التزود بعدد كبير من المفردات ، وتكوين عادات لغوية صحيحة ؛ بعكس الأطفال الذين يعيشون فى بيئة فقيرة حتى فى حالة تساويهم مع الأول فى درجة الذكاء .
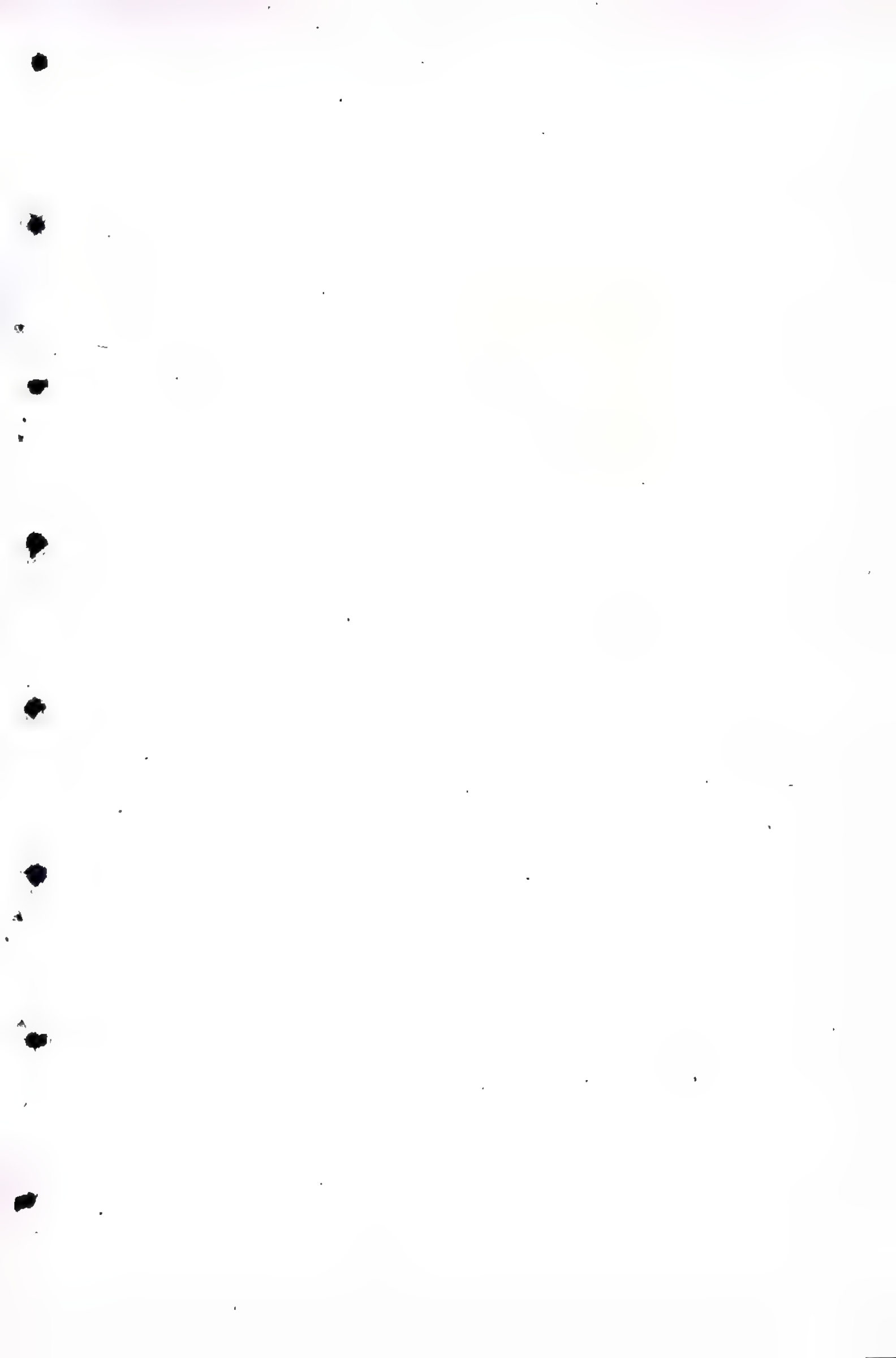
الفصل الخامس

نمو الطفل الاجتماعى

الاهتمام بدراسة الطفولة على أساس اجتماعى :

إلى عهد قريب كان اهتمام المشتغلين بعلم نفس الطفولة قائما — إلى حد كبير — على دراسات وملاحظات فردية ، تخضع لعوامل التجريب المختلفة ، إما فى المعمل ، و إما فى حجرة الدراسة ، و إما فى المنزل . وكانت معظم التجارب تجرى فى جو صناعى بعيـد كل البعد عن المواقف الاجتماعية المختلفة التى يتفاعل فيها الطفل تفاعلا طبيعيا ، تلقائيا . ومعنى هذا أن أمثال تلك الدراسات الأكاديمية الصرفة ، لم تكن مستمدة من حياة الطفل التى يمكن ملاحظتها فى ميدان واسع ، وهو ميدان الحياة ذاتها .

إلا أن دراسات الطفولة أخذت فى السنوات الأخيرة تتجه اتجاها جديدا ، وتنحو منحى اجتماعيا ينظر إلى الطفل على أنه وجود إنسانى حى (human reality) ، يسهم فى تحليله مجموعة من المتخصصين فى علوم التربية والنفس والاجتماع ، ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه الجديد فى دراسة الطفولة له أهميته القصوى ، وخاصة بعد ما ثبت أن الدعامات الرئيسية للشخصية تقام فى السنوات الأولى من حياة الطفل وأنها تقوم على فكرة التفاعل الاجتماعى .

أثر التطورات الفلسفية والفكرية فى توجيه هذه الدراسات :

إن هذا الفهم الجديد لدراسة الطفل ، والذى يقوم على أساس اجتماعى ، قد استفاد كثيرا من التطورات الفكرية والفلسفية التى كانت سائدة فى أوروبا وأمريكا منذ أواخر القرن الثامن عشر وما الثورة الفرنسية (١٧٨٩) وحركة التحرير فى أمريكا (١٧٧٦) ، وما صاحبهما من نهضات فكرية واقتصادية وصناعية ، إلا دليل واضح على الرغبة الأكيدة فى التحرر من فلسفة القرون الوسطى التى حدت من حرية الإنسان وقدرته ورسمت له حياته

مقدما ، على أساس أن الحياة الدنيا ، إنما هى قنطرة لحياة أخرى ، أفضل . وما على الإنسان إلا أن يفقد الأمل فى حياته الحاضرة و يسلم مقاليد أموره لرجال الدين ، ليمهدوا له حياة سعيدة ، تتحقق فيها آماله فى العالم الآخر .

ولقد كانت حركات التحرير فى الوقت ذاته موجهة ضد الملكية المستبدة التى كانت تعتقد فى الحق السماوى الملوك ، كما كانت ثورة اقتصادية وصناعية نتج عنها رخاء المجتمع ، ورفع مستوى المعيشة لملايين العمال .

إن النظر إلى رخاء المجتمع على أساس الحاضر ، يعتبر محدود الأثر ، ولذلك اتجه المصلحون الذين جاءوا بعد ذلك نحو المستقبل ، والمستقبل يعنى به الطفل ، لأن الطفل هو عبارة عن الرهينة التى يقدمها الجيل الحاضر إلى الأجيال المقبلة . ومن ثم بدأت العناية بالطفل ورعايته ليكون عضواً صالحا فى المجتمع . وتكون تلك الرعاية عن طريق التربية والتعليم ، ومما يساعد على تعليم الطفل وتربيته ، مرونته وقابليته للتغيير والتعديل والتكيف . وليس أدل على ذلك من أننا نستطيع عن طريق التعليم ، أن نحول طفلا ريفيا يعمل والده فى فلاحة الأرض إلى محام مولع بالقانون ، كما أننا نستطيع أن نخلق مواطنا أمريكيا من طفل إيطالى المولد والنشأة ، هاجر مع والديه إلى الولايات المتحدة .

المواقف الاجتماعية وعلاقتها بالسلوك :

قبل أن ندرس كيف يتطور سلوك الطفل الاجتماعى ، والعوامل التى تؤثر فى توجيه هذا السلوك وتطوره ، يحسن بنا أن نمهد لهذه الدراسة بشرح المقصود من اصطلاحين لهما اتصال كبير بالنمو الاجتماعى للطفل ، وأعنى بهما « سلوك » و « موقف اجتماعى » .

السلوك ومعناه :

إن كلمة سلوك (behaviour) بمعناها العام تتضمن كل نشاط يقوم به الكائن الحى ، وكذلك كل حركة تصدر عن الأشياء ، فبحث الحيوان عن الطعام نوع من السلوك ، وانشغال الطفل فى اللعب نوع آخر من السلوك ، وحركة القلب أو المعدة نوع ثالث من السلوك ، وسير السفينة فى المحيط نوع رابع من السلوك .

والسؤال الذى يبرز الآن ، هل هذه الأنماط المختلفة من النشاط يتضمنها مدلول اللفظ ، كما يفهمه الباحث الاجتماعى .

إن مدلول كلمة سلوك فى نظر الباحث الاجتماعى يتضمن كل ما يقوم به الإنسان من أعمال ونشاط ، تكون صادرة عن بواعث أو دوافع داخلية . وهكذا يشمل السلوك ناحية موضوعية خارجية وأخرى باطنية ذاتية .

إن السلوك على حسب هذا التفسير ، ما هو إلا نتاج العلاقات الديناميكية الصادرة عن تفاعل الإنسان بميوله وحاجاته ونزعاته وحوافزه واتجاهاته ، مع إمكانيات البيئة التى تؤثر بدورها فى السلوك .

إن وحدة السلوك فى نظر المشتغلين بعلم النفس الاجتماعى تعنى السلوك الكتلى (molar behaviour) . إن الأنماط الكلية للسلوك هى عبارة عن أنماط كاملة . ومن أمثلة تلك الأنماط : تقدم شخص لزواج فتاة ، أو التصويت لعضو فى حزب معين ، أو الذهاب للمسجد لتأدية الصلاة . . . الخ . إن هذا النوع من السلوك عبارة عن وحدة كلية ، كتلية تتكون من أكثر من عنصر ، بعكس النشاط الآلى الذى تقوم به الحيوانات الدنيا (الأميبا) مثلا ، أو انقباضات الحواس والأطراف والغدد وما شابه ذلك ، فإن هذه عبارة

عن نشاط مجزأ ، أو كما يقول المشتغلون بدراسة السلوك « وحدة جزئية Molecular unit » .

إن النوع الأول من السلوك هو الذى يعنينا فى هذه الدراسة ، و يمتاز عن السلوك الجزئى بخصائص تنحصر فيما يلى :

(١) إنه عبارة عما يقوم به الفرد من سلوك فى وقت ما ، و يتضمن ذلك حاجاته ، وانفعالاته ، وأفكاره ، و إدراكه ، ونشاطه المتصل بهذا السلوك .

(٢) إنه يتكون من سلسلة متصلة متحدة من الحوادث ، كل منها له بداية ونهاية . وكل واحدة من هذه الحوادث الاستطرادية تتدخل فى التى تليها ، والذى يوحد بينها جميعا و يجعلها غير متعارضة الاتجاه ، هو الهدف العام . ونستطيع أن ندلل على ذلك بحالة الشخص الجائع ، فجميع ما يقوم به هذا الشخص من محاولات ، وما يصاحب ذلك من حالات انفعالية ، يتأثر بحاجته إلى الطعام ورغبته فى تحقيق هدفه ، وكل نشاط يقوم به يعتبر خطوة إلى الأمام فى سبيل تحقيق الهدف و إزالة حالة التوتر الناجمة من عدم تحقيق الهدف .

الموقف الاجتماعى ومعناه :

يمكن دراسة أى موقف اجتماعى من نواح ثلاث :

(ا) العناصر التى يتكون منها الموقف . ويطلق على هذه الناحية كلمة (structure) أى التركيب أو البناء .

(ب) العلاقات بين هذه العناصر ، و يطلق عليها الاصطلاح (Process) أى عملية التفاعل .

(ح) و يدور هذا التفاعل بين العناصر المختلفة حول موضوعات معينة . و يطلق على هذه الناحية كلمة (Content) أى المضمون .

ونستطيع أن نوضح ذلك بمثال مادى لا يتصل بموضوع السلوك ، ثم بعد ذلك نرى إلى أى حد ينطبق ما نقول على موضوع السلوك نفسه :

يوجد أمامى على المكتب وأنا أكتب هذه المذكرات (آلة كاتبة) تتكون من أجزاء مختلفة ، منفصلة (حروف هجائية ، ومفاتيح للضغط وشريط كربون وغير ذلك) . ويطلق على هذه الأجزاء المختلفة التى تتركب منها الآلة ، الاصطلاح (Structure) أى التركيب أو البنيان . ثم بعد ذلك نستطيع أن ننظر إلى الآلة الكاتبة من ناحية أخرى ، ناحية وظيفية . إن كل جزء من أجزاء الآلة يقوم بوظيفة معينة ، تتصل بوظيفة الجزء الآخر ، والأجزاء مجتمعة ترمى إلى تحقيق وظيفة واحدة وهى الكتابة .

وهناك ناحية ثالثة تتصل بالناحيتين السابقتين وهى أنه إذا ما جلس شخص ما لاستعمال الآلة فى كتابة تقرير ، أو فاتورة حساب ، أو قائمة أسماء الخ . . . ، فنحن فى هذه الحالة لا يعنينا تركيب الآلة أو الوظيفة التى تقوم بها ، بل فحوى أو مضمون مادة العمل .

وعلى ضوء هذا المثال المادى ، نستطيع أن ندرس أى موقف اجتماعى ، على أساس أنه يتكون من النواحى الثلاث السابقة . نستطيع أن ننظر إلى أى موقف اجتماعى على أنه تركيبة من مجموعة من الأفراد ، منتظمة بعضها مع بعض فى شكل عام أو فى كلٍّ عام . فالأسرة مثلا هى عبارة عن موقف اجتماعى يتكون من الأب والأم والأخوة والأقارب والخدم ، وكذلك المدرسة هى عبارة عن موقف اجتماعى من نوع آخر ، يتكون من التلاميذ والمدرسين وناظر المدرسة والفراشين وهكذا .

وتؤدى أمثال هذه التركيبات إلى تكوين علاقات وتفاعل بين أفراد كل وحدة اجتماعية أو بينهم و بين المجال الخارجى . وأساس هذا التفاعل

الحركة المستمرة ، إذ هناك نوع من التأثر والتأثير ؛ فكما أن الفرد يتأثر بغيره فهو فى الوقت نفسه يؤثر فى غيره .

ويدور هذا التفاعل بين الأفراد حول موضوعات معينة ، تؤدى فى النهاية إلى تكوين مجموعة من العادات ، والأفكار ، والاتجاهات ، والميول ، والمعايير والأساليب التى توجه الفرد ؛ ففى محيط الأسرة مثلا ، يرى الطفل والديه يتعاملان مع الناس ويعلقان على مجريات الحوادث وعلى الأفراد بطريقة خاصة ، ويعددان أمثلة من الأعمال الطيبة أو الشريرة . وتلك هى المادة التى يقدمها الكبار إلى الصغار ، أو بعبارة أخرى هى المضمون (Content) الناجم عن عملية التفاعل الديناميكى المستمر القائم بين أفراد الوحدة الاجتماعية فى موقف أو عدة مواقف اجتماعية .

العلاقات الاجتماعية وتطورها لدى الطفل :

يقول (برون)[1] إن الطفل ينمو فى إطار اجتماعى يشمل أولا الأسرة والجيران ورفاق اللعب ، وما تلك إلا منظمات أو وحدات اجتماعية أولية (Primary groups) ، تتكون من أفراد قليلين ، ويقوم التفاعل الاجتماعى فيها على الود وعدم الكلفة والإخلاص المتبادل بين الطفل وذويه أو بين الطفل ورفاقه فى اللعب .

وعندما يبلغ الطفل الخامسة أو السادسة من عمره ينتقل إلى نوع آخر من المنظمات الاجتماعية يطلق عليه « المجموعات الثانية » أى (Secondary groups) ؛ وهى عبارة عن بيئات اجتماعية تختلف علاقات الطفل فيها عن تلك العلاقات التى كونها فى بيئته الأولى ، إذ تصطبغ علاقاته هنا بصبغة

(1) F. J. Brown : The sociology of childhood (1939).

غير شخصية ، كما يأخذ سلوكه شكلا محددا ، معه أنواع كثيرة من النشاط كانت مباحة فى بيئته الأولى . ومن بين المجموعات الثانية التى تؤثر فى تكوين الطفل الاجتماعى ، المدرسة والهيئات الدينية ، والنوادى المدرسية ، وجمعيات الكشافة . . . الخ .

ويمكن تلخيص الفرق بين المجموعات الأولى والثانية فيما يلى :

١ — ان الأفراد الذين تتكون منهم المجموعة الأولى تربطهم روابط قوية ، غالبا ما تكون روابط الدم أو القرابة أو الجوار .

٢ — ان عدد أفراد هذه المجموعات صغير بالنسبة للمجموعات الثانية .

٣ — إنه يتكون فى المجموعات الأولى وخاصة فى الأسرة ، العادات والتقاليد والميول والاتجاهات الأولى ، وهذه كلها عوامل أساسية فى تكوين الشخصية . ويطلق (كمبل يونج) على هذه الفترة الاصطلاح (The nursery of personality)[1] .

٤ — ان التفاعل الاجتماعى يحدث فى المجموعات الأولى بطريقة مباشرة ، بعكس التفاعل فى المجموعات الثانية التى تقوم على أساس من التنظيم واللوائح المكتوبة .

والآن وقد عرضنا بشىء من الإجمال لأنواع العلاقات الاجتماعية التى يمر بها الطفل ، نعرض بعض هذه الأنواع بشىء من التفصيل ، ولعل الأسرة والمدرسة من أهم ما يتطلبه هذا العرض المفصل :

---

(1) K. Young : Personality & personnl adjust. P. 126.

الطفل فى الأسرة

الأسرة : معناها ، وتكوينها الإجتماعى :

الأسرة فى وضعها الأساسى عبارة عن وحدة إنتاجية ، بيولوجية ، تقوم على زواج شخصين ؛ و يترتب على ذلك الزواج — عادة — نتاج من الأطفال. وهنا تتحول الأسرة إلى وحدة اجتماعية ، تحدث فيها استجابات الطفل الأولى نتيجة التفاعلات التى تنشأ بينه و بين والديه و إخوته .

إن علاقة الطفل بوالديه و إخوته تنشأ عادة فى محيط الأسرة ، وهذا ما يدعونا إلى القول بأن للأسرة وظيفة اجتماعية هامة ، إذ هى العميل الأول فى صبغ سلوك الطفل صبغة اجتماعية .

وتتكون الأسرة فى حدودها الضيقة من الزوج والزوجة وطفل أو أكثر. و يكون أساس العلاقات التى تربط أفراد الأسرة ، قائما على الصراحة والود بشكل يتيح الفرصة أمام كل فرد من أفرادها أن يعبر عما يريد بحرية . وهذا هو الذى يفرق بين الأسرة كوحدة اجتماعية و بين أى وحدة اجتماعية أخرى

إن الأسرة كمجتمع صغير عبارة عن وحدة حية ، ديناميكية ، لها وظيفة تهدف نحو نمو الطفل نموا اجتماعيا . وسيحقق هذا الهدف بصفة مبدئية عن طريق التفاعل العائلى أى يحدث داخل الأسرة والذى يلعب دورا هاما فى تكوين شخصية الطفل وتوجيه سلوكه .

التفاعل العائلى ، معناه وأهميته :

يقصد بهذا الاصطلاح ، العلاقات التى تتكون بين أعضاء الأسرة والتى يترتب عليها أن يؤثر كل فرد فى الآخر ، بقصد تكوين خبرات جديدة .

وليس هذا التفاعل العائلى إلا ناحية واحدة ذات مجال واحد من مجالات التفاعل الاجتماعى الأخرى التى يتعامل الفرد معها .

ويختلف التفاعل الإجتماعى بمعناه العام عن التفاعل العائلى ، فى أن هذا النوع الأخير من العلاقات الاجتماعية ، يمتاز بخصائص معينة تقوم على أسس من الود والإخاء والحرية والصراحة مع الاستمرار والدوام . وتلك صفات لا نراها بوضوح فى أى علاقات اجتماعية أخرى .

إن الطفل فى هذا الجو العائلى يتعلم كيف يعيش ، وفيه ينمو ، وتتكون شخصيته ، وعاداته ، واتجاهاته ، وميوله . ولكى ينمو الطفل نموا صحيحا يجب أن تتوفر فى هذا الجو الأمور الآتية :

(١) أن يشعر الطفل أنه مرغوب فيه ، محبوب . وتحقيق هذه الحاجات النفسية عن طريق الوالدين والأخوة ، ويعتبر تحقيقها الدعامة الأولى لتقوية الروابط الوجدانية بين الأطفال وذويهم . وإن طفلا يترعرع فى جو من الخوف أو الكراهية أو الإحساس بالإثم ، لخليق أن تنتابه نزعات عدوانية .

(٢) تعتبر الأسرة المسرح الأول الذى ينمى فيه الطفل قدراته . ويكون ذلك عن طريق اللعب ، ومشاركة رفاقه فى لهوهم ، ومسراتهم ، وخبراتهم ، ولا شك أن للتشجيع والمنافسة المشروعة أثرها فى نمو هذه القدرات وتطورها . ويحسن ألا نصدم الطفل بأمور لا يفهمها ، أو يصعب عليه القيام بها حتى لا يدب اليأس إلى نفسه .

والطفل فى السنوات الأولى يميل إلى أن تشعره بذاتيته ، وبأنه فرد يستطيع أن يقوم بأعمال ، ولذلك نراه كثيرا ما يلفت نظر من حوله ليشاهدوا ما يقوم به من أعمال ؛ ويحسن إذ ذاك أن نعلق على هذه الأعمال بكلمات

الاستحسان والتشجيع . فالطفل إذ يقوم بنشاط معين إنما يريد أن يشبع حاجة من حاجاته النفسية ، وأعنى بها الحاجة إلى التقدير . ونستطيع أن نوضح ذلك بمثال ذكره (أدلر) : طفلة فى الثالثة من عمرها كانت تحيك ثوبا لعروستها الصغيرة ، ولم يكن ما تقوم به من عمل يدل على مهارة ، إلا أن أمها علقت على عملها بقولها « إن ما تقومين به يا بنيتى يعتبر بداية حسنة » ، ثم أخذت منها الثوب و بدأت تعدل فيه وترشدها فى الوقت نفسه إلى طريقة صنع الثياب . وعلى العكس من ذلك نجد بعض الأمهات يقمن بسلوك يقتل فى أطفالهن كل ميل أو رغبة فى العمل ، كأن تقول الأم مثلا إذا ما رأت طفلتها تستعمل الإبرة فى عمل فستان لعروستها « حذار إياك أن تجرحى أصبعك بالإبرة . . . ليس هذا العمل من شأن الأطفال الصغار مثلك » .

(٣) يستطيع الطفل فى محيط الأسرة أن يتعلم كيف لا يكون أنانيا ، بمعنى أنه يتعلم كيف يحترم حقوق الغير وكيف يتلاءم مع غيره من أفراد الأسرة ، من والدين وأخوة وأقارب وخدم .

(٤) يتعلم الطفل فى الأسرة المبادئ الأولى التى يسير عليها فى التعامل مع الغير و يكون ذلك عن طريق ملاحظته لسلوكهم واستجاباتهم فى المواقف المختلفة ؛ فهو عن طريق هذه الملاحظة يشاهد أنماطا مختلفة من السلوك : فهنالك من بين أفراد الأسرة من يتكلم كثيرا و يعمل قليلا ، وهنالك من يتوعد إلا أنه لا يعاقب ، وهناك من يقول و يعد إلا أنه لاينفذ وعوده . الخ .

إن الأطفال فى هذه السن المبكرة يكتشفون و يحسون كل ما يدور حولهم ، وتصدر منهم عبارات ساذجة فيها تحليل كامل لسلوك من حولهم من أفراد .

ونستطيع أن نوضح ذلك بحالة طفلة فى الثانية والنصف من عمرها ، كانت تهددها مربيتها بقولها « سأبلغ والدك ما تفعلين ليعاقبك بالضرب » ، فأجابت الطفلة الصغيرة « إن أبى لا يضرب ، وإن كل ما سيفعله عندما تبلغيه أنه سيغضب » .

(٥) يكون بعض الأطفال فى هذه السن المبكرة بعض الاتجاهات بطريقة لاشعورية . ومن هذه الاتجاهات ما يتكون نحو الوالدين ؛ إن الوالد فى نظر بعض الأطفال إنما هو رمز للسلطة . ويقول (فلوجل) فى ذلك : « إن هذه الاتجاهات التى يكونها الأطفال فى صغرهم وما يصاحبها من شعور بالكراهية توجه فى المستقبل نحو المجتمع بصفة عامة ، كما أن الكثير من جرائم الأحداث يرجع فى أصله إلى كراهية الأطفال للسلطة »[1] .

(٦) ويكتسب الطفل — نتيجة تفاعله وخبراته فى الأسرة — مجموعة من العادات ، عادات خاصة بالأكل والملبس والطعام وطريقة المشى والكلام والجلوس ومخاطبة الناس والاستحمام والنوم . . . الخ .

(٧) وللأسرة وظيفة أخرى ، فمن طريقها يتعلم الطفل الكثير من العقائد والمخاوف والأفكار التى تدل على التسامح أو التعصب . فالأفراد الذين يعيشون فى أمريكا فى الوقت الحاضر ، يقبلون دون مناقشة أو امتعاض ، مجموعة التقاليد والأنظمة والاتجاهات التى قد تبدو غريبة بالنسبة إلى شخص ليست له صلة أو دراية بالحياة الأمريكية ، فهناك مثلا لا يباح للرجل الأمريكى أن يتزوج بأكثر من امرأة ، وتقوم المرأة بالاختلاط وبالأعمال المدنية ، كما تشترك فى الحروب ، ويعتبر لحم الخنزير من أطيب أنواع اللحوم ، ويعتقد أن

---

(1) Flugel J. : The psychoanalytic study of the family (1929).

النظام الديمقراطى نظام عادل ، وأنه يجب على الفرد احترام شارات المرور وإلا تعرض للخطر والهلاك ، وأن عليه أن يحترم علم بلاده ، وأن يقف فى خشوع عند سماع نشيد الدولة .

اتجاهات الوالدين نحو الوالدية :

لا شك أن اتجاهات الوالدين نحو الوالدية نفسها (Parenthood) ، له أثر كبير على نمو الأطفال الاجتماعى ، وتأخذ تلك الاتجاهات صورا وأشكالا متنوعة :

(ا) قد يكون اتجاه الوالدين أو أحدهما نحو الوالدية على أنها مسئولية لا طاقة لهما باحتمالها . ويظهر هذا الاتجاه بوضوح عند ميلاد الطفل الأول . ويحدث فى بعض الحالات أن يعبر الوالدين عن الوالدية بأن فيها تقييدا وإحباطا للتعبير عن الكثير من رغباتهما ، ويكون ذلك عادة مصاحبا للزواج غير الناجح .

إن مجىء الطفل الأول فى هذه الحالات ينظر إليه الزوجين على أنه ربط لعلاقة لا تزال تحت التجربة والاختبار ، وأنه لم يحن الوقت الذى يرتبط فيه الزوجان برباط خالط الدماء ، ويحدث ذلك كثيرا فى حالات الزواج بالأجنبيات وتنعكس آثار الاتجاهات السابقة على الأطفال أنفسهم ، إذ تلاحظ أن والديهم يعاملانهم معاملة تقوم على عدم التقدير والإهمال .

(ب) وهناك نوع آخر من اتجاهات الوالدين نحو الوالدية يأخذ المظهر التالى :

قد يحدث بعد ميلاد الطفل الأول أن يصبح الطفل فى نظر أحد الوالدين — وخاصة الأم — عبارة عن مركز انتباهها ، وهو إذ ذاك يكون

أشبه ما يكون بالكوكب الذى تحيطه بكل اهتمامها ، وهكذا تتحول حياتها العائلية وحبها ، من الزوج إلى الطفل ، وهنا تدب الغيرة فى نفس الأب ، ويبدأ النزاع بين الزوجين على أساس الزوجة تهمل واجبات الزوج .

وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يلعب الأب ذلك الدور ، فيهمل الأم وتفتر العلاقة بينهما لأن الأب حول حبه نحو طفلة .

ويحدث فى حالات أخرى أن يشعر الاثنان نفس الشعور ، فتجدهما لا يتحدثان إلا عن الطفل ولا يفكران إلا فيه وفى تجنب ما يضايقه ؛ فتجد العلاقات بين الزوجين فى هذه الحالة يسودها الاحترام الزائد ، حيث نجد الزوج يلقب زوجته (ماما) والزوجة تلقب زوجها (بابا) . إن مثل هذه الطريقة فى النظرة إلى الطفل من قبل الوالدين تؤثر فى طريقة معاملتهما له ، وفى نظرتهما لسلوكه فيعدلانه على حسب مالديهما من اتجاهات غير مألوفة.

(ح) أما المظهر الثالث لاتجاهات الوالدين نحو الوالدية فيأخذ الشكل التالى : نجد بعض الآباء يفخرون بأنهم أزواج وآباء لأطفال ، ويجدون فى صفة الزوجية أو الوالدية مزايا كثيرة ومناعة من العبث والمروق . وهناك على العكس من ذلك من يعتقد من الأمهات والآباء أن الحياة الزوجية والوالدية حالت بينهم وبين القيام بأوجه من النشاط الاجتماعى الخارجى ، إذ أن هذه الحياة أصبحت عقبة كئودا فى سبيل حرياتهم . وأستطيع أن أوضح هذه الناحية بمثل ذلك الأب الذى كان يعمل فى إحدى حجرات حفظ الملابس فى مسرح من المسارح المشهورة ، والذى كان ينبه على ابنته البالغة من العمر ثمانى سنوات بألا تناديه « يا والدى » عندما يكون فى مجمع من السيدات . أو مثل تلك السيدة ، التى تقدمت فى السن والتى كانت تحتج على من يناديها بلفظ «تيزه» . إن مثل هذا الأب ومثل تلك السيدة ، لا شك أنهم يأنفون من أن يكونوا

آباء أو أمهات ، وهم يفضلون أن يعيشوا فى خيال شاب أو فتات ، عيشة طليقة خالية من المسؤوليات والالتزامات أمام الأبناء .

اتجاهات الوالدين نحو الأطفال :

وكما أن اتجاهات الوالدين نحو الوالدية تؤثر فى معاملتهم لأطفالهم ، فإن اتجاهاتهم نحو أطفالهم لها أثر واضح فى نموهم وتكوين شخصياتهم .

إن معاملة الوالدين لأطفالهم تتأثر — إلى حد كبير — بما خبروه من تجارب أيام أن كانوا أطفالا ، فهم إلى حد كبير يعكسون ما لاقوه من معاملة أيام صباهم ، أو يحاولون تجنيب أطفالهم ما لم يكن يروق لهم من سلوك آبائهم وأمهاتهم . إن هناك فئة من الآباء تعيد مع أطفالهم نوع المعاملة التى كانوا يعاملون بها أثناء طفولتهم ، وهناك فئة أخرى تجنب أطفالها كل ما كان يؤلمهم من معاملة تلقوها ؛ وهناك من الأمهات من يغدقن على أطفالهن ، لأنهن قد حرمن من عطف آبائهن ، وكذلك الأم المحرومة من عطف زوجها ، نجدها تغدق من عطفها على ابنها الذكر . والأب الماجن المستهتر نجده ينظر إلى تصرفات بناته بشىء من الريبة ، والأب الذى نشأ وتربى مغلوبا على أمره ، منطويا على نفسه ، خاضعا ، لا حول له ولا قوة ، نجده يحاول أن يعبر عن كل ما حُرم منه أثناء طفولته بوسائل وأشكال متنوعة من القسوة ، والاستبداد ، وإظهار السلطة فى محيط عمله (إذا كان صاحب عمل مسئولا عنه) ومحيط أسرته إذا كان متزوجا . إن مثل هذا الأب يؤمن بأهمية النظام والطاعة . أما إذا كان هذا الشخص ليس صاحب عمل موكول له الإشراف عليه ، أو غير متزوج ، أى أنه يلعب فى الحياة دور التابع أو المرءوس ، فنجده وأمثاله ميالين إلى إثارة الشغب أو الثورة ضد السلطة .

العلاقات بين الخلطاء فى الأسرة :

إن أطفال الأسرة الواحدة يؤثر بعضهم فى بعض تأثيرا له مميزاته وخصائصه ، وهذا التأثير يختلف عما يحدثه الكبار منهم .

إن أطفال الأسرة الواحدة يلعبون معا ويعملون معا ويقضون معا وقتا أطول من الوقت الذى يقضونه مع الكبار وبالإضافة إلى ذلك فإنه تقوم بينهم علاقات تنطوى على المودة والألفة ، فهم يأكلون معا ويستحمون معا ، وينامون فى حجرة واحدة ، ويلعبون بلعب مشتركة . هذا وتسود كل هذه العلاقات الصراحة التامة التى لا تجدها بين الكبار . وتشبه العلاقات التى تنشأ بين الصغار بالعلاقات التى تتكون فى إحدى نوداى العراة ، فهى خالية من الكلفة والتصنع والتقاليد والرسميات .

إن حياة طفل فى أسرة بها أطفال آخرون يؤثر تأثيراً فعالا فى نموه ، يُحرم منه الطفل الذى يعيش فى أسرة لا يوجد بها أطفال . فالطفل الذى له خلطاء يعيش فى عالم من الحقيقة ، بعكس الطفل الذى يعيش بمفرده فى أسرة ، فإنه يعيش فى عالم غير طبيعى ، خيالى خلو من الزملاء والرفاق

إن الطفل الذى يجد نفسه بين عدد من الخلطاء يجد منفذاً لإشباع حاجاته الكثيرة التى لا يستطيع تحقيقها بين الكبار ، لأنه بين الصغار يكون على قدم المساواة ، فتزول بينه وبينهم الحواجز التى تمنعه من إظهار نفسه على سجيتها. وهناك ميزة أخرى تترتب على وجود خلطاء أو شركاء فى الأسرة ، وذلك أن العلاقات التى تتكون بينهم تساعد على إثارة ميول الأطفال ، كما أن تلك العلاقات من شأنها تعليم الطفل كيف يحترم حقوق الغير ، ويكون ذلك عن طريق الحد من مطالبه التى تتعارض مع مطالب غيره .

إن مجال التفاهم بين الأطفال أسرع وأسهل منه بين الأطفال والـكبار ؛ فالطفل الـكبير بين أطفال صغار يكون معلما وموجها ، ذا أثر فعال فى تكوين الطفل الصغير ، ويفوق تأثيره وتوجيهه تأثير وتوجيه الـكبار كالوالدين مثلا ، ذلك لأن الأطفال يفهمون بعضهم بعضا فى شىء من اليسر ، كما أن هناك عوامل مشتركة تربطهم ، تقوم على أساس أن مشكلاتهم واحدة ، وميولهم واحدة ، ولغتهم واحدة وتجاربهم من نوع واحد أو تكاد تكون متقاربة .

إن وجود أكثر من طفل فى الأسرة يجلب السرور إلى نفوس هؤلاء الأطفال لأن كلا منهم يشعر أن له زميلا يتحدث إليه بطريقته الخاصة ، حول موضوعات تتناسب مع خبراتهم ومدى تفكيرهم . إن هذا النوع من الزمالة يجعل الطفل يشعر بأنه ليس فريدا أو منعزلا ، بل على العكس من ذلك يشعره أنه عضو فى مجتمع من سنه . كل هذا يشعر الطفل بالأمن والطمأنينة نتيجة انتمائه إلى جماعة من سنه . ولا شك أن مثل هذا العامل يساعد على تكوين الأسس العامة للصحة العقلية .

العوامل التى تحدد مساعدة الأطفال بعضهم لبعض فى الأسرة :

هناك بعض العوامل التى تحدد نوع مساعدة الطفل لخلطائه ومداها ، منها :

أولا : طبيعة الطفل نفسه :

يختلف الأطفال بعضهم عن بعض من حيث استعداداتهم الموروثة التى تتضمن قدراتهم العقلية ، وصفاتهم الانفعالية ، والمزاجية ، وتكوينهم الجثمانى . إن مثل هذا الاختلاف فى السمات الأساسية لتكوين الشخصية ، يدعونا إلى القول بأن كل طفل يعتبر شخصا مستقلا متميزا عن غيره ، إنه يستجيب بطريقة خاصة لما يتعرض له من مثيرات فى حياته . ولا شك أن الصفات التى

تميز طفلا عن الآخر لها أثرها فى تحديد وفهم علاقته مع خلطائه ومدى قدرته على الاستجابة لهم .

ثانيا : طبيعة البيئة المنزلية :

إن نظام المنزل والترتيبات العائلية لداخلية تؤثر بطريق آخر على العلاقات بين الخلطاء ؛ فقد يحدث أن تكون التنظيمات الداخلية من اليسر بشكل لا يسمح بإثارة أسباب النزاع بين الأطفال ، كأن يكون لكل طفل حجرته الخاصة وسريره الخاص ولعبه الخاصة . وقد يحدث — على العكس من ذلك — أن تحتم حالة الأسرة الاقتصادية اشتراك أربعة من الإخوة فى حجرة واحدة ، وحتى على سرير واحد : فمثل هذا الموقف كفيل بأن يثير الشجار بين الخلطاء ويجعل العلاقات بينهم صعبة ؛ كما يحدث أن يشترك نتيجة إزدحام المنزل إخوة مختلفون فى الجنس ، أو قد يحدث بسبب ذلك الازدحام اشتراك الوالدين أو الأقارب الكبار فى حجرة نوم واحدة . ويترتب على ذلك فى حالات معينة ، بعض الأضرار وخاصة فى النواحى الجنسية . ودليلنا على ذلك ما تعرض له طفل فى التاسعة من عمره ، أن يمارس العلاقات الجنسية مع عمته التى كانت تشاركه حجرة نومه ، وترتب عن ذلك أن الطفل كان يشعر بالذنب عندما كانت تجبره عمته على ذلك ؛ وفى حالة ثانية يُروى عن عم أنه كان يرتكب الفحشاء مع ابنة أخيه البالغة من العمر ١٤ سنة .

ثالثا : اختلاف الجنس :

فى السنوات الأولى من حياة الطفل نجد أن ميول الذكور والإناث منهم مشتركة ، بدرجة تجعلهم غير متنافرين . وعندما يتقدم بهم السن قليلا ، نلاحظ مظاهر الفرقة بينهم ، وهذه الفرقة تأخذ المظاهر الآتية :

(١) شعور الصبي بالسيطرة على البنت لأنه ذكر . وهنا تشعر البنت بالحقد على الذكر ، وفى الوقت نفسه تأخذ فى الشعور بأنها أقل منه منزلة .

(٢) يخلق الوالدين فى الأسرة معايير خاصة بالصبي تختلف عن معايير البنت ؛ فما يقوم به الصبي من السلوك ، قد ترفضه الأسرة إذا قامت به البنت ، وهنا يمنح الأولاد الذكور من الحقوق والامتيازات ما يحرم على البنت إن هذه التفرقة فى المعاملة بين الصبي والصبية تؤثر فى علاقة كل منهما مع الآخر ، مما يؤدى إلى إشعال نيران الغيرة فى نفوس البنات نحو إخوتهم الذكور .

رابعا : ترتيب الإخوة على حسب الميلاد :

إن هذا عامل آخر مهم يؤثر فى علاقة الطفل بإخوته ، كما يؤثر فى علاقة الوالدين نحو أبنائهم ؛ فمركز الطفل الأول فى نظر الوالدين غير ثابت ، بمعنى أنه يعامل معاملة — وهو وحيد — تختلف عن معاملته إذا ما ولد له أخ آخر ، ونستطيع أن نوضح ذلك بما يلى :

إن للطفل الأول مركز خاص فى الأسرة ، فهو عند ما يولد يكون موضع الرعاية والاهتمام لأنه الطفل الوحيد ؛ كما أنه نظرا لأنه الطفل الوحيد فى الأسرة فإن علاقاته تكون مع الكبار مباشرة ، وذلك لعدم وجود إخوة له ، ودائما ما يكون سلوك الكبار نحوه قائما على التسامح .

وعندما تنجب الأسرة طفلا آخر ، نلاحظ أن ميلاد الطفل الجديد يسبب أزمة له ؛ فقبل مجيء هذا الطفل ، كان هو « الملك أو الملكة المتوجة فى الأسرة » ، وفجأة يجد نفسه قد عُزل عن عرشه ، وتحول عطف واهتمام الوالدين به إلى الأخ الثانى أو الأخت الثانية ، ويترتب على ذلك عادة أن

يصاب الطفل الأول، نتيجة لهذا التغير فى المعاملة، بعرض أو أكثر من الأعراض الآتية: مخاوف أثناء النوم، وثورات انفعالية (temper - tantrums) وأحلام مزعجة وقلق أثناء النوم، وتوسيخ نفسه انتقاما من والديه، و بكاء مستمر وتبول لا إرادى ولجلجة فى الكلام وقضم للأظافر، وقىء وانزواء وصعوبات خاصة بالأكل . . . الخ .

وكما أن ميلاد الطفل الثانى يؤثر فى التكوين النفسى للطفل الأول، ففى الوقت نفسه، نلاحظ أن وجود الطفل الأول فى الأسرة يؤثر فى الطفل الثانى وخاصة إذا كان الفارق بينهما فى السن ملحوظا؛ فعندما ينمو الطفل الثانى و يترعرع و يدرك ماحوله، لا يجد الوالدين من حوله فحسب، بل يجد كذلك فى الميدان أخاه الأكبر الذى سبقه فى الميلاد والذى يفوقه قوة و يكبر عنه جسما ووزنا . و كلما ازداد إدراك الطفل الثانى، يلاحظ أنه أصبح فى مرتبة ثانوية فى المعاملة، تتضح له من الأمور الآتية: تعطى له اللعب القديمة بعد أن يكون أخاه قد استلمها جديدة واستعملها، وتعطى له كذلك ملابس أخيه القديمة بعد أن تصبح غير صالحة للاستعمال إلا قليلا . والذى يزيد الطين بلة، ميلاد طفل ثالث فى الأسرة، يصبح موضع رعاية جديدة من الوالدين، فيقل تبعا لذلك مقدار الرعاية التى كانت موجهة إليه؛ وهنا يأخذ الطفل الثانى ترتيبا جديدا بين الإخوة، يصبح طفلا أوسط (in-between-child) إن مركز الطفل الأوسط لا يحسد عليه، إذ أنه يكون مهاجما من الأمام (عن طريق الأخ الأكبر) ومن الخلف (عن طريق الأخ الصغير) إلا أنه على الرغم من ذلك يلاحظ أن الأخ الأوسط يتطلع إلى أخيه الأكبر و يحاول التشبه به ومنافسته كلما سنحت له الفرصة، وإذا تعذر عليه ذلك، يلجأ إلى نقده والحقد عليه ومحاولة الإيقاع بينه و بين والديه .

أما مركز الطفل الأخير (last child) فى الأسرة فتحدده العوامل الآتية: نجد أولا اختلافا فى معاملة الوالدين له عن بقية الإخوة والأخوات ، وميلا لإطالة مدة طفولته ، لأن الوالدين حينئذ يكونان غالبا قد تقدم بهما السن وأصبح أملهما فى إنجاب أطفال جدد محدودا ؛ ويمكن اعتبار ذلك نوعا من النكوص نحو أيام الشباب . ونلاحظ بالإضافة إلى ما سبق أن يكون مركز العائلة الإقتصادى والمالى فى ذلك الوقت فى حالة من الاستقرار ، وهنا تتاح لهذا الطفل فرص للتعليم والثقافة أوسع من الطفل الأول مثلا .

ونستطيع أن نضيف إلى ما سبق أن الطفل الأخير يكون له من الإخوة الكبار من يأخذ بيده ويوجهه وييسر له الحياة ، وقد يحدث أن يعطف عليه هؤلاء الإخوة الكبار ، إذا كانوا قد حرموا من عطف آبائهم ، ويكون عطفهم فى هذه الحالة بمثابة نوع من التعويض ؛ ويحدث كذلك فى بعض الحالات الخاصة ، أن يعتبر الطفل الأخير أخاه الأكبر كأب بديل ، ويكون ذلك عادة عند ما يأتى الطفل الأخير فى وقت يكون فيه الأب قد تقدم فى السن وتعرض للمرض ، وأصبح غير قادر على القيام بما يحتاجه الأطفال من عطف وحنان ؛ فإذا تعذر على الطفل الحصول على ذلك العطف أو المشاركة الوجدانية من والديه اتجه إلى أخيه الأكبر ، لعله يعطيه ما هو فى حاجة إليه .

وفى بعض الحالات نجد أن الطفل الأخير يكون موضع رعاية خاصة وتدليل من الوالدين أو من أحدهما ، وهنا تدب نار الغيرة والحقد فى نفوس إخوته ، كما يتهمون الوالدين بالتراخى فى تربية الطفل . وتذكرنا أمثال هذه الحالات بقصة سيدنا يوسف وما تعرض له من إيذاء نتيجة كره إخوته له لإيثار والديه له بالعطف الزائد .

إلى هنا نكون قد استعرضنا كيف يؤثر ترتيب الطفل بين إخوته فى نظرة والديه إليه ، وكيف تتغير تلك النظرة من حيث المعاملة ومقدار العطف على حسب مركزه فى سلم الإخوة ، وكذلك على حسب حالة الأسرة الاقتصادية وعمر الوالدين ، وما يصاحب ذلك من فتور فى النواحى الانفعالية واضمحلال فى النواحى الجسمانية ، ولأجل أن تكون الصورة كاملة ، يجدر بنا أن نشير إلى مركز الطفل الوحيد (only child) فى الأسرة :

الطفل الوحيد :

يحدث أحيانا أن يكون فى الأسرة طفل وحيد . إن دراسة سلوك الطفل الوحيد يلقى ضوءا على مقدار ما يكتسبه الطفل الذى يعيش فى أسرة فيها قرناء له ، وعن طريق المقارنة يتبين الدور الذى يقوم به التفاعل بين الإخوة والأخوات فى تكوين شخصية الأطفال وفى نموهم ؛ وفى الوقت نفسه ستتضح المشكلات التى تنجم عن وجود طفل بمفرده فى محيط الأسرة .

ولقد اتفق الباحثون على أن الطفل الوحيد يعتبر طفلا مشكلا فى ناحية أو أكثر . ونستطيع أن نلخص هنا أهم المشكلات المترتبة عن ذلك فيما يلى :

(١) أن يكون الطفل ذاتى المركز (egocentric) ، عنيدا ، صعبا .

(٢) أن يكون حساسا ، ميالا إلى العزلة ، مترددا ، كثير الاعتماد على والديه .

وأحب أن أشير ونحن فى هذا الصدد إلى أهم الأبحاث التى أجريت على الطفل الوحيد :

(أولا) أبحاث (بوهانن Bohannon) التى أجريت على ٤٨١ طفلا ، إن أهم ما توصل إليه (بوهانن) بعد هذه الدراسات الطويلة ينحصر فيما يلى :

غالبية هذه المجموعة من الأطفال كانت أقل من المتوسط فى الحيوية وفى الناحية الصحية ؛ كما أنهم كانوا يعانون الكثير من الأمراض النفسية . وبالإضافة إلى ذلك كانوا يلتحقون بالمدارس فى سن متأخرة ، وكانوا غير مواظبين على الحضور ، وقدرتهم على التحصيل المدرسى أقل من المستوى العادى . هذا وقد كانوا فى جملتهم أنانيين ، غير ميالين إلى الاختلاط أو العمل مع الجماعة .

(ثانيا) أبحاث (نيل)[1] وقد أيدت هذه الأبحاث ما وصل إليه (بوهانن) من نتائج ، إلا أنها أضافت أن الطفل الوحيد يكون غيورا ، ميالا إلى الاعتداء والمشاجرة والسيطرة .

(ثالثا) أبحاث (فنتن)[2] وقد أجريت على عدد من الأطفال غير منتقين من تلاميذ المرحلة الأولى ، بعضهم وحيدون والبعض الآخر لهم أخوة . وكانت طريقته تعتمد على سؤال المدرسين والتلاميذ أنفسهم عن طريق (استخبار) وضع خصيصا لدراسة بعض نواحى النمو ، وما يصحب ذلك من اتجاهات وجدانية واجتماعية . ولقد اتضح من دراسات (فنتن) أن هناك خصائص مشتركة بين عدد كبير من أفراد الطائفتين ، هى : عدم الطاعة ، وعدم الاختلاط ، وعدم الرغبة فى أن يكونوا قادة ، والميل إلى الاعتداء . إلا أن هذه الصفات تظهر بوضوح فى حالة الأطفال الوحيدين . ومعنى هذا أن الاختلاف بين الطائفتين ، إنما هو اختلاف فى الكم وليس فى النوع .

إن النتيجة التى توصل إليها (فنتن) لا تتفق مع نتائج الأبحاث السابقة

---

(1) Eva Neil : The only child (1927).
(2) N. Fenton : The only child (1028)

التى تؤكد أن الطفل الوحيد له خصائص واتجاهات تميزه عن غيره من الأطفال الذين نشأوا فى أسرة فيها أطفال .

ونحن ميالون إلى الأخذ برأى (فنتن) ، وفى الوقت نفسه نميل إلى موافقة (نيل) و (بوهانن) فيما قالاه عن الطفل الوحيد ، ولـكن بشروط خاصة . فلأجل أن تحدث الانحرافات التى أشارا إليها ، يجب أن يحدث ما يأتى :

(١) ألا تتاح للطفــل الوحيد فرصة للاختلاط بغيره من الأطفال فى محيطه ، سواء أكان ذلك الاختلاط فى الأسرة نفسها أو فى محيط الأسرة .

(٢) أن يحاط نمو الطفل الانفعالى بسـياج يحول بينه و بين النمو الطبيعى ؛ أو على حسب علماء التحليل النفسى ، يحدث التثبيت عند مرحلة من مراحل النمو الجنسى ، وخاصة فى المرحلة الأوديبية .

(٣) أن يكون الوالدان مضطربى البال ، قلقين مهتمين أكثر من اللازم بالطفل . ويحدث ذلك فى حالات الخلفــة فى الزواج المتأخر ، أو فى حالات الخلفة بعد سنوات من العقم ، مع احتمال ألا يولد طفل آخر . ويترتب على ذلك اهتمام زائد بالطفـل و بصحبته والتدخل فى كل صغيرة وكبيرة تصدر عنه .

الطفل فى المدرسة

تمهيـــــد :

إلى عهد قريب كان ينظر إلى المدرسة على أنها مكان للدراسة وتلقين المعلومات ، وعرض المشكلات الخاصة بالمنهاج ، والبحث عن أنجع الوسائل لنقل مواد الدراسة المختلفة من عقول المدرسين إلى الأطفال . إلا أنه فى السنوات الأخيرة اتضح للمشتغلين بتربية النشء أن للمدرسة وظيفة اجتماعية لا تقل فى أهميتها عن الوظيفة الثقافية السابقة ؛ فالمدرسة فى نظر هؤلاء عبارة عن وحدة اجتماعية ، شأنها فى ذلك شأن الأسرة ، وهى تساهم عن طريق ما تخلقه من مواقف اجتماعية متنوعة فى بناء شخصية الفرد الاجتماعية ، إذ بواساطتها يتعلم الطفل كيف يعيش ويتعامل مع الآخرين على مستوى غير مستوى الأسرة ، وفيها يتعلم كيف يقوم بأعمال معينة ، وكيف يتنافس مع الآخرين أو يتعاون معهم ، وكيف يكوّن اتجاهات جديدة ، وكيف ينجح وكيف يفشل . . وما تلك إلا وسائل تعد له العدة ليتعلم كيف يتفاعل مع العالم الخارجى عندما يخرج إليه .

وعلى هذا الأساس أخذ المحدثون من رجال التربية ينظرون إلى المدرسة على أنها مركز اجتماعى هام ، هى عبارة عن مدينة داخل مدينة ، يقضى فيها الطفل ساعات طويلة من حياته اليومية ، يكتسب فيها خبرات اجتماعية تساعده على أن يتلاءم مع المجتمع الكبير .

ويخطىء من يعتقد أن المدرسة عبارة عن حجرات للدراسة لتلقى العلم ، إذ بجانب ذلك ، هناك أوجه عدة للنشاط الاجتماعى ، تمكن الأطفال من اكتساب المعايير الاجتماعية المختلفة ، فعن طريق نظام الأسرة فى المدرسة

والمعسكرات والأندية المدرسية والاجتماعات والرحلات يتعلم الطفل الكثير من الأسس والعادات الاجتماعية .

بعض المشكلات التي يتعرض لها الطفل عند التحاقه بالمدرسة :

يتعرض الطفل أحياناً لبعض المواقف الاجتماعية التي تسبب له صعوبات من نوع آخر . وهذه الصعوبات من شأنها مضايقته وشعوره بعدم السعادة فترة من الزمن ، إلا أنه سرعان ما يعوّد نفسه التغلب على هذه الصعوبات ليتمكن من التلاؤم مع المجموعة التي ينتمي إليها ، إذ يتعذر عليه من غير هذه الملاءمة مواصلة الدراسة .

ولا شك أن هذه الملاءمة الجديدة تكسبه خبرة تساعده على الحياة خارج جدران المدرسة .

ومن بين المشكلات التي يصادفها الطفل عند التحاقه بالمدرسة ما يلي :

(١) يشعر الطفل عند التحاقه بالمدرسة لأول مرة أو عند انتقاله إلى مدرسة جديدة ، أنه شخص منعزل ، غير معروف . وتنظر الأطفال إليه نظرة تدل على الدهشة والاستفسار ، وتحيطه هذه النظرات أينما تحرك ، وهو لذلك يشعر بالحرج وعدم السعادة ، وبالرغبة في الهروب من الموقف ، فمركزه وسط المجموعة الجديدة يشعره بأنه مهدد .

وقد يترتب على هذه النظرات والاستفهامات المتبادلة بين الطفل الجديد وقرنائه في المدرسة ، منازعات تأخذ شكل شجار ، أو تبادل ألفاظ نابية .

وفي أغلب الأحيان يقوم الطفل الجديد بتلك الاستجابات العدوانية ليثبت وجوده وسط الجماعة الجديدة . فإذا كان لديه من الوسائل الجسمية أو المادية ما تجعله يفوز بالغلبة ، ثبت مركزه وسط الجماعة دون أن يكون هدفاً للنقد أو التجريح .

أما إذا كان ضعيفا ، لا حول له ولا قوة ، غُلب على أمره ، وهو بين هذا وذاك يفضل ، إما الانطواء على نفسه أو السير فى الركب تابعا لا حول له ولا قوة .

(٢) ولما كانت المدارس وخاصة مدارس المرحلة الأولى وتتضمن مجموعات متفاوتة من أبناء الشعب ، منهم من أتى من أسر فقيرة ، ومنهم أبناء الأسر الغنية ذات التقاليد والألقاب ، فلا شك أن اختلاط أبناء الطبقتين يعرض أبناء الطبقة الأخيرة لبعض الصعوبات التى تحول بينهم و بين الاندماج مع الأفراد الآخرين . وقد يحدث أن يحاول هؤلاء الأطفال الاندماج مع غيرهم ممن هم دون مستواهم الاجتماعى ، إلا أنهم يجدون صعوبة من أسرتهم التى تحذرهم دائما من الاختلاط بهم أو دعوتهم إلى المنزل أو الاشتراك معهم فى ألعابهم .

(٣) وهناك مشكلة ثالثة يتعرض إليها بعض الأطفال عند التحاقهم بالمدرسة ، وأقصد بذلك تلك الفئة من الأطفال الذين تربوا تربية خاصة ، تربية تقوم على الحماية والرعاية البالغة . إن أمثال هؤلاء الأطفال يكونون فى العادة ذوى نعومة ورقة وحساسية شديدة ، لذلك تجدهم لا يقوون على المقاومة والتنافس فى المدرسة أو رد العدوان أو حماية أنفسهم مما يقع عليهم من إيذاء . ويتميز سلوك هؤلاء الأطفال — بالإضافة إلى ما سبق — بأنهم ينتحلون المعاذير كثيرا و يظهرون من الضجر والتأفف وعدم الرضا (fastdious) لكل شىء حولهم ، فتجدهم يشتكون من دورات المياه بالمدرسة ، ومن وسائل الشرب ومن مواعيد تقديم الطعام ، كما يرفضون خلع ملابسهم أثناء دروس النشاط . . . الخ .

(٤) وهناك بعض العوامل الأخرى التى لا تظهر فى بيئتنا المصرية ،

إلا أنها تكون واضحة فى البيئات الأجنبية ، ففى المدارس الأمريكية مثلا ، هناك مشكلة الأطفال الملونين ، والأطفال المهاجرين ، والأطفال ذوى الأديان غير المنتشرة . إن كل هذه العوامل تؤثر على الطفل عند التحاقه بالمدرسة ، فالطفل الأسود فى مجموعة من الأطفال البيض ، لا يشعر بالسعادة ، والطفل المهاجر من القارة الأوروبية إلى أمريكا ، تحول مشكلة اللغة بينه و بين التفاهم والتعبير عن مطالبه فى المدرسة ، والطفل اليهودى فى بيئة مسيحية يكون هدفا للنقد والسخرية عندما يمارس بعض عاداته أو تقاليده التى تتصل بالأكل مثلا[1] .

المدرس والمدرسة

يُكون مدرسو المدرسة جزءا صغيرا من البيئة المدرسية ؛ وهذا الجزء رغم صغره ، إلا أنه ذا أثر كبير فى سلوك التلاميذ الاجتماعى .

وتقع على عاتق مدرسى المدرسة مهام ومسئوليات جسام ، فهم الذين ينظمون العمل المدرسى و يقومون بالإشراف على تنفيذه ، و بالإضافة إلى ذلك فهم يلعبون دورا هاما فى الحياة الاجتماعية المدرسية .

فغالبا ما تتكون علاقات شخصية بين المدرسين كأفراد و بين الأطفال ، وهنا لا تقتصر مسئولية المدرس على الناحية العلمية للطفل ، بل تتعدى ذلك إلى تكوينه تكوينا إجتماعيا ، وهو إذ يفعل ذلك يكون موقفه من الطفل ، كموقف المنظم والناصح والصديق .

و يتوقف نجاح هذه الناحية الأخيرة على عوامل متعددة يجب توفرها فى المدرس نفسه ، وهى :

---

(1) James Bossard : The sociology of child development (1948).

(١) عمر المدرس :

ولا يقصد بذلك العامل عمر المدرس الزمنى فحسب ، بل ما يصحبه من نضج عقلى ، واجتماعى ، وما يترتب على ذلك من توازن إنفعالى وتماسك فى شخصيته واتجاهاته نحو الأطفال ، وكلما توفرت هذه الصفات فى المدرس صغير السن ، كان ذلك عاملا مساعدا على سرعة الاستجابة بينه وبين الأطفال .

فصغر السن اذن يعتبر عاملا من بين العوامل التى تساعد المدرس على فهم مشكلات تلاميذه وعلى مشاركتهم فى أوجه نشاطهم ، وكل هذه أمور تساعده على أن يصبح صديقا لهم ، فتزول بذلك الفجوة بين المدرس والطفل إلا أن التمادى فى إنشاء صداقات بين المدرس والأطفال ، من شأنه أن يفقد المدرس صفة مهمة من صفات المدرس يجب أن يشعر بها التلاميذ ، وأعنى بها أن يكون موضع احترام وتقدير منهم .

أما فى حالة المدرسين كبار السن فإنه يتعذر عليهم دائما وضع أنفسهم محل تلاميذهم ، وهم دائما ميالون إلى التعالى والسمو عن الأطفال ، والبعد عن مطامعهم وميولهم . إن الطفل يعتبر المدرس المتقدم فى السن بديلا لوالده ، ومن ثم يتعذر عليه أن يزيل عوامل الكلفة التى تنشأ عادة بين الطفل ووالديه . وكلما كان فارق السن كبيرا بين المدرس وتلاميذه ، كانت آثاره منهم محدودة . أو بعبارة أخرى معدومة .

(٢) جنس المدرس :

وكما أن عمر المدرس يكون ذا أثر فى توجيه التلاميذ ومدى تفاعلهم معه ، كذلك جنس المدرس ، من حيث انه ذكر أو أنثى . يلعب دورا هاماً فى تكوين شخصيات التلاميذ والتلميذات . وهنا تبرز هذه الأسئلة التى لها علاقة

بالمشكلة التى نحن بصددها : هل هناك علاقة بين جنس القائمين بالتدريس ومرحلة التعليم ؟ وهل تكون المدرسة أكثر أثرا فى مراحل التعليم الأولى ؟ وما نوع العلاقات التى تتكون بين المدرس والطفل عند اختلاف الجنس بينهما ؟ وما هى فكرة المدرس والمدرسة عن المشكلات الخاصة بالتنظيم المدرسى ؟ وسنوضح الإجابة على الأسئلة السابقة فيما يلى :

تجد المدرسات صعوبة كبيرة تتصل بالنظام ، ذلك أن الطفل فى المرحلة الأولى من التعليم ينظر إلى المدرسة نظرته إلى أمه ؛ إن الأم فى نظر كل طفل عبارة عن مخلوق يُحَب ، ولكن ليس من الضرورى أن يطاع ، بعكس الأب فالنظرة إليه أساسها الطاعة والرهبة ؛ وبناء على ذلك يشعر الطفل ببعض التراخى إن طُلِب منه أن يتعود النظام ، وذلك إذا كانت التى تشرف على تعليمه مدرّسة . ويتضح ذلك بجلاء فى الشعوب الشرقية وكذلك فى الشعوب التى تسكن حوض البحر الأبيض كإيطاليا مثلا .

ثم إن هناك ظاهرة أخرى تحدث نتيجة أن يقوم بالتدريس بالمدرسة معلمات للذكور أو معلمون للاناث ، وهى قيام نوع من الوفاق أو الوئام (rapport) بين التلميذ والمدرسة ، والتلميذة والمدرس . وغالبا ما تكون أضرار هذا الوئام أكثر من فوائده ، فكثيرا ما يؤدى هذا الوئام إلى نوع من التعاطف بين الطرفين يخفيه كل منهما عن الآخر ، أو يحاول إظهاره فى أشكال مرضِية ، كأن يبدو قاسيا رغما منه . وفى حالات أخرى فإنه يؤدى إلى نوع من الجنسية المثلية الضارة التى تُودى بمستقبل المدرس أو المدرّسة ؛ وأحيانا أخرى يؤدى إلى نوع من المحاباة يؤثر على سير النظام فى الفصل أو يؤجج نيران الغيرة والشقاق بين تلاميذ الفرقة الواحدة .

(٣) الحالة الاجتماعية للمدرس :

هذا عامل ثالث يؤثر على توجيه سلوك الأطفال وتكوين شخصياتهم ، أن هناك من الباحثين من يعتقد أن المدرس الأعزب يحاول إعلاء دوافعه الجنسية عن طريق توجيه الطاقة المكبوتة نحو العناية بعمله وبذله كل مجهود فى سبيل تقدم التلاميذعن طريق التجنيد فى وسائل النهوض بهم ورفع مستواهم الثقافى والاجتماعى .

وعلى العكس من ذلك ، نجد أن فى حالة الزواج — وخاصة فى حالة زواج المدرسات — تنشأ بعض الصعوبات و تترتب بعض النتائج التى تحول بين المدرّسة و بين عملها .

إن الزوجة التى تقوم بمهمة التدريس ، لها بجانب عملها المدرسى واجبات أخرى،فهى زوجة وأم ، ويلاحظ أنها كثيرا ما تفقد أعصابها نتيجة للمنازعات التى تحدث فى المنزل والتى تنعكس نتائجها دون شك على عملها فى المدرسة ؛ وفى حالة معرفة هذه المنازعات فى المدرسة ، فإن هـذا دون شك يؤثر على سمعتها وهيبتها بين التلميذات والزميلات .

وهناك من يؤيد فكرة زواج المدرسين ، على أساس أن الزواج يجعلهن أكثر فهما لحياة الطفولة وخصائصها . وأنهن يستطعن حل الكثير من مشكلات التلاميذ والتلميذات ، وخاصة المشكلات الجنسية .

(٤) قدرة المدرس على فهم الأطفال المشكلين :

وجهت أسئلة كثيرة لعدد كبير من المدرسين والمدرسات لمعرفة مدى ما يفهمونه عن الأطفال المشكلين . وقد دلت خلاصة هـذه النتائج على أن هناك لبسا فى أذهان المدرسين عن المقصود بالطفل المشكل . إن الطفل المشكل فى نظر أغلبيتهم ، هو الطفل الذى يعمل على إثارة الفوضى فى حجرة الدراسة ،

الطفل الذى لا يحترم النظام ، الطفل الذى يحاول أن يعتـدى على السلطة المدرسية والتقاليد المدرسية . وهم لجهلهم بميول « الطفل المشكل » كما يفهمه المشتغلون بعلم النفس ، واعتناقهم لهذه الأفـكار الخاطئة ، يهملون مشكلات كثيرة هى من صميم عملهم ، إذ أنه نتيجة لإهمال بعض مظاهر الانحراف إبان مرحلة الطفولة يصبح من العسير التخلص منها ، وبذلك تتضاعف أضرارها ، مما يؤدى إلى اضطراب سلوك الطفل عندما تتقدم به السن .

ومن بين مشكلات الأطفال الأخرى التى يجب العناية بها : الضيق والقلق والخجل وكثرة الحركة وعدم الشعور بالأمن والحرمان والأوهام والمخاوف . . . الخ . إن هذه المظاهر إذا ما تأصلت فى نفوس التلاميذ كانت عاملا هاما فى اضطراب سلوكهم من جهة ، وانحلال شخصياتهم من جهة أخرى .

(٥) شـخصية المدرس :

يجب أن يكون المدرس ذا شخصية متكاملة ، ونقصد بتكامل شخصية المدرس ، توفر الشروط التالية :

(ا) قدرته العلمية وتمـكنه من مادته . (ب) ثقته بنفسه .

(حـ) قدرته على قبول ما يوجه إليه من نقد .

(د) قدرته على معاملة تلاميذه ، بهدوء وسعة صدر مع شىء من عدم التعصب .

(هـ) ألا يكون متزمتا نحو نفسه ، ومعنى هـذا أن يكون منبسطا مع نفسه ميالا إلى الفـكاهة ، منشرح الصدر .

(و) ألا يكون مثاليا فى طباعه ، خياليا فى تصرفاته ، أى أنه يجب أن يكون قادرا على مواجهة الحياة بما فيها من حقائق . فإذا توفرت هذه العوامل فى المدرس ، كان من شأنه أن يسهل عمله ، وتجعل إرشاداته لتلاميذه مقبولة وتأثيراته فى سلوكهم عملية .

المدرسة كبيئة اجتماعية

تحدثنا عن المدرسة كعامل مهم يؤثر فى تكوين الطفل من الناحية الاجتماعية ، وسنعرض الآن لمناقشة بعض العوامل التى تؤثر فى المدرسة كمجال لنمو الأطفال الاجتماعى ؛ وتتضمن هذه العوامل ما يلى :

(١) سعة المدرسة . (٢) أعمار التلاميذ فى المدرسة .

(٣) الفوارق الاجتماعية بين التلاميذ .

(٤) الفوارق بين ثقافة الأسرة وثقافة المدرسة .

أولا : سعة المدرسة :

ونقصد بسعة المدرسة ما تحتويه من تلاميذ ؛ ويترتب على كثرة التلاميذ بالفصل بصفة خاصة وفى المدرسة بصفة عامة ، نتائج عدة . من بينها انشغال المسئولين بالمدرسة بالنواحى الإدارية فيها لحفظ النظام ، بدلا من العناية بتوجيه التلاميذ علميا واجتماعيا .

إن كثرة عدد التلاميذ فى المدرسة لا يساعد على تكوين شخصياتهم أو بث روح الثقة فى نفوسهم ، فالتلميذ كفرد يتلاشى وسط تلك المجموعات الضخمة من التلاميذ .

ان التلميذ فى نظر نفسه وفى نظر مدرسة كبيرة ، ما هو إلا التلميذ الرابع من الصف الثانى من الفصل الخامس من القسم الثالث من مجموع يبلغ ١٣٠٠ تلميذا ، وعلى حسب هذا الوضع يتعذر أن تتكون علاقات فردية تقوم على تبادل المحبة بين المدرس والتلميذ من جهة ، والتلميذ والكثير من زملائه فى المدرسة من جهة أخرى .

أما من حيث ازدحام التلاميذ فى الفصول ، فنلاحظ أن التلاميذ فى

المقاعد الأولى ، يكونون موضع رعاية ، بعكس التلاميذ فى الصفوف الأخيرة ، فقلما يسمعون أو يناقشون أو يشعرون بأى استجابة مع مدرسى الفصول . ومعنى هذا أن كبر سعة الفصل الدراسى يؤدى إلى قتل حيوية الكثير من تلاميذه .

ثانيا : أعمار التلاميذ فى المدرسة :

إن أعمار التلاميذ عامل مهم فى التأثير على التكوين الاجتماعى للمدرسة ، من حيث علاقة التلاميذ بعضهم ببعض ، فقد تبين من ملاحظات بعض المدرسين ذوى الخبرة الطويلة ، أن اختلاط تلاميذ المرحلة المتوسطة من المدرسة الثانوية بتلاميذ المرحلة الأولى ، يخلق جوا غير طبيعى بالنسبة للتلاميذ الصغار . ومن أمثلة ذلك أن التلاميذ الكبار يمنحون من المزايا ، ويشتركون فى أوجه من النشاط لا تتوفر للأطفال الصغار الذين يشتركون معهم فى نفس المدرسة ، وينظر الصغار إلى كل ذلك بعين الحقد ، كما أنهم يشعرون أنهم فى مرتبة دون مرتبة هؤلاء الكبار ، وأن المدرسة لم تخلق لهم ، وأنهم غير جديرين بالثقة وإثارة إعجاب الغير .

وبالإضافة إلى ما سبق فإن وجود تلاميذ من أعمار مختلفة ، متباينة ، من حيث المدى ، يتبعه اختلاف وفروق واسعة فى خبرات هؤلاء التلاميذ الناجمة عن نموهم الطبيعى . وقد يترتب على التفاوت فى الخبرات نتيجة النمو الطبيعى للطفل ، أن يقف الصغار من الكبار على أمور لا يصح لهم معرفتها وهم فى مرحلة مبكرة من مراحل الحياة ، ونستطيع توضيح ذلك بالمثال التالى :

إن اختلاط تلميذة فى الثالثة عشرة من عمرها — بدأت مرحلة الحيض — بطفلة فى الثامنة ، يترتب عليه أن الطفلة الكبيرة قد تتحدث مع الصغيرة عن

حالتها فى الوقت الذى تكون فيـه الصغيرة غير مستعدة لفهم ما تقول . وتكون إثارة هذه المعلومات أشبه بصدمة عنيفة للطفلة الصغيرة .

ثالثا : الفوارق الاجتماعية بين التلاميذ :

يبدأ الأطفال بالشعور بالفروق الاجتماعية فيما بينهم فى المدرسة حوالى الثانية عشرة ، والذى يُنمى فى الأطفال هذه الفروق فى الغالب هم الآباء أنفسهم .

وقد أجريت أبحاث عديدة لدراسة مركز الأسرة ، وأثره على النمو الاجتماعى للطفل ، ومن بين هذه الأبحاث ما قام به (Neugarten)[(١)] .

أجرى (نيوجارتن) أبحاثه على عدد يبلغ ٣٨٠ طفـلا فى إحدى المدن الأمريكية التى يتكون سكانها من حوالى ٩٠ ٪ من البيض ، وقد قسم (نيوجارتن) سكان المدينة إلى خمس طبقات اجتماعية ، ثم وجه إلى الأطفال الأسئلة التالية :

(١) من هم أحسن أصدقائك ؟

(٢) من الذى لا ترغب فى اللعب معه من الأطفال ؟

(٣) مَنْ مِنَ الأطفال لا ترغب والدتك اللعب معهم ؟ ومن من الأطفال تود أن تُكوّن معهم صداقات إذا تركت لك حرية اختيار أصدقائك ؟

ثم بعد ذلك كان يطلب منهم أن يصفوا أهم المميزات التى تجعل الطفل فى نظرهم ذا شهرة خاصة . وفيما يلى نذكر أهم نتائج تلك الأبحاث :

(ا) يختار الأطفال عادة أصدقاءهم ، إما من طبقات تماثلهم ، أو من طبقات أعلى منهم .

---

(1) Neugarten. B : Social class & friendship among school children, Amer. Jour. of sociology (1946)

(ب) إن الطفل الذى ينتمى إلى أسرة من الطبقات العليا يكون عادة موضع حسد الآخرين وحقدهم ، ورغم ذلك فإن أغلبية زملائه فى الفصل يختارون صحبته ، بينما أقلية من زملاء الفصل لا ترغب فى زمالته .

(حـ) وعلى العكس من ذلك ، الطفل الذى ينتمى إلى أسرة من الطبقات الدنيا ، فإنه قلما يختار كصديق ، حتى من الأطفال الذين ينتمون إلى نفس الطبقة.

وكثيرا ما تُحذر أسر الطبقات الراقية أبناهم من الاختلاط بأطفال ينتمون إلى أسر فقيرة .

(د) إن أبناء الطبقات الفقيرة فى نظر المدرسة وكذلك فى نظر الأسرة المتوسطة والغنية ، لهم سمعة غير طيبة من حيث القذارة والإهمال والميل إلى المشاجرة والاعتداء ، لا يحبون المدرسة وأخلاقهم وطباعهم غير مرغوب فيها . وعلى العكس من ذلك فإنه ينظر عادة إلى الطفل الذى ينتمى إلى الطبقات الراقية على أنه طفل نظيف ، مهذب ، مطيع ، محبوب .

و بناء على تلك النظرة التى يختص بها الطفل الذى ينتمى لطبقات اجتماعية فقيرة ، نجده يجد صعوبة ليلائم نفسه مع البيئة المدرسية ، إذ يُنظر إلى هذه الفئة من الأطفال على أنها مجموعة لا كيان لها ، مجموعة مهملة ، يجب أن تعيش فى معزل عن بقية الأطفال ؛ وتؤدى تلك التفرقة بين أبناء الطبقات الممتازة والفقراء من أبناء الشعب ، أن يشعر أبناء الطبقات الأولى بالثقة والاحترام وتقدير الذات ، حيث يكونون دائما موضع رعاية ؛ بينما يحدث العكس بالنسبة لأطفال الطبقات التى لا تتمتع بمركز اجتماعى مرموق ، أو تعيش فى ظروف اقتصادية غير ميسرة .

الباب الثانى

مرحلة المراهقة

النمو العادى وأهم مظاهره

تمهيد :

جرت عادة الكتب العربية التى ظهرت فى السنوات الأخيرة على اعتبار (دور المراهقة) أزمة فى النمو ، ومن ثم صدروا كتبهم بالعبارة التقليدية « أزمة المراهقة » التى تناقلها عنهم آلاف من القراء ونشروها فى كل مكان فى المنزل والمدرسة والمجتمع الخارجى .

إن تصوير دور المراهقة على أنه أزمة — لا شك — فيه تحديد لفهمنا لمرحلة مهمة من مراحل النمو . ولذلك فإننا نود أن نبرز فى هذا التمهيد فكرة هامة ستدور عنها أبحاث الباب الثانى من هذا الكتاب وتدور هذه الفكرة حول اعتبار المراهقة مرحلة تغيير كلى شامل وليست أزمة فى النمو .

إن هذا التغير يشمل النواحى الجسمية والنفسية والعقلية : كالتطور العضوى الجنسى أثناء البلوغ ، وكالاتجاه نحو المستوى العقلى النهائى الذى يصل إليه فى نهاية المرحلة ، وكالتحرر العاطفى من سلطة الوالدين فى الأسرة ، والحساسية الشديدة ، والبحث عن المثل الأعلى ، وتكوين العلاقات العاطفية مع الزملاء والكبار ، وعبادة البطولة ، واستساغة الموت وتحدى الموت فى سهولة وجرأة ، وانبثاق الدافع الجنسى ، والاكتفاء الذاتى . . . الخ .

تلك هى بعض الخصائص التى تظهر فى مرحلة المراهقة والتى تنشأ بسبب ما يصيب المراهق من تغيرات جسمية ونفسية : ولكننى أحب أن أشير إلى أنه إذا لم يجد المراهق التوجيه المناسب فى هذه الفترة ، فلا شك أن حياة الفرد تتصف بالفوضى النفسية والانهماك فى المشاغل الجنسية والعدوان المدمر والتمرد الهدام .

إن مظاهر الانحراف السابقة الإشارة إليها ، هى التى جعلت البعض يعتقد أن حياة المراهقين جميعا — وحتى فى حالة التوجيه السليم — لا تخرج عن كونها أزمة من أزمات النمو . والصحيح — إن وجد المراهق التوجيه السليم — إن المراهقة أزمة من أزمات الارتقاء والتطور ؛ أزمة لأنها مرحلة يعاد فيها تنظيم القوى النفسية والعقلية كى تجابه مطالب الحياة الراشدة . هى أشبه بأزمات التحول التاريخى من نظام بائد إلى عهد جديد . تلك سنة التطور الطبيعى فى أى مجال من مجالات الطبيعة ، تسير الأمور فى مجراها هينة رفيقة ثم إذا بنا أمام انتفاضة تتمخض عن حال جديد . والمشاهد السطحى لهذه الانتفاضات يتوهمها اضطرابا وفوضى . ولكنه لو أمعن النظر فيها لاكتشف ما تنطوى عليه من حركة تنظيمية هى أبعد ما تكون عن الاضطراب والفوضى [(١)] .

ولعل مما يؤيد الرأى الذى ندعو إليه من أن المراهقة هى مرحلة تغير شامل ، وأن المراهق لا يتعرض لأزمة من أزمات النمو طالما سار هذا التغير فى مجراه الطبيعى ، أن ما يعانيه المراهق من انحرافات ومشكلات يعد نتاجا من نتاج الحضارة الحديثة والمدنية المعاصرة . ولعل مما يدل على ذلك أن المجتمعات البدائية لا تعرف مثل هذه المرحلة من النمو وكل ما نجده عندها لا يزيد على فترة بلوغ قصيرة أو زمن وجيز يكتمل فيه نضوج الفرد من الناحية الجنسية نضوجا يسمح للمراهق بعده بالانخراط فى مجتمع البالغين و بتحمل مسئولياتهم . وعلى ذلك فلا غرابة إذا كان طفل العام المنصرف وقد تزوج فى هذه السنة قد أصبح مسئولا عن الخروج إلى الصيد ليكسب رزقه ورزق زوجته . وليس ينفصل بين فترة

---

(١) عن مقال لزميلنا الدكتور عبد المنعم المليجى نشر فى مجلة الرسالة الجديدة (يوليو ١٩٥٥) .

الطفولة فى المجتمعات البدائية وطور الرجولة إلا أن يكتمل نضج الصبى جنسياً ويشترك في حفلة راقصة من تلك الحفلات التى ينصب فيها الصبيان رجالا . إن هذه المجتمعات البدائية كما شاهدنا ذلك فى مديرية أعالى النيل بجنوب السودان ، لا تطيل من فترة المراهقة ولا تثقل كاهل المراهق بقيود وتقاليد اجتماعية ومادية ، تجعل من طور المراهقة طور أزمات واضطرابات نفسية ، كما هو مشاهد فى مجتمعاتنا الحديثة . إذ أن هذه المجتمعات الحديثة لا تساعد على أن تنفصل العلاقة التى تربط بين المراهق و بين والديه والتى تجعله عالة عليهما بحيث لا يملك عنهما فكاكا أو فطاما . كل ذلك يعود على نفس مراهقنا بالأزمات والعلل النفسية التى تعتوره أثناء فترة المراهقة .

معنى المراهقـة :

إن كل مراهقة (Adolescence) مشتقة من الفعل اللاتينى (Adolescere) ومعناه التدرج نحو النضج البدنى والجنسى والفعلى والانفعالى .

وهنا يتضح الفرق بين كلمة مراهقة وكلمة بلوغ (Puberty) التى تقتصر على ناحية واحدة من نواحى النمو وهى الناحية الجنسية . فنستطيع أن نعرف البلوغ بأنه « نضوج الغدد التناسلية واكتساب معالم جنسية جديدة تنتقل بالطفل من فترة الطفولة إلى فترة الإنسان الراشد » .

تقسيم دور المراهقة .

نستطيع تقسيم هذا الدور إلى المراحل الآتية :

(أولا) ما قبل المراهقة ، وتبدأ عادة من سن العاشرة وتنتهى فى سن الثانية عشرة .

(ثانيا) المراهقة المبكرة (١٣ — ١٦) عاما .

(ثالثا) المراهقة المتأخرة (١٧ — ٢١) عاما .

دراسة لأهم التغيرات

التي تطرأ على المراهق

التغيرات الجنسية :

تعرف ظاهرة التغير الجنسى التى تطرأ على المراهق باسم عملية البلوغ وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

(ا) ما قبل البلوغ : وتشمل الفترة التى تظهر فيها بشائر النمو الجنسى .

(ب) فترة البلوغ التى تتضح فيها التغيرات الجنسية : وتبدأ الغدد الجنسية فى تأدية وظيفتها مع عدم النضج الكامل فى العملية الجنسية .

(ج) ما بعد البلوغ وفى هذه الفترة تقوم الأعضاء التناسلية بوظيفتها كاملة .

إن بدايات ونهايات هذه الفترات تخضع لعوامل مختلفة تتصل بالجنس والبيئة وطبيعة الطفل نفسه ؛ فقد أثبتت أبحاث (كيوبتشك Kubitschek) أن حوالى ٥٠ ٪ من الإناث ينضجن جنسيا فيما بين سن (١٢٫٥ — ١٤٫٥) عاما ، بينما ينضج الذكور جنسيا فيما بين (١٤ — ١٥٫٥) عاما . ومعنى هذا أن اختلاف الجنس عامل من العوامل التى تساعد على التبكير فى البلوغ فالبنت تصل إلى نضجها الجنسى قبل الصبى بفترة تبلغ العام تقريبا .

وهناك عوامل أخرى — بجانب عامل الجنس — تساعد على التبكير فى البلوغ ، منها : أن الأولاد الذين يعيشون فى الريف يبلغون مبكرين ستة شهور عن الأولاد الذين يعيشون فى المدن (بلدوين ١٩٢١) . هذا وهناك علاقة بين العوامل البيئية ، كالتغذية والجو والأمراض و بين النضج الجنسى ، وهناك من يقول كذلك إنه توجد ثمة علاقة بين الأجناس والبلوغ ، فالشعوب النوردية (Nordic) — وهى الشعوب التى تسكن الجزء الشمالى الغربى من

أوروبا — أبطأ من الشعوب التى تسكن منطقة البحر الأبيض المتوسط فى ناحية النضج الجنسى .

ويتصل بعملية البلوغ الجنسى ناحيتان :

(أولا) الخصائص الجنسية الأولية .

(ثانيا) « « الثانوية .

ويقصد بالخصائص الأولى ، أعضاء الجهاز التناسلى . إن هذه الأعضاء تكون صغيرة الحجم فى فترة الطفولة ، كما أنها تعجز عن القيام بوظيفتها من حيث القدرة على إفراز الحيوانات المنوية والبويضات ، وعندما تحل مرحلة البلوغ يلاحظ أنه يطرأ على هـذه الأعضاء تغير فى الحجم والقدرة على الإفراز اللازم لعملية الإخصاب[1] ؛ ففى حالة الأنثى نجد أن أعضاء التناسل تبدأ إنتاج البويضة (egg or ova) ، بينما ينتج الذكر (الحيوان المنوى spermatozoa) وعقب إمناء الذكر تسعى الحيوانات المنوية إلى داخل الرحم ، ويساعدها على ذلك ذيلها ، ثم انقباضات عضل الرحم نتيجة التهييج الجنسى الناشىء من الجماع ، وأخيرا إفرازات غدد عنق الرحم القلوية التى تزيد فى نشاط الحيوانات المنوية .

ويسير الحيوان المنوى بسرعة مدهشة ، إذ أنه يعبر ٣ مليمترات فى الدقيقة الواحدة ؛ ومعنى ذلك أن الإخصاب يتم عادة فى ٢٤ — ٣٦ ساعة عقب الجماع ، وهذا إذا كانت هناك بويضة جاهزة ، وعندما ينعدم وجودها تموت الحيوانات المنوية بعد فترة من الزمن .

---

(١) يرجع الفضل فى ذلك إلى ما يطرأ على الغـدة النخامية والغدد التناسلية من نمو ونشاط (انظر ص — ٢٧) .

الجهاز التناسلي عند الأنثى :

ويتكون هذا الجهاز من الأعضاء الآتية :

(١) المبيضين (ovaries) ؛ وعلى جدران كل مبيض توجد جيوب (follicles) ملآنة بالبويضات . وعند البلوغ تأخذ هذه البويضات فى النضج بمعدل بويضة واحدة كل ٢٨ يوما . ويعتقد أن المبيضين يتناوبان العمل — من حيث إعداد بويضة للتلقيح — وذلك كل فترة من فترات الحيض الشهرى . وعندما تنضج البويضة تدفع خارج المبيض .

(٢) الرحم Uterus وهو المكان المعد ليستقر فيه الجنين .

(٣) ويتصل الرحم بكل مبيض بقناة فللو بيوس (Fallobian tube) ؛ وتمر البويضة الناضجة عادة فى اليوم ١٤ من بدء دم الحيض (الطمث) ، وتبقى

(الجهاز التناسلى عند الأنثى)

فى قناة فللو بيوس مده تتراوح بين (٢ — ٥ أيام) . وفى هذه الفترة تتعرض البويضة لعملية الإخصاب من الحيوانات المنوية للذكر .

(٤) يتصل الرحم بالمهبل Vagina عن طريق رقبة الرحم ، والجزء الخارجى من الرحم معروف باسم الفرج وهو يتكون من البظر أى Clitoris وهو المرموز له بالرقم (٦) فى الشكل ، وفتحة القناة البولية (٧) ثم غشاء البكارة Hymene (٨) .

إن أول مظهر لنضوج الفتاة هو دم الحيض (الطمث) ، ويبدأ ذلك فى حوالى ١٣٫٥ عاما . ويطلق على نزول الدم الأول الاصطلاح Firet menstruation ، ثم بعد ذلك ينقطع نزول الدم فترة تتراوح من أيام إلى سنة تقريبا . وفى هذه الفترة تكون الفتاة غير معدة لعملية الإخصاب التى لاتتم إلا بعد نزول الدم الأول بعد شهور . ويصاحب نزول الدم فى الفترة الأولى بعض الآلام والضيق والصداع والإجهاد والقىء والتهيج فى المثانة .

هذا والظهور دم الحيض عند الفتاة المراهقة متاعبه الكثيرة ، فأمها تحذرها دائما من أن تذكر شيئا عن هذه المسألة أو تتحدث فيها حتى مع أخواتها أو أبيها . إن هذه السرية التى تحيط بهذا الموضوع تقلق الفتاة وتجعلها هدفا للكثير من الاضطرابات والأزمات النفسية . وسنورد فى هـذا الصدد نتائج بعض الاحصاءات التى أجريت على مجموعة من الفتيات فى هـذا الموضوع (قام بالبحث (كونكلن) على ٤٧٥ حالة) وإليكم النتيجة :

٥١ ٪ من الحالات أحسسن بأنهن أصبن بالدهشة عند ظهور الحيض لأول مرة .

٢٤ ٪ من الحالات كن غير مباليات .
١٢ ٪ « « أصابهن الحزن .
٧ ٪ « « كن منزعجات .
٦ ٪ « « كن فخورات .

أما عن الخصائص الجنسية الثانوية فتأخذ المظاهر التالية :

(١) ان أهم التغيرات الظاهرة لدى الفتاة ، استدارة المنطقة التى تعلو الفخذ ، وبروز الثديين وكبر الأرداف فجأة ؛ فهى لذلك تخجل أثناء لعبها أو جريها ، وهى لذلك تعمل جاهدة على التقليل من الطعام أو تناول ألوان خاصة منه ، كل ذلك بقصد التقليل من وزنها ، متخيلة أن ذلك يساعدها على عدم تزويد الثديين والأرداف .

ومن بين الأسباب الأخرى التى تضايق الفتاة ، ظهور بعض الشعيرات على الشفة العليا والذقن والساقين ، كل ذلك يجعلها تطيل النظر فى المرآة ، وتعمل جاهدة على إزالة هذه الشعيرات أو تفكر فى طريقة لتخفى بها هذه الشعيرات كأن تلبس جوربا طويلا .

كذلك ما يطرأ على أنفها من كبر وعلى يديها وقدميها من تضخم ، يجعلها تعتقد أن هذه الأطراف تناسب الصبية ولا تناسب السيدات ، وكل ذلك يجعلها تفكر طويلا وتفضل ارتداء الأحذية الصغيرة ، وتبتعد ما أمكن عن استعمال يديها فى العمل اليدوى المدرسى .

ويقابل ذلك عند الفتى ، ظهور الشعر على الذقن وفوق الشفة العليا وتحت الإبط وفوق العانة ؛ هذا ويسبب تضخم صوت المراهق مضايقات ، إذ نجده يخجل من القراءة الجهرية فى حجرة الدراسة .

الميل الجنسى و كيف يتطور :

تبدأ مرحلة البلوغ كما سبق أن ذكرنا بتغيرات داخلية وخارجية تظهر فيها بشائر النمو الجنسى ، وتكون هذه التغيرات مصحوبة بخصائص فسيولوجية وميول اجتماعية عاطفية أو بعبارة أخرى باتجاهات جنسية . وتمر هذه الاتجاهات فى المراحل التالية ، وهى تختلف — من حيث البدايات والنهايات — من بيئة لأخرى ومن فرد لآخر ، فيبدو هذا الميل سريعا فى بعض الحالات و بطيئا فى حالات أخرى ؛ ويلاحظ كذلك ان بدايات النمو الجنسى فى أطواره المختلفة تختلف باختلاف الجنس ، فالبنت عادة تسبق الصبى ، طالما أن ميعاد بلوغها يحدث فى وقت مبكر عن الصبى .

فى السنة الأولى من مرحلة المراهقة ، يشعر المراهق بقوة غامضة تحركه وتتطلب منه إشباعا جنسيا ؛ وتأخذ هذه القوة — فى أول عهدها — مظهرا مقنعا للتعبير عن نفسها ، يكون على شكل إخلاص وولاء لشخص يكبره سنا ، إما من نفس الجنس أو من الجنس الآخر . وتبدو الظاهرة الأولى (الميل إلى نفس الجنس) بوضوح ظاهر بين البنات ، إذ يلاحظ أن الكثيرات منهن فى هذه السن يخلصن إخلاصاً شديداً لبعض أترابهن اللاتى يكبرنهن سنا ، وخاصة من يمتزن منهن بموهبة خاصة كالغناء أو الرياضة أو الرسم أو العزف على الآلات الموسيقية ، أو ينفردون بميزات خاصة فى الثياب أو المظهر الجسمى . وقد يحدث فى حالات أخرى أن يتجه هذا الشعور (وهو خليط مبهم من الإعجاب والحب) إلى مدرسة من المدرسات ، فتقلدها الفتاة المراهقة فى حركاتها وطريقة كلامها ، و ربما تحاكيها فى مظهرها من حيث الثياب (التبرج أو التأنق) . . الخ .
و يحكى أن طالبة بإحدى المدارس الثانوية كانت تقدم بعض الهدايا من الحلوى و باقات الأزهار إلى مدرسة اللغة الإنجليزية بالمدرسة ، كما كانت تشعر بغيرة

شديدة إذا ما رأت مدرستها هذه تلاطف طالبة أخرى سواها ، وكانت تشتد بها الغيرة إذا ما رأتها تتحدث إلى فرد من الجنس الآخر .

وقد يحدث مثل هــذا فى محيط التلاميذ الذكور ، كأن يعجب تلميذ بأحــد أساتذته إعجابا يتحول عنده إلى نوع خاص من الحب والإعزاز ، ومبعثه فى العادة يقترن بأن هذا الأستاذ أثنى عليه أو امتدحه .

ثم يتحول هــذا الميل تدريجيا كلما نمت السن إلى الجنس الآخر ، فالفتى المراهق مثلا يشعر بجانب خفى يدفعه إلى التعلق أو الاهتمام بإحدى قريباته أو جيرانه أو صديقات الأسرة ، أو إحدى كواكب السينما أو المسرح .. الخ ؛ ويلاحظ أنها تــكون فى العادة أكبر منه سنا . ويهتم الفتى المراهق كل الاهتمام بجمع أى شىء يمت بأدنى صلة إلى هذه التى يدفعه إليها هذا الشعور المبهم ، ولعل فى الشكوى التى تضج بها بعض كواكب السينما من المعجبين الذين يطلبون صورهن ومعلومات عن حياتهن الخاصة ما يفسر هذه الظاهرة التى هى من سمات الفتيان (والفتيات) فى سن المراهقة . ويخطىء كثير من الآباء والقائمين على تربية المراهقين والمراهقات بتسفيه شعورهم هذا ، أو إشعارهم بأنه نزوات صبيانية ؛ والواجب على هؤلاء أن يعالجوا هذا الأمر بالحــكمة والروية والتسامح بطريقة حكيمة ، تــكون وسطا بين التوجيه الرشيد والتبصير السديد ، لأن السخرية من مثل هذا الشعور يجرح الصبى أو الصبية جرحا نفسيا قد يستمر معه محدثا فيه ما يؤثر على ميوله الجنسية فى مستقبل حياته .

ثم يتدرج هذا الشعور إلى سيره الطبيعى ، فيحب الفتى فتاة أو أكثر تماثله سنا ، وكذلك هى الأخرى تحب فتى أو أكثر فى مثل سنها . وينظر كل منهما إلى محبوبه فى الفترة السالفة على أنه لا يلائم — لــكبر سنه — أن يكون محبوبا له .

وهنا تدخل الميول فى دور جديد وهو الذى يعرف عادة بوله المراهقين (boy & girl crazy period) ؛ فى هذه الفترة تصبح ميول المراهق نحو الجنس الآخر ، واضحة ، عامة ، أى موزعة على أكثر من فرد واحد . وتختلف بداية هذا الشعور باختلاف الجنس ، ففى حالة الفتيات المراهقات تكون فيما بين (١٤ — ١٥) عاما ، بينما فى حالة الفتيان المراهقين تبدأ فيما بين (١٥ — ١٦) عاماً . (١)

وتمتاز العلاقات الجنسية التى تنشأ بين الفتيان والفتيات فى هذه السن بالروح الرومانتيكية (romantic love) ، الخالية من أى إثارة جنسية جامحة .

على أن نظرة الفتى المراهق إلى الميول الجنسية لا تلبث أن تتغير رويدا رويدا ، حتى يصبح ولا هم له إلا النظر إلى مفاتن المرأة وإلى ما استتر من أعضاء جسمها التى تجد لها فى مثل هذه السن مستقرا يكاد يكون دائما فى خياله ، وبهذا تتحول نظرته المثالية المطلقة إلى نظرة كلها رغبة وشهوة فى الإفضاء إلى هذا الجسد الذى يتعشقه .

ونسوق القصة الآتية نقلا عن الكاتب الروائى المعاصر (ألبرتو مورافيا) فى قصته (المراهق !) ، التى عرض فيها لتحليل شخصية فتى مراهق فى هذه السن التى هى مدار بحثنا هذا : (لوكا . . يافع فى السادسة عشرة من عمره . . يكن لوالديه الحب الأبوى الذى ينطوى على قدر كبير من التقديس . . وكان عطفهما عليه وتعهدهما له مما يضاعف من حبه لهما . .

ولم يعرف (لوكا) لونا من ألوان الحب غير حب أبويه ، إلى أن مرضت خالة له ذات يوم فانتقلت هى وأطفالها إلى بيت شقيقتها « أم لوكا » واستدعت الحال الاستعانة بمربية تتعهد أطفال خالة لوكا المريضة .

---

(١) هذه هى المعايير السائدة فى البيئات الأجنبية ، ولكننا نعتقد أن بدايات ونهايات هذا الدور تتقدم قليلا .

وكانت المربية امرأة فى الخامسة والثلاثين ، لم توفق فى زواجها فعاشت كأرملة . . ولم تك رشيقة ولا ذات جمال يلفت إليها الأنظار ، بيد أنها كانت جمة النشاط بادية الحيوية مرحة خفيفة الروح ، حتى كانت إذا لاعبت الأطفال اندمجت فى جوهم حتى لتبدو وكأنها طفلة مثلهم . وكانت هذه المربية تلاعب أطفالها فى قاعة الجلوس المجاورة لغرفة « لوكا » . فكان صياحهم وهرجهم ينتهى إليه . . وكانت المربية أحيانا كثيرة تفتح عليه الباب لتعتذر له عما إذا كان صياح الأطفال وعبثهم يزعجه أو يعكر عليه صفو الاستذكار ، واعتاد هو أن يبدى لها عدم انزعاجه أو تبرمه من هذا الأمر .

أحب لوكا فى المربية بساطتها البادية ورقتها ومرحها ، لأنها كانت صورة غير صورة أمه الصارمة .

وبينما كان ذات مرة يرنو إليها وهى تحبو أثناء لعبها مع الأطفال ، وجد عينيه مشدودتين على الرغم منه إلى فتحة طوقها التى تكشفت عن جيدها وصدرها ونهديها . . أنكر الفتى على نفسه هذه النظرة فى بادئ الأمر ، ولكنه لم يقو على تحويل بصره .

فهمّت بقفل هذه الفتحة التى تكشف عن نهديها . . ولكنها اتجهت بيديها إلى شعرها تسويه وتعدله فى حركة فيها فتنة وإغراء ، واستأنفت حبوها صائحة ضاحكة متعمدة أن تهز ردفيها فى خلاعة لم تخف على « لوكا » . بل إنها بعثت فى نفسه شعورا من القلق الغامض ! . .

ووجد نفسه بعد هذا يكثر من الخروج من غرفته والوقوف بباب الغرفة المجاورة . . وكأنما لاحظت المرأة سلوكه هذا ، فاتخذت إزاءه سلوكا إيجابيا . تعمدت أن تقتحم حجرته والأطفال خلفها ، وكأنما تنشد الفرار من مطاردتهم ، ثم تلقى بنفسها على فراشه .

وما لبثت أن ابتكرت لعبة « الاستغماية » . . فكانت إذا جاء دورها لجأت إلى الاختباء فى غرفته ، وكثيرا ما كانت تقف خلفه ثم تنحنى لتتأمل الكتاب المفتوح أمامه على مكتبه . . فإذا التفت ألفى وجهها يكاد يلاصق وجهه ، وعينيها الواسعتين تطلان عليه فى ابتسام وتمعن . . !

« وذات يوم ، استلقى عند الغروب على فراشه ، وما كاد النعاس يتملكه حتى شعر بأجساد تهوى فوقه ، وإذا بالمربية وأطفالها يتصارعون فى ضجيج مرح . . وحاول أن يطرحهم عنه ، فإذا هو يندمج فى صراعهم . ولاحظ أن يديه تمتدان على الرغم منه تتحسسان فى حركة غريزية جسد المرأة ، وقد بدا له أنها بدلا من أن تخلص نفسها ، كانت تطيل هرجها مع الأطفال فوق فراشه . . حتى إذا تخلصت منهم فى النهاية ، اقترحت لعبة من ألعاب الاستخفاء ، تطفأ فيها الأنوار ، ثم يختار أحد اللاعبين ليتولى البحث عن الباقين الذين يبادرون إلى الاختفاء فى الظلام ، فإذا ما اكتشف أى واحد منهم وناداه باسمه الصحيح ، انتهت اللعبة وأضيئت الأنوار ! »

« ودعت المربية لوكا إلى مشاركتهم اللعبة . . وجاء من حظه أن يكون هو الباحث فى الظلام عن الباقين ، فوقف فى حجرة الجلوس بينما أطفأت المربية نورها ثم خرجت مع الأطفال . وسمع لوكا وقع أقدام ، وأصوات أبواب تفتح وأخرى تغلق ، وضحكات مكتومة ، وهمسات ، وارتطامات . . ثم ساد الصمت والظلام . . وفجأة تسلل ضوء سيارة عابرة فى الطريق ، خلال نافذة حجرة الجلوس ، وفى تلك اللحظة الخاطفة لمح « لوكا » المربية تقف متصلبة الجسم فى أحد أركان الغرفة ، بين صوانين قائمين . . وأدرك أنها بمكرها الفائق اختارت مكمنها حيث يجثم الصائد ! فقرر أن يبدى بدوره شيئا من الخبث ، فخرج إلى الردهة يتخبط وكأنه يبحث عن صيده ،

و بعد برهة عاد يسعى إلى مكمن المربية مادا ذراعيه . . ومست أصابعه خدها، فلم تتحرك . . وترك أصابعه تنحدر إلى ذقنها ، فطغى عليه إحساس شديد منفعل . ولذ له أن يتحسس وجه المرأة و يستمتع بنعومته ، وكأنما اشتعلت فى صدره وقدة من نار . . ثم انحدرت أصابعه إلى العنق ، فالنحر . . وكأنما سئمت المربية هذا التسلل المتردد ، فأمسكت بيده ودستها فى صدرها . . وأحس « لوكا » بليونة الثـدى الذى توترت عضلاته . . وفجأة ، سمع الأطفال يتحركون فى الغرفة المجاورة فصاح وكأنه اكتشف صيده لتوه : « السنيورينا ! » . . وفى اللحظة التالية ، أضىء النـور ، وأقبل الأطفال صاخبين ، ضاحكين . . »

« وأعيد اللعب . . وكانت المربية هى الباحثة عن المختبئين فى هذه المرة . . وأطفئت الأنوار ، فألفى لوكا ساقيه تحملانه على الرغم منه إلى الركن الذى اختبأت فيه المربية أول مرة ! وأحس بها تفعل ما فعل : تخرج إلى الردهة ، وتتعمد الاصطدام ببعض الأثاث ، وكأنها تبحث بحق ، ثم تسعى فى خطى خفيفة إلى مكمنه . . فتحيط عنقه بذراعها ، وتلصق شفتيها بشفتيه فى قوة . وأحس للقبلة المحرمة الأولى فى حياته ، بحلاوة وغضاضة . . فى آن واحد ! .

وفجأة ، انبعث صوت أحد الصـغار من الحجرة الأخرى صائحا : « ما هذا ؟ . . إنك لا تبحثين . . » . . وخيل إلى لوكا أنه يسمع صوت طهره ينبعث مستغيثا فى اللحظة التى أوشك فيها هذا الطهر أن يحترق بنيران الشهوة . . ومع أنه أحس بتقزز من القبـلة الأولى ، إلا أنه اشتهى أن تتكرر . . ! »

« وانتهى اللعب فآب إلى غرفته واستلقى على فراشه ، وسرعان ما دهمه النوم . . حتى استيقظ فجأة على شـعور بأن ثمة شخصا فى الغرفة . .

وتبين المربية تنحنى فوقه هامسة : « أأنت نائم ؟ » . . فحاول النهوض وهو يقول : « أجل » . . وإذ ذاك قالت بصوت خفيض : « لم لا تأتى فتزورنى فى بيتى ؟ . . إننى ألازم مسكنى طيلة يوم الأحد ! » . . وأدلت إليه بالعنوان، ثم انحنت . . والتقت شفاههما فى قبلة أطول من الأولى . . وأسرعت المربية على أثرها تغادر الغرفة ! [1] » .

* * *

« كان ذلك فى يوم الخميس . . وفى الثلاثة الأيام التالية كان لوكا لا يكاد يستقر على نية تلبية دعوة المربيـة ، فيقرر تجاهلها ! . . وبدا يلاحظ القط الذى يربونه فى البيت وكيف كان يحوم حـول أليفته ، فخيل إليه أنه يرى فيهما نفسه والمربية . . كلاهما حيوان . . ولـكن القطين لم يكونا يتمردان على الطبيعة لأنهما لم يكونا سـوى جزء منها . . أما هو ، فـكان يقاوم فى نفسه ذلك الانصياع للطبيعة ويرى فيه خنوعا ومذلة . . ولا يملك إلا أن يسائل نفسه : إذا هو استسلم للغريزة ، فلأى عذر إذن أهمل دروسه ، وحرم نفسه متعة الشبع من الطعام ؟ »

« وجاء يوم الأحد وهو متردد . ثم قرر أن لا يوافى المربية كوعده ، فراح يهيم فى الشوارع على غير هدى . . لم يكن ثمة شك فى أنه كان يرغب فى أن يخف إلى المربية . . ولم يكن من شك أيضا فى أنه لم يكن راغبا فى الذهاب ! . . وكانت الحالان متساويتين فى نظره ، حتى خيل إليه أن سروره إنما يقع فيما بينهما ، فى ذلك الجمود الحائر المعتم الـكئيب ! . . وخيل إليه — وهو سارح فى أفكاره — أن المربية « محطة » فى طريقه ، وأنه قد تجاوز هذه المحطة ، فبدأ يسأل نفسه : كيف كاد يسمح لقبلة أو اثنتين بأن تعرقلا

---

(١) من كتاب «مراهق» لمؤلفه البرتو مورافيا ، عن مجلة كتابى — ص ١٥٠ — ١٥١ .

سيره فى الخطة التى انتهجها فى المرحلة الأخيرة من حياته ؟ . . إن المربية تنتظره فى مسكنها كما يرتقب والده عودته إلى البيت ، وكما يتوقع زملاؤه ومدرسوه عودته إلى المدرسة . . كلهم يتآمرون على استغلال ضعفه . . وعلى استدراجه إلى معمعة الحياة وإبقائه فيها ، وإن اختلفت أساليبهم . . وطرح عنه طيلة الأسبوع كل ميل إلى المقاومة ، وراح يفكر فى المربية . . ولم يعد الموت يجول بخاطره ، بل كانت الشهوة تنأى به عن طريقه السابقة ! . . وبدا له أن كل شىء فقد كيانه وأهميته ، عدا المرأة التى راح خياله يصورها له فى شتى الأوضاع المغرية المغوية . . وحدث ما كان يخشى أن يحدث : وجد ما يذكى اهتمامه بالحياة من جديد . . ولكنها غدت فى نظره حياة زرية ، ضيقة الحدود ، إذ أدرك أنه ما كان يحب تلك المرأة ، ولا كان من الممكن أن يحبها يوما ، وإنما كان مسوقا إليها بشهوة وضيعة ، حيوانية . . ! »

***

وهكذا نجح الكاتب — كما رأينا — فى تصوير نفسية المراهق فى هذه السن ، وأبرز إلى أى حد كيف أن الشهوة الجامحة تسيطر على سلوكه ، وكيف أنه يطلب إشباعا عاجلا لدوافعه الجنسية .

يشعر المراهق فى هذه السن أنه قد اكتمل من الناحية الجنسية وأنه يريد أن يعبر عن تلك الدوافع الجامحة فى نفسه بالزواج ، إلا أنه يصطدم بالواقع ، فالقصور فى الموارد المادية يقف بينه وبين ما ينشد من استقلال ومن التعبير عن دوافعه الفطرية . وهنا تزداد حدة التوتر الانفعالى ، اللهم إذا وجد بديلا يعبر به عن الدافع الجنسى القوى . ويكون الاحتلام من بين الوسائل الطبيعية للتعبير عن هذا النشاط الجنسى الزائد ؛ كما أن المراهق قد يلجأ إلى الاستمناء للتخفف من وطأة التوتر الانفعالى الجنسى الذى يشعر به فى هذه المرحلة .

والحقيقة أننا إذا كنا نطلب من المراهق — أن ينكر على نفسه ما تتطلبه من حاجة إلى اشباع عاجل لدوافعه الجنسية فى انتظار المستقبل ، فلا بد من أن نقدم إليه الدليل الذى يقنعه بأن له مستقبلا يبشر بالخير خليقا بأن ينتظره وأن يصابر الزمن حتى يتحقق ؛ ذلك لأن من أسباب المشكلة الجنسية ، نقص الإيمان العميق فى أى شىء على الإطلاق[١] .

أما ما يقال من أنه فى استطاعتنا تحويل الطاقة الجنسية لدى المراهق إلى طريق ميادين النشاط المختلفة لاستنفادها ، فهذه وسيلة غير كافية للتغلب على الاضطرابات الجنسية لدى المراهق ، إذ لا يمكن عن طريق هذا التحويل إلا استنفاد نسبة معينة فقط من الطاقة الجنسية ، فالكثير مما يسمى (إعلاء) هو فى الحقيقة تحويل للقوة المحتبسة الدافعة إلى مسالك أخرى تؤدى به إلى التعرض لبعض الأمراض النفسية[٢] .

التغيرات الجسمية

تعتبر مرحلة المراهقة إحدى مرحلتين للنمو الجسمى السريع . فالمرحلة الأولى للنمو الجسمى السريع تكون فى الشهور التسعة الأولى .

إن سرعة النمو فى الرحم فائقة إذ ينمو الجنين من خلية واحدة إلى وليد يزن بين (٧ — ٨) أرطال ؛ ويبلغ طوله حوالى ٢٠ بوصة عند الميلاد .

ويستمر النمو سريعا فى مرحلة الحضانة إلا أنه يأخذ فى التباطؤ النسبى فى مرحلة الطفولة ، ثم يأخذ النمو فى السرعة فيما بين (١٠ — ١٢) عاما . وتستمر تلك السرعة فترة تستغرق عامين ومعنى ذلك أن النمو الجسمى يأخذ فى التباطؤ مرة ثانية .

---

(١) عن كتاب التربية الجنسية تأليف (سيرل بيبى) ترجمة الأستاذ رفعت رمضان وآخر تحت إشراف الدكتور اسحق رمزى — ص ١٦٠ .

(٢) نفس المرجع (التربية الجنسية) .

إن مرحلة النمو السريع الثانية تبدأ عادة قبل دور البلوغ الجنسى بعام ، وتستمر على هذا النحو فترة قد تصل إلى عامين أو أكثر ، مع ملاحظة الاختلاف بين الفتى والفتاة ، وبعبارة أخرى أن فترة النمو السريع فى مرحلة المراهقة تستمر عامين أو ثلاثة أعوام من (١٠—١٤) فى البنات و (١٢—١٥) فى البنين ، على أن يستمر النمو إلى ثمانية عشر عاما فى الفتيات وإلى ٢٠ عاما فى الفتيان .

ونحب أن نشير إلى أن طفرة النمو (growth spurt) فى مرحلة المراهقة أقل منها فى مرحلة ما قبل الميلاد ، ذلك لأن مقدار ما ينموه الطفل فى التسعة شهور الأولى ، يعادل ثلاثة أعشار (٣/١٠) ما يبلغه من نمو حتى نهاية العام الثامن عشر .

والمسئول عن ظاهرة النمو السريع فى دور البلوغ ، هو إفرازات الجزء الداخلى (growth hormones) التى تفرزها الغدة النخامية .

ولقد أجريت فى أمريكا بعض الأبحاث على الزيادات فى الطول بين الولد والبنت ، وإليكم خلاصة تلك الأبحاث[1] :

العمر	الطول بالقدم	فرق الزيادة بين البنت والولد بالبوصة
عند الميلاد	١ ١/٢ تقريبا	الولد ١/٢ بوصة أطول من البنت
٥ سنوات	٣ ١/٢ »	» » » » » »
١١ سنة	٤ ١/٢ »	يتساوى الولد والبنت
١٣ »	٥ »	البنت أطول ٣/٤ بوصة
١٥ »	٥ ١/٢ »	يتساوى الولد والبنت .
١٨ »	٦ »	الولد أطول من البنت بحوالى (٢ ١/٢ - ٣) بوصة

(1) A. Scheinfeld : Periods of slow and accelerated growth for boys and girls (1943).

أما عن الوزن ، فيلاحظ أن الزيادة فيه ترجع إلى نمو العضلات والعظام ولقد أجرى (ستلورث Shuttleworth)[1] فى عام ١٩٣٨ أبحاثا على زيادة الوزن فى الأطفال منذ الميلاد حتى نهاية سن العشرين ، وها هى خلاصة تلك الأبحاث :

(أولا) زيادة سريعة فى الوزن فى الفترة ما بين الميلاد حتى العام الرابع ، تقابلها زيادة أخرى فى الفترة التى تقع بين (١٤ — ١٦) عاما ؛ ذلك فى حالة البنين .

(ثانيا) أما فى حالة البنات فإن الطفرة الثانية . فى زيادة الوزن تكون مبكرة عنها فى البنين ، فهى تبدأ من الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة . ويرجع سبب التبكير فى زيادة الوزن عند البنت ، إلى أن دور البلوغ لديها يبدأ مبكرا عن الولد . وقد سبق أن ذكرنا أنه يصاحب دور البلوغ نشاط زائد فى إفرازات بعض الغدد يساعد على النمو .

وسنورد فيما يلى متوسطات الأطوال والأوزان لتلاميذ وتلميذات المدارس الثانوية والمتوسطة والفنية والعالية بالقاهرة من سن (١٢ — ٢٣) عاما[2] .

---

(1) F. K. Shuttleworth: The adoleecent period. Monograph Soc. Research Child Development, 1938. 3. No. 3.

(٢) قامت بهذه الدراسة الادارة العامة للصحة المدرسية (مراقبة الصحة الاجتماعية) فى عام ١٩٥١ .

مقدار العينة	فئات السن	بنين: الطول سم – المتوسط	بنين: الطول سم – الانحراف	بنين: الوزن ك . ج – المتوسط	بنين: الوزن ك . ج – الانحراف	بنات: الطول سم – المتوسط	بنات: الطول سم – الانحراف	بنات: الوزن . ك . ج – المتوسط	بنات: الوزن . ك . ج – الانحراف
٣٠٩	١٢	١٤٣٫١	٦٫٤	٣٧٫١	٧٫٦	١٤٧	٧٫٢	٣٩٫٥	٧٫٤
١٢٩٠	١٣	١٤٨٫٢١	٧٫٦	٣٩٫٤	٧٫٦	١٥١٫٢	٦٫٦	٤٤٫٦	٨٫
٢٣٣٥	١٤	١٥٣٫٥	٨٫٤	٤٤٫١٢	٩٫٢	١٥٤٫٦	٦٫٤	٤٦٫٩	٨٫٣
٣٠٧٥	١٥	١٥٩٫١	٨٫٦	٤٨٫٨	١٠٫١	١٥٧٫١	٥٫٦	٥٠٫٥	٨٫٠٤
٣٠٥٤	١٦	١٦٤٫٦	٨٫	٥٤٫٢	١٠٫١	١٥٧٫٥	٥٫٧	٥٢٫٤	٨٫١٨
٢٧٩٤	١٧	١٦٧٫٧	٧٫١	٥٨٫٥	٩٫٨	١٥٧٫٨	٥٫٢	٥٣٫٨	٧٫٦
٢٣١٧	١٨	١٦٩٫٣	٦٫	٦٠٫٤	٨٫٨	١٥٨٫٨	٥٫٦	٥٤٫٣	٧٫٩
١٥١٩	١٩	١٧٠٫	٦٫٢	٦٢٫٥	٩٫٢	١٥٨٫٨	٥٫٤	٥٤٫٤	٧٫٦
١١٢٥	٢٠	١٧٠٫٦	٦٫٦	٦٣٫٦	٩٫	١٥٩٫١	٤٫١	٥٥٫٦	٦٫١
٦٢٢	٢١	١٧٠٫٨	٦٫٤	٦٥٫٧	١٠٫٦	١٥٩٫٣	٥٫٤	٥٥٫٨	٨٫٢
٣٣٧	٢٢	١٧٠٫٩	٦٫٨	٦٥٫٧	٩٫٢	١٥٩٫٤	٥٫٨	٥٦٫٠	٨٫٤
١٥٤	٢٣	١٧٢٫٨	٦٫٦	٦٨٫٥	٩٫٢	١٥٩٫٧	٥٫٨	٥٦٫٩	٩٫٦

القدرة الحركية :

ينتج عن النمو الجسمانى السريع وخاصة فى الفترة الأولى من مرحلة المراهقة ، ميل نحو الخمول والكسل والتراخى ، ويصحب ذلك أن تكون حركات المراهق أو المراهقة غير دقيقة . ويطلق على هذه الفترة من حياة المراهق "the awkward age" ؛ وعلى العكس من ذلك فإننا نلاحظ أن الطفل فى مرحلة التعليم الابتدائى يبدو نشيطا ، كثير الحركة ، قليل القابلية للتعب مع ميل شديد للعمل لفترات طويلة . ويرجع كل ذلك إلى أن النمو فى الطفولة يسير بخطوات معتدلة .

أما فى الفترة بين (١٥ — ١٦) عاما ، حيث يكون المراهق قد وصل إلى قدر من النضج الجنسى ، فإننا نلاحظ أن حركات المراهق تصبح أكثر توافقا وانسجاما . و يلاحظ فى الوقت ذاته أن نشاط المراهق يأخذ فى الزيادة و يكون هذا النشاط من النوع البنائى ، أى من النوع الذى يرمى إلى تحقيق هدف معين على العكس من النشاط الزائد ، غير الموجه الذى يقوم به الأطفال فى المدرسة الابتدائية .

الحالة الصحية وعلاقتها بالنشاط الحركى :

تتميز مرحلة الطفولة المتأخرة بصحة جيدة . وكل ما يصيب الأطفال فى هذه المرحلة ، لا يخرج عن الأمراض العادية المنتشرة بين الأطفال ؛ وعندما يحل دور البلوغ نلاحظ تغيرا عاما فى صحة الفتى أو الفتاة . و يتميز هذا الدور بأنه فترة أقرب إلى المرض منها إلى الصحة ، و يرجع سبب ذلك إلى سرعة النمو وما يصاحبه من تغيرات داخلية . من أجل ذلك نلاحظ سرعة تعرض البالغ للاصابة بالأنيميا التى تجعل الجسم أقل مقاومة للأمراض التى يتعرض لها ؛ ومن المشاهد كذلك أنه فى هذه الفترة تكثر الإصابة بمرض السل وخاصة بين الطبقات الفقيرة .

وبالإضافة إلى كل ماسبق فإن سرعة النمو فى السنوات الأولى من مرحلة المراهقة تؤدى إلى أن المراهق يشعر فى الكثير من الأحيان بالإجهاد والميل إلى التراخى وعدم الرغبة فى اللعب ، كما يفقد الشهية ، و يشعر من وقت لآخر بآلام فى المعدة (عند البنات) كما يكون عصبيا ، قلقا دائم الشكوى من الصداع واضطراب ضربات القلب .

أما فى المرحلة الأخيرة من المراهقة نجد أن صحة المراهق تأخذ فى التحسن ؛ وقد أثبتت بعض الإحصاءات أن قلة من المراهقين فى هذا السن هى التى تستلزم أمراضهم استدعاء الطبيب . أن الكثير من الأمراض التى يشكو منها المراهقون والمراهقات فى هذا السن تكون أمراضا وهمية ، فهم يلجأون إلى الشكوى من المرض كوسيلة دفاعية للهروب من المسئوليات وخاصة ما يتعلق منها بالمدرسة .

ومن بين البواعث الأخرى التى تسبب سقم المراهقين فى هذا السن عدم الاستقرار والقلق الناجم عن الفشل فى حياتهم الغرامية ، وكذلك كثرة النزاع العائلى فى الأسرة ، وعدم التوافق ، والميل إلى التمرد فى المدرسة لكثرة الأوامر المدرسية وما تتضمنه من تقييد لحريته .

التغيرات الإنفعالية

إن المراهقة مرحلة عنيفة فى الناحية الإنفعالية ، حيث تختلج نفس المراهق ثورات تمتاز بالعنف والاندفاع ، كما تساوره من وقت لآخر أحاسيس بالضيق والتبرم والزهد . ولقد اختلف الباحثون فى تقسيم بواعث هذه الاضطرابات الإنفعالية التى تسود حياة المراهق ، فهناك من يرجعها إلى ما يطرأ من تغيرات على افرازات الغدد ، وهناك من يرجعها إلى العوامل البيئية التى تحيط بالمراهق .

انفعالات المراهق وطريقة دراستها :

تقوم دراسة الحياة الإنفعالية فى الطفولة على الملاحظة المباشرة التى تعتمد على تدوين استجابات الطفل الانفعالية والمثيرات التى تثير تلك الانفعالات . إن الاعتماد على الملاحظة المباشرة فى دراسة انفعالات المراهق ليست بالأمر السهل لأن المراهق لا يرغب أن يكون موضوع ملاحظة أو دراسة من البالغين .

ولهذا السبب لجأ المشتغلون بالدراسات التجريبية فى علم النفس إلى الاعتماد على طرق أخرى غير طريقة الملاحظة لدراسة حياة المراهق الانفعالية ، منها :

(١) طريقة المذكرات (diary method) إن أول من استعملت هذه الطريقة (شارلوت بهلر) وذلك فى عام ١٩٢٧ ، ثم (وليم اشترن) فى عام ١٩٣٠ .

ويعبر المراهق فى هذه المذكرات عن كل ما يعتريه من أزمات ورغبات وتأملات ؛ كل هـذه الموضوعات والأحاسيس تجعل للمذاكرات الخاصة للمراهقين أهمية كبرى فى دراسة حياتهم .

(٢) طريقة المذكرات المقيدة (Controlled diary method) : إن هذه الطريقة لا تجعل المراهق طليقا ، حراً فى تدوين مذكراته ، كما هو الحال فى الطريقة الأولى ، بل يكون مقيدا فى تدوين استجاباته الانفعالية ومشاعره فى ظروف خاصة ، كأن يكلف مثلا بأن يدون فى مذكراته استجاباته على أثر موقف معين ، كشعوره بالغضب مثلا على أثر نزاع بينه و بين والده .

(٣) طريقة الاستخبار : وهى طريقة معروفة متداولة فى الوقت الحاضر .

ويتكون الاستخبار عادة من مجموعة من الأسئلة توجه إلى المراهق ، وفى بعض الأحيان إلى المتصلين به . وعن طريق الإجابات المختلفة يصل المختبر إلى ما يريد من نتائج .

الخصائص الإنفعالية فى مرحلة المراهقة :

إن انفعالات المراهق تختلف فى نواح كثيرة عن انفعالات الطفل ، وكذلك الشاب . ويشمل هذا الاختلاف النواحى الآتية :

(١) تمتاز الفترة الأولى من مرحلة المراهقة بأنها فترة انفعالات عنيفة ، إذ نجد المراهق فى هذه السنوات يثور لأتفه الأسباب ، شأنه فى ذلك شأن الأطفال الصغار .

(٢) تتميز انفعـــالات المراهق بميزة أخرى ، وهى التقلب (inconsistency) وعدم الثبات ، حيث تجده ينتقل من انفعال إلى انفعال آخر فى مدى قصير . فقد يحدث مثلا أن يكون المراهق فى حالة بين الزهو والـكبرياء والفرح ، ثم تتحول هذه الإنفعالات فجأة إلى حالة أخرى تدل على القنوط واليأس .

(٣) وهناك ميزة ثالثة تتصل بانفعالات المراهق فى أوائل مرحلة المراهقة، وهى أنه إذا أثير أو غضب ، لا يستطيع التحكم على المظاهر الخارجية لحالته الإنفعالية : يصرخ و يعض و يرفس و يدفع الأشياء و يلقى بأطباق الطعام وكوبات المـاء على الأرض . . . الخ ونفس الظاهرة تبدو عليه عند ما يشعر بالفرح ، فإنه يقوم بحركات لا تدل على الاتزان الانفعالى ، حيث تجده أثناء حالة سروره ، يشد رباط الرقبة فى حركات هستيرية أو يقف على ساق واحدة أو يجذب أذن من أمامه ، أو يقوم ببعض اللازمات tics التى تدل على حركات عصبية .

(٤) يتعرض المراهق فى بعض الظروف لحالات من اليـأس والقنوط والحزن والآلام النفسية ، نتيجة لمـا يلاقيه من إحباط (frustration) بسبب تقاليد المجتمع التى تحول بينه وبين تحقيق أمانيه . وينشأ عن هذا الإحباط انفعالات متضاربة وعواطف جامحة تدفعه فى بعض الأحيان إلى التفـكير فى الانتحار .

(٥) تتميز هذه المرحلة فى الوقت ذاته — بتـكوين بعض العواطف الشخصية ، عواطف نحو الذات تأخذ المظاهر الآتية : الاعتداد بالنفس والعناية بالملبس وبطريقة الـكلام ، يبدأ المراهق يشعر بأنه لم يعد بعد الطفل الذى يطيع دون أن يكون له حق إبداء الرأى .

وهكذا نرى أن المراهق يختلف عن الطفل فى أنه لاتوجد لديه عواطف جمعية . إن الطفل فى المدرسة الابتدائية يشعر دائما بالحاجة إلى الولاء للمدرسة أو الأسرة أو الجماعة التى ينتمى إليها ، بعكس المراهق فإنه دائما فى ثورة ضد الأسرة والمدرسة وكذلك المجتمع .

هذا ويبدو أن المراهق فى الدور الأخير لهذه المرحلة يبدأ فى تكوين عواطف نحو الأشياء الجميلة ، نجده يحب الطبيعة ويتعشقها . ويعبر عن تلك الظاهرية بالرومانسية[1] ؛ وبجانب ذلك فإنه يبدأ فى تكوين بعض العواطف المجردة ، التى تدور حول موضوعات معنوية كالتضحية ، والدفاع عن الضعيف والمحروم .

أسباب مشكلات المراهق الانفعالية :

ترجع حساسية المراهق الانفعالية واضطرابه الانفعالى — كما أوضحت — إلى عدم قدرته على التلاؤم مع البيئة التى يعيش فيها ؛ إذ يدرك المراهق عند ما يتقدم به السن قليلا إن طريقة معاملته لاتتناسب مع ما وصل إليه من نضج وما طرأ عليه من تغير . إن البيئة الخارجية ممثلة فى الأسرة والمدرسة والمجتمع لا تعترف بما طرأ على المراهق من نضج ، ولا تأبه له ولا تقر رجولته وحقوقه كفرد له ذاتية . ويفسر المراهق كل مساعدة من قبل والديه ، على أنها تدخل فى أموره ، وأن المقصود من هذا التدخل إساءة معاملته والتقليل من شأنه ، ويأخذ الاعتراض على سلوك والديه أشكالا عدة ، أهمها : العناد والسلبية وعدم الاستقرار أو الاتجاء إلى بيئات أخرى قد يجد فيها منفذا للتعبير عن حريته المكبوتة .

(١) ارجع إلى كتاب النمو النفسى للأستاذ عبد المنعم المليجى ب ص ١٨٩

ومن بين الأسباب الأخرى التى تعمل على اضطرابه وعدم استقراره الانفعالى ، عجزه المالى الذى يقف دون تحقيق رغباته . فقد يجد نفسه وسط جماعة من رفاقه ينفقون عن سعة وهو فى الوقت ذاته عاجز عن مجاراتهم أو الاشتراك فى مسراتهم ؛ وكل ذلك يسبب له الضيق والشعور بعدم الطمأنينة .

وليست العقبات المالية قاصرة على الاشتراك فى مسرات رفاقه ، بل أنه فوق ذلك يشعر أنه قد اكتمل من الناحية الجنسية وأنه يريد أن يعبر عن تلك الدوافع الجامحة فى نفسه بالزواج ، إلا أنه يصطدم بالواقع ، فالقصور فى الموارد المادية يقف بينه و بين ما ينشد من استقلال ومن التعبير عن دوافعه الفطرية . « وهنا تزداد حدة التوتر الانفعالى ، اللهم إذا وجد بديلا يعبر به عن الدافع الجنسى القوى . ويكون الاحتلام من بين الوسائل الطبيعية للتعبير عن هذا النشاط الجنسى الزائد ؛ وعلى الرغم من أن هذه عملية طبيعية ، إلا أنها بالنسبة للكثير من الفتيان المراهقين كابوس يقض مضاجعهم ، فهم يعتبرونها خطيئة. ثم إن الجهلة وأدعياء المعرفة من الآباء غالبا ما يزيدون الطين بلة و يثقلون كواهل أبنائهم نتيجة لسوء الفهم والتقدير ؛ وهكذا يصبح الأمر الطبيعى الذى ينبغى ألا يستغرق التفكير فيه ثانية واحدة مصدرا للقلق والصراع العقلى ، بل يسبب فى بعض الأحيان شقاء يستمر مدى الحياة »[1] .

« وما يقال عن الاحتلام يقال كذلك عن العادة السرية و بالرغم من أن عملية الاستمناء لا تعد انحرافا حقيقية إلا إذا تمكنت من الشخص بدرجة زائدة عن الحد ، إلا أنه يترتب عليها مشكلة أخرى ، تتمثل فى الصراع العقلى

(١) عن كتاب التربية الجنسية — ترجمة الأستاذ رفعت رمضان وآخر (راجعه الدكتور اسحق رمزى) — ص ١٥١ .

الذى يحدث لممارستها نتيجة للتنديد بها ، إذ يحتمل أن ينتج عن ذلك شعور بالخطيئة وخوف ووجل ، مما يترتب عليه فقدان الشخص لثقته بنفسه . أن القضاء على عادة الاستمناء لا يكون عن طريق التقريع أو العقاب أو التشهير لأن ذلك يدفع إلى زيادة التكتم والاستمناء »[١] .

وتبدو مضايقات المراهق أو المراهقة بسبب ما يشعر به من عدم الثقة إذا ما وُجد فى بعض المواقف الاجتماعية التى يضطر إلى الاشتراك فيها مع الجنس الآخر، فحينئذ يشعر المراهق بعدم الانسجام وينجم عن ذلك ارتباكه .

وثمة ظاهرة أخرى يتسبب عنها مضايقات المراهق ، ذلك أن الكبار ينتظرون منه سلوكا ينم عن النضج ، فهذا التطور والنمو الجسمى يجعلهم يتوقعون منه نضوجا فى سلوكه العقلى والاجتماعى . ولما كان النضج الجسمى فى مرحلة المراهقة يتم سريعا — فى ظرف عامين أو ثلاثة — وهذه فترة قصيرة غير كافية لتحقيق نضوج المراهقين من الناحية العقلية ، يقابل ما طرأ على جسمه من نمو سريع . وهو لهذا السبب يقوم ببعض التصرفات الصبيانية التى تكون هدفا لنقد الكبار . أن هذا النقد وعجزه عن ملاءمة نفسه مع البيئات التى يتعامل فيها مع الكبار تشعره بعدم الأمن وخيبة الأمل .

ومن الأمور الأخرى التى تسبب قلق المراهق واضطراباته ، شعوره بأن الأسرة تتطلب منه تحمل بعض المسئوليات ، فهو فى نظر والديه لم يعد بعد الطفل الذى تجاب كل مطالبه دون تحمل للمسئوليات ، ولكنه وقد أصبح مراهقا يجد نفسه مطالبا أمام والديه بأن يعتمد على نفسه فى وقت تعجز فيه إمكانياته عن تحقيق رغبتهم .

---

(١) نفس المرجع — ص ١٥١ .

ومن بين الأسباب التى تساهم فى قلق المراهق الانفعالى ما يتصل بالأسرة والمدرسة ، وينشأ عن هذا القلق والاضطراب نوع من التمرد ، تمرد موجه نحو الوالدين وتمرد آخر موجه نحو المسئولين فى المدرسة . أن تمرد المراهق على السلطة العائلية والسلطة المدرسية بسبب القيود التى تفرضها المدرسة والأسرة ، والتى تحول بينه و بين تطلعه إلى التحرر والاستقلال . ولذلك يعتبر كل شىء فى المنزل أو المدرسة مصدر ضيق له . ويثور دائما على كل ما يوجه إليه من نصح ويعتبر هذا النصح اعتراضا على حريته واستقلاله ويميل دائما إلى تحدى الآراء والأوضاع القائمة .

إن التربية الصحيحة يحسن ألا تقابل الثورة بالثورة ، ولذلك يجب على الوالدين ، مثلا ، أن يخلقوا جوا من الثقة بينهم و بين أولادهم ، فإن هذا كفيل بإبعاد بعض العثرات التى يمثرها المراهق خلال فترة المراهقة . إن الوسيلة الوحيدة لأن نعيد للمراهق اتزانه الإنفعالى ، لا تكون بلومه ومعارضته وتأنيبه ولكن بمناقشته على قدم المساواة . وقد يحدث أن تكون ثورة المراهق على أهله أو مدرسيه على شكل اندفاع فى الكلام ليعرض آراءه ، ونحن فى هذه الحالة لا ننصح أن تكون استجابتنا لمثل هذا النوع من السلوك عن طريق الاذلال ، بل يجب أن ندعه يتكلم ، فإذا شعر أنه لا يلاقى أية مقاومة ، فسيتوقف من تلقاء نفسه عن محاولة فرض آرائه بعجرفة . ومهما يكن من أمر فإن أحسن سياسة تتبع مع المراهق هى سياسة احترام رغبته فى التحرر والاستقلال ، دون إهمال أمر رعايته وتوجيهه ، والمهم ألا يشعر بأننا أثناء توجيهه نفرض إرادتنا عليه ، لذلك وجب أن نناقشه دائما فى آرائه ، ونأخذ رأيه دائما فى القرارات التى تتصل به ، وأن ندعه دائما يتكلم فى كل الموضوعات فهذه أصوب طريقة لاكتساب ثقته وتوجيهه دون إشعاره بالضغط والإحباط .

سلوك المراهق الاجتماعى

تبدأ بذور التطور الاجتماعى للفتى المراهق أو الفتاة المراهقة فى مرحلة الطفولة المبكرة ، ذلك أن الحاجة إلى تكوين علاقات اجتماعية تبدأ فى السنة الأولى من حياة الطفل ، ثم تنمو هذه الحاجة الاجتماعية وتتطور عاما بعد عام. ولا شك أن الحاجة إلى الانتماء إلى جماعة من الجماعات ، سواء كانت هذه الجماعة : المنزل أو المدرسة أو رفاق اللعب لها آثارها القوية فى تكوين الفرد . ذلك أن الفرد عندما يشعر أنه عضو فى جماعة ، وأنه محبوب ومرغوب فيه ، من أعضاء هذه الجماعة ، فإنه يشعر بالسعادة والطمأنينة ، ولكنه إذا كان شعور الجماعة التى ينتمى إليها الفرد لا يقوم على شىء من الطمأنينة والعطف ، فإن ذلك يؤدى إلى تعاسته وشقائه .

إن السلوك الاجتماعى للفرد ما هو إلا عبارة عن عملية مستمرة ، تطورية ، فعلى حسب ازدياد سعة البيئة التى يتعامل معها الطفل تتشكل طريقة سلوكه ؛ فالسلوك الذى تعود عليه الطفل مثلا فى معاملة أفراد أسرته ، قد يبدو غير ملائم فى بيئات أخرى كرفاق المدرسة أو من يعاملهم من الكبار خارج جدران المنزل . إن انتقال الطفل من بيئة لأخرى يتطلب منه أن يعدل من نماذج السلوك التى كان يستعملها فى المنزل ، وأن يحاول جاهدا مسايرة أفراد كل مجتمع صغير يتعامل معه ، ذلك لأن أساس النجاح فى الحياة هو القدرة على تلك الملاءمة الاجتماعية .

الوعى الاجتماعى:

عند بدء مرحلة المراهقة نلاحظ زيادة واضحة متصلة بناحية الوعى الاجتماعى ، إذ يبدأ الطفل يشعر بحاجة ملحة للانتماء إلى جماعة ، وخاصة

عند ما يعترى العلاقة بينه و بين والديه شيء من الضغط والتوتر . إن سنوات المراهقة تكون مصحو بة عادة بتغيرات أساسية فى اتجاهات المراهق نحو ذاته ، تظهر آثارها فى سلوكه الاجتماعى .

فوعى المراهق الاجتماعى يجعله يتطلب من المجتمع الذى يتعامل معه الموافقة الضمنية على مطالبه وعدم الاعتراض عليها ؛ ولا شك أن فى هذا — لو تحقق — شيئا من تأكيد الذات . إلا أنه يلاحظ أن الحصول على موافقة المجتمع فى كل ما يقوم به المراهق من نشاط ليس بالأمر الميسور . ولذا كثيرا ما يحدث الاصطدام بين المراهق والمجتمع ، و ينشأ عن هذا قلق انفعالى بالغ الحدة يكون مصحو با بالحساسية الشديدة ، والشك فيمن يتعامل معهم وعدم الولاء لهم .

و يختلف هذا الشعور كلية عن حالته وهو طفل ، فالطفل الصغير يشعر بالولاء والمحبة والتقدير لوالديه وكل من يتعامل معهم من أقارب ومدرسين .

أثر الخبرات الاجتماعية الأولى فى حياة المراهق :

إن مدى نجاح المراهق فى ملاءمة نفسه فى المواقف الاجتماعية الجديدة خلال فترة المراهقة ، يعتمد إلى حد كبير على خبراته الاجتماعية الأولى ، وما كونه من اتجاهات نتيجة لهذه الخبرات . نحن لا ننكر أن انتقال الطفل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة ، يكون مصحو با بتغيرات تظهر آثارها فى سلوكه الاجتماعى ، إلا أنه بالرغم من ذلك يجب ألا يغيب عن الذهن أن الخبرات الأولى وما تحدثه من آثار تلعب دورا هاما فى تكييف سلوك الفرد فى المراحل اللاحقة ؛ ونستطيع أن ندلل على ذلك بمثال : طفل كان يشعر بعدم الطمأنينة فى بيئته المنزلية ، وذلك قبل ذهابه للمدرسة ، فمثل هذا الطفل

عندما يلتحق بالمدرسة يحمل معه هذا الشعور الذى يؤثر على نموه الاجتماعى فى بيئته الجديدة التى تتكون من رفاقه فى المدرسة ومدرسيه .

ومعنى ذلك أنه كلما كانت بيئة الطفل ملائمة ، كلما ساعد ذلك على أن يُكون علاقات اجتماعية ملائمة عند ما تتسع دائرة معاملاته .

إلا أنه رغم ذلك فليس من الحكمة أن نُعمم تلك القاعدة ، ذلك لأن مرحلة المراهقة غنية بمشكلاتها ؛ ومن ثم فليس من اليسير ضمان أن الطفل الذى ينشأ نشأة سليمة من وجهة نظر علم الصحة العقلية ، تكون استجاباته الاجتماعية عند ما يصل إلى مرحلة المراهقة خالية من الانحراف .

خصائص السلوك الاجتماعى فى مرحلة المراهقة :

(أولا) يميل المراهق فى السنوات الأولى من المراهقة إلى مسايرة المجموعة التى ينتمى إليها ، فهو يحاول جاهدا أن يظهر بمظهرهم ، كما أنه يتصرف كما يتصرفون و يفعل كما يفعلون .

وتتميز هذه المسايرة بالصراحة التامة والإخلاص لهم . ثم أننا نلاحظ بالتدريج أن الرغبة فى الاندماج مع المجموعة ، ومسايرة أفرادها مسايرة عمياء تقل شيئا فشيئا ، ويحل محل هذا الشعور اتجاه آخر يقوم على أساس من تأكيد الذات والرغبة فى الاعتراف به كفرد يعمل وسط جماعة ؛ ويرجع ذلك إلى وعيه الاجتماعى ونضجه العقلى وما يصاحب ذلك من زيادة فى خبراته .

والسبب الذى يدعو المراهق إلى الانسجام فى الجماعة التى ينتمى إليها فى أولى مرحلة المراهقة ، محاولته تجنب كل ما يؤدى إلى إثارة النزاع بينه وبين أفراد هذه الجماعة ، وهو إذ يفعل ذلك يرى أن أى نزاع بينه و بينهم ،

يعتبر فى منزلة ثانوية بالنسبة للنزاع الأكبر الذى يقوم بينه وبين السلطة المدرسية والوالدية . ومن ثم كان فى احترامه لرأى (شلته) وإخلاصه لهم وخضوعه لأفكارهم ، نوع من تخفيف الشعور بالإثم الناجم عن عدم طاعته لوالديه ومدرسيه .

(ثانيا) كلما أخذ المراهق فى النمو ، بدا على سلوكه الرغبة فى تأكيد ذاته ، فهو فى نظر نفسه لم يعد بعد الطفل الصغير الذى لا يباح له أن يتكلم أو يُسمع . إن المراهق فى منتصف مرحلة المراهقة يسعى أن يكون له مركز بين جماعته . ولأجل أن تعترف تلك الجماعة بشخصيته ، فإنه يميل دائما إلى القيام بأعمال تلفت النظر إليه ، ووسائله فى ذلك متعددة ، فهو تارة يلبس ملابس زاهية الألوان والمصنوعة على أحدث طراز ، كما يحاول التصنع فى طريقة كلامه وضحكه ومشيته ، أو يقحم نفسه فى مناقشات تكون فوق مستواه ، ويطيل الجدل فيما يكون بعيدا كل البعد عن خبراته ، وهو لا يفعل ذلك عن عقيدة ، بل حبا فى المجادلة والتشدق بالألفاظ الرنانة .

(ثالثا) يشعر المراهق فى السنوات الأخيرة لمرحلة المراهقة ، أن عليه مسئوليات نحو الجماعة أو الجماعات التى ينتمى إليها ؛ وهو لذلك يحاول جُهد استطاعته أن يقوم ببعض الخدمات والإصلاحات بغية النهوض بأفراد تلك الجماعة ، إلا أنه فى الوقت ذاته لا يجد تقديرا من الجماعة لآرائه . وهنا يأخذ فى الاعتقاد أن الجماعة إنما تريد أن تحطم عبقريته . إن تكرار هذه الصدمات ومايصاحبها من شعور بالفشل ، يجعله لا يرغب فى القيام بأى محاولات جديدة للنهوض بذلك المجتمع الصغير الذى يتعامل معه ، ثم بالتدريج نلاحظ أن هذا الشعور يزداد شدة حتى ينتقل من المجتمعات الصغيرة إلى المجتمع العام .

(رابعا) يمتاز سلوك المراهق بالرغبة فى مقاومة السلطة . وهناك من الأسباب ما يدعو المراهق إلى الثورة ضد السلطة ممثلة فى الأسرة والمدرسة أو المجتمع العــام . وتكون الثورة ضد السلطة الوالدية واضحة ، لأن المراهق يتشوف إلى أن يجد نفسه فى عالم آخر خارج البيئة المنزلية ، عالم ملىء بالأصدقاء والزملاء ، عالم ملىء باتجاهات جديدة وبالحرية والاســتقلال والتحرر من التبعية الطفلية . وهو إذ يتطلع إلى كل ذلك ، يرى فى والديه ومدرسيه عقبة كؤودا فى سبيل تحقيق أمنيته .

وتأخذ مقاومة السلطة ، على مستوياتها المختلفة ، مظاهر عدة : ثورة وتمرد واحتجاج وغضب وتهديد بالهرب من المنزل أو محاولة إيجاد عمل وترك الأسرة والتطوع فى سلك الجندية أو الجمعيات الهدامة . وتكون الفتيات أقل مقاومة من الفتيان لتقاليد الأسرة ، وهن فى الغالب يكن أقل ثورة من الصبيان عند إبداء احتجاجهن على القيود المفروضة عليهن . وتبدو هــذه الظاهرة جلية فى فتيات الأسرات ذات التقاليد المرعية أو من كانت حالتهن الاجتماعية والاقتصادية ملائمة . وتأخذ أحيانا مقاومة الفتيات لسلطة الأسرة بعض الصور غير المباشرة ، كتفضيل الزواج المبكر أو إيجاد عمل لهن يحقق بواسطته ما ينشدن من حرية واستقلال ، أو يتركن أنفسهن هدفا لأحلام اليقظة .

ومن الخطأ أن تقابل مقاومة المراهق للسلطة بالضرب أو العقاب البدنى أيا كان نوعه ، لأن ذلك من شأنه زيادة مقاومة المراهق وعناده وتحديه للسلطة المفروضة عليه .

إن رغبة المراهق والمراهقة فى التحرر من التبعية الطفلية تصطدم عادة بمقاومة من الوالدين ، أولا ، لأنه يصعب عليهما التخلص من الفــكرة

السائدة من أنهما المسئولان عن سلوك إبنهما أو بنتهما ، فهو أو (هى) — فى نظرهما — ما زال الطفل الصغير الذى يجب أن يطيع أوامرهما .

و يعتبر المراهق كل تدخل من والديه فى شئونه الخاصة ، أو إهمال مطالبه ، نوعا من السيطرة ، ومن ثم فهو يقابل هذه السيطرة بالثورة أو العصيان أو الشعور بالغيظ وعدم الطمأنينة . وغالبا ما يخرج المراهق أثناء ثورات غضبه عن المألوف فى سلوكه نحوهم ، وكلما زادت رغبة والديه فى الحد من حريته و إهماله ، زاد المراهق عنادا وزاد نفورا منهما والنتيجة المنطقية لهذه المعاملة ، أن يشعر المراهق بعدم السعادة ، كما يفقد الثقة بنفسه و يميل إلى التكاسل والتراخى ، و يبدو وجهه شاحبا وجسمه ضامرا وصحته العامة عليلة ورغبته فى العمل غير موفورة ، وهذه عوامل تؤثر — دون شك — على حيويته .

ولقد أبرز الروائى الإيطالى المعاصر (البرتو مورافيا) فى الكثير من قصصه ما ينتاب المراهق من أحاسيس ، تؤيد ما نقول . وسأقتبس فيما يلى بعض ما جاء فى قصته الكبرى « مراهق ! » لتوضيح وجهة نظرنا[١] :

« عاد (لوكا) إلى المدينة من المصيف وهو متوعك المزاج ، وسرعان ما سقط مريضا . . . وكان طوله قد زاد فى الفترة الأخيرة بسرعة غير عادية ، حتى غدا فى طول الرجل الناضج وهو لما يتجاوز الخامسة عشرة . غير أنه ظل نحيلا ، ضامر الوجه ، شاحبه . ولو أنه كان يعى دقة حالته الصحية وما تستتبع من أخطار ، لسأل أبويه أن يعفياه من الدراسة ، ولكنه لم يستطع أن يتعرف العلاقة بين ضعفه البدنى و بين نفوره من دروسه ، ففى هذه السن تستيقظ الحساسية بينما يظل الوعى نائما ! وقد اعتاد أن يذهب إلى

---

(1) Luba : (Alberto Moravia).
عن مجلة كتابى (شهر يونيو ١٩٥٣) .

المدرسة ، لذلك لم ير داعيا لأن يكف عن الذهاب ، وكانت الدروس تبدو له متراكمة كجبل أملس السفح فلا موطىء يستطيع أن يثبت فيه قدمه ليتمكن من تسلقه . .

وبدا له أن العزيمة لم تكن تنقصه ، وإنما الذى كان يعوزه هو القوة البدنية ، إذ كان يحس أحيانا بجسده يتداعى كجواد منهك حمّله راكبه من الإرهاق ما لا قبل له به . . .

وكان يدهشه أن ذلك الجسد الذى أوتيه كان يثور عليه أحيانا ، لأسباب تافهة ، لا لأمور جسام . . وكانت تتولاه نوبات من الغيظ يحس خلالها أن الجسد المرهق يحرق ما تبقى فيه من قوة ، فى لهب من الكراهية والتمرد . . . وكثيرا ما تأتى هذه النوبات عن استعصاء أشياء بسيطة عليه ، فيحس أن لا سبيل له إلى استعمالها إلا بجهد أو عناء . . . كما لو انعقد رباط حذائه فتعذر عليه أن يفكه . . أو انقلبت المحبرة على كراسة « الواجبات » فاضطر إلى أن يعيد نقل الصفحة التى غمرها المواد ! وقد يصر على أسنانه غيظا ، أو يلقى بالمحبرة إلى الأرض ، أو ينفجر فى بكاء يخيل إليه أنه يفضفض به عن أسى عظيم ، متغلغل ، عميق !

وهكذا كان يحس أن الدنيا تعاديه ، وأنه يعادى الدنيا ، وكان يشعر أنه يعلن على كل ما يحيط به حربا شعواء تحطم الأعصاب .

وكان غيظه من هذه الأشياء التى لا حول لها ولا حياة ، وعجزه عن أن يحبها ويسيطر عليها ، قد بلغا أشدهما فى هذا الصيف وهو فى المصيف . . وزاد الأمر سوءا أنه بدأ يشعر بأن عطف أمه وحنانها لم يعودا يسريان عنه همه فى الحال ، كما كان عهده بهما . . وإنما فقدا سحرهما وتأثيرهما القديم ! . بل لقد تبين أخيرا أن والديه لا يحبانه أو يرعيان شعوره كما كانا قبلا . .

من قبيل ذلك ما حدث له وهو عائد بالقطار من المصيف : كانت أمه قد أوحت إليه بأنهم سيتناولون غداءهم فى عربة الأكل الملحقة بالقطار . وأطربه ذلك ، فما سبق له أن ولج عربة للأكل . . ولكن عندما مر خادم عربة القطار ، تشاغل عنه والد « لوكا » . . حتى إذا ابتعد الخادم قال الأب : « لا بأس . نستطيع أن نبتاع من المحطة التالية سلالا من تلك التى تضم كل منها وجبة للغذاء » . وأحس « لوكا » بغضب محتدم يتقد فى أعماقه ، فقد آلمه أن أحدا من والديه لم يعن بتعرف رأيه ، كأنه ليس إنسانا له آراء وذوق ورغبات ! . وشعر فى الوقت ذاته باستياء شديد ، إذ كانت فكرة الغداء فى عربة الأكل قد أبهجته . . وإلى جانب هذين الإحساسين ، تولاه ذلك الغيظ الذى اعتاد أن يجتاحه إذا ما شعر بالأشياء أو بالناس تقاوم إرادته . . وخيل إليه أن هذا الغيظ ينبعث من أعماق سحيقة فى نفسه ، فينفخ نارا تكويه وتهز كيانه . وامتقع وجهه ، وصر على أسنانه ، وأغمض عينيه . . وكأنما شل جسده لفرط الثورة ! . . ثم فتح عينيه وتأمل وجهى أبويه ، فبدت له صرامة أمه وقوة سلطانها ، وطيبة أبيه وشفقته ، كما لو كانت خلالا تنطوى على عداء له ؟

ووجد نفسه ينهض إلى دورة المياه ، فيتأمل وجهه وقد قربه من المرآة ، ويفتح فاه عن آخره كما لو كان يصرخ من أعماق نفسه دون صوت ! .. وظل كذلك برهة وهو يتخيل أنه يصرخ بصوت يعلو على ضجيج القطار . . ثم عاد إلى مجلسه .

ولم يجد بنفسه رغبة للطعام حين قدم إليه ، ولكنه تناوله كارها . . حتى إذا فرغ منه ، خيل إليه أنه وقف فى حلقه فلم يقو على الانزلاق إلى جوفه ! وظل غضبه قائما ، وإن بدا أقل من ذى قبل إيلاما ، كأنما فقد جسده الحس ، واختل فكره . . وشرد وعيه . . لكم هو حانق على كل الموجودات ، حانق

على القطار الذى حمله إلى المدينة ، ليذهب إلى المدرسة ويلتقى بالدروس . . حانق على أبويه اللذين عدلا عن أن يتيحا له الغداء فى عربة الأكل ، دون أن يسألاه رأيه ، أو يتعرفا رغبته !

* * *

وما أن استقر فى البيت الذى طالما شهد ثوراته تذوب فى جو الملل والسأم ، حتى اتخذ غيظه شكلا آخر جديداً عليه . . وكأنه فطن إلى خطل العنف فتحول فجأة إلى رغبة فى الاستسلام والاستخذاء ، ولم يعد جسده يتوتر فى فوراته الساخطة ، وإنما غدا يتراخى . . وكثيرا ما كان يستغرق فى النوم على المنضدة التى أعدت فى غرفته للاستذكار ، لغير ما داع يبرر حاجته إلى النوم.. وكان حين يستسلم لمثل هذه النوبات الطارئة يستشعر نوعا من الرضى الحاقد ، رضاء الناقم اذ يثأر لنفسه . ويدرك أن هذا الشعور ينطوى على ناحية هدامة ، ويكشف عن عدائه للدنيا . وما نومه إلا لون من الاستسلام يركن إليه لعجزه عن المضى فى هذا العداء . .

ولقد حاول فى البداية أن يغالب نوبات النوم هذه ، أو أن يحكى أمرها لوالديه — كعادته كلما ظن أنه مريض — ولكنه فى هذه المرة أحس بأن حاله هذه ليست وليدة ضعف ، وإنما هى مظهر لغرض ، إذ أنه تخلى عن زهوه بأنه طالب علم ، ولم يعـــد يعبأ بالدراسة التى أسقمته ، فوجد فى النوم والتكاسل وسيلة لإهمالها . . بل وأخذ يشجع نفسه على الاسترسال فيهما ليقنعها بأنه يصدر فى كسله عن رغبة حرة ، لا تحت ضغط مرض أو سبب فوق قدرته .. ولما كان من غير المستطاع أن يمضى فى النوم إلى ما لا نهاية ، لذلك راح يبحث عن منفث آخر لتمرده على الدروس ، وهذا التفكير ، واللذة الناقمة التى كان يستشعرها فى التمرد ، إلى ما أسماه بلغته الخاصة : « التدرب على

تشتيت الفكر » فكان يقرأ عبارات دروسه أو يكتبها فى توتر آلى رتيب ، صرف ذهنه عنها تماما ، فلا تلبث أن تغدو حفنة من حروف جوفاء . خاوية ، لا معنى لها . . كأنها كلمات ميتة ، صيغت بلغة مجهولة ! . وكان هذا الشرود يفضى به عادة إلى النوم ، فيقبل عليه مغتبطا بأنه لن يكون ملما بدروسه فى المدرسة فى الغد !

أما فى المدرسة فكانت مهمته أبسط وأسهل . كان يكفيه أن يجلس فى مقعده ، وأن يسدل على عينيه وأذنيه غشاوة من الإنصراف ، فيبدو له شرح المدرس ككلمات غريبة وتعاويذ غامضة ، أو كحديث الأحياء فى أذنى ميت ! . ولقد كان فيما مضى يحرص على قدر نفسه ، ويتقدم زملاءه دائما ، ولكنه غدا منذ بداية العام الدراسى الجديد من أسوأ الطلبة . . وكانت التقارير السيئة التى انهالت عنه تبعث فيه نوعا غريبا من اللذة والرضى . وإن لم يكن يتمالك أن يشعر بمرارة ممضة وهو يرى أحواله فى المدرسة تتدهور يوما بعد يوم . . وكثيرا ما اعترف لنفسه بأنه لا يجد محفزا أو واعزا يحضه على ذلك ، اللهم إلا تبريرا سلبيا . .

وكان يسأل نفسه محيرا : « لماذا أفعل كل هذا ؟ » . ولا يجد جوابا . . والأيام تمضى سرعا » .

* * *

وليست ثورة المراهق وعصيانه وتبرمه موجهة ضد السلطة الوالدية فحسب فهى فى الوقت ذاته تمتد إلى المدرسة ، ذلك لأن المدرسة فى نظر المراهق هى امتداد لسلطة الوالدين ورمز للحد من حريته : فالمدرسون واللوائح المدرسية والنظام المدرسى الخ كلها أمور تفرض القيود على المراهق وتدفعه إلى

الاحتجاج والتذمر والعصيان . ولقد أجرى (جونز[1]) استفتاء يتكون من خمسين سؤالا لمعرفة الأمور التى لا يحبها المراهقون فى المدرسة ، وكان أهم ماوصل إليه النتائج الآتية :

(١) أن يُكوّن المدرس فكرة خاطئة عن التلميذ .

(٢) العقاب لأمور لم يرتكبها التلميذ .

(٣) الشدة فى تصحيح أوراق الامتحانات .

(٤) كثرة الواجبات المنزلية .

(٥) أن يترك أمر المدرسة إلى فئة قليلة من التلاميذ .

اتجاهات المراهق الاجتماعية :

قد أجريت الكثير من الأبحاث لدراسة اتجاهات المراهقين الاجتماعية ، نلخصها فيما يلى :

(١) ميل المراهق إلى النقد ورغبته فى الإصلاح :

من الشائع فى دور المراهقة أن تجد المراهق يبحث فى أخطاء الآخرين مع ميله إلى نقد تصرفات الغير . ولا يتخذ هذا النقد شكلا سلبيا ، بل نجده لايتورع فى الإفصاح عما يشعر به ويكون هذا النقد فى بعض الأحيان مصحوبا باقتراحات عملية فى الإصلاح ؛ ولا يقتصر هذا الميل على جماعة معينة من الناس أو هيئة من الهيئات التى يتعامل معها بل تجد أن روح النقد شاملة ، فهى توجه ضد الأسرة والمدرسة والمجتمع بصفة عامة . إن هذه الهيئات جميعا تكون مصدر ضيق للمراهق ، فهو لذلك لايتوانى عن نقدها لعله يصل إلى إصلاحها ، وفى حالة ما إذا تعذر عليه ذلك يزداد ضيقه ، وقد يشتد بعد ذلك نقده ، وقد ينطوى على نفسه يائسا من الوصول إلى مأربه .

(I) Jones H. E. : Development in adolescence (1943).

إن أول ما يوجهه المراهق من نقد يكون نحو والديه ؛ وينصب هذا النقد بصفة مبدئية على مظهر الوالدين من حيث الملبس والسلوك وطريقة تربيتهما لإخوته الصغار . إن أى شىء فى والديه لايطابق آباء أو أمهات أصدقائه ، أو لا يطابق المستويات التى يراها فى السينما أو التى يقرأ عنها فى الكتب والمجلات ، يسبب له الكثير من الضيق الذى يدفعه إلى نقدهم ، وإذا لم يؤد هذا النقد إلى أى تغيير يبتغيه ، نجده يشتد فى نقده لهم ، وقد يصل هذا النقد إلى الاحتجاج الشديد .

ويوجه النقد أحياناً إلى ثقافة الوالدين ولهجتهم فى الكلام وعملهم ، فإن هذه أمور تشعر المراهق بالخجل ولقد اقتبس الأستاذ عبد المنعم المليجى فى كتابه « النمو النفسى » بعض الفقرات من كتاب الأيام للدكتور طه حسين[1] ، استنتج منها كيف أن المراهق يثور ويتمرد على مهنة الأب وكذلك على ما يعتنقه الأب من عقائد ويخضع له من تقاليد .

وكما يوجه نقد المراهقين إلى والديهم ، فإنه ينصب كذلك إلى المنزل ، من حيث موقعه وأثاثه وتنظيم هـذا الأثاث ، والطعام وطريقة طهيه ومواعيد الأكل . . . الخ . ويتأثر المراهق فى هذا النوع من النقد بما يراه فى السينما وما يشاهده فى منازل أصدقائه ؛ وهو لـكل ذلك يشعر بالخجل ويرفض أن يدعو أحد أصدقائه إلى منزله لئلا يطلع على أمور لاتروقه .

(٢) الرغبة فى مساعدة الآخرين :

كلما زادت خبرة المراهق زاد وعيه لمشكلات المجتمع الاجتماعية : سوء توزيع الثروة ، الفقر والضغط على الضعفاء .

---

(١) كتاب الأيام — الجزء الثاني ص ١٤٠ — ١٤٣ .

ونتيجة لكل ذلك فإن اتجاهه نحو الآخرين يصبح اتجاها إنسانيا .
ويتدرج شعوره هذا إلى المجتمع ونظمه ، فينظر إليه نظرة فاحصة . ولا يصل المراهق إلى هذه الدرجة إلا فى مرحلة متأخرة من المراهقة حيث يكون قد حقق قدراً من النضج العقلى وبلغ قسطا من الثقافة .

إن عدم رضاء المراهق على النظم السائدة فى الدولة يجعله يقوم بدور إيجابى فى مساعدة الآخرين دون النظر إلى أن هؤلاء تربطهم به رابطة صداقة أو معرفة . وقد يحدث فى الكثير من الأحيان أنه يفترض نفسه فى مركزهم فيتخيل أنه يعانى من نفس الأسباب التى تسبب لهم الشقاء ؛ فهو فى كل هذا يشعر بشعورهم ويتألم لألمهم ، وهذا الشعور يدفعه إلى الاشتراك فى أعمال البر وفى المؤسسات الاجتماعية التى ترعى الفقراء والمحتاجين والمرضى .

(٣) اختيار الأصدقاء :

يختار المراهق من يريد من أصدقاء بنفسه ، ويرفض أى تدخل من والديه فى ذلك الموضوع ، بعكس الطفل ، الذى لا يمانع مطلقا فى أن يختار له الوالدان بعض الأصدقاء ، أو أن يُشار عليه بقطع علاقته بهم ؛ ومعنى ذلك أن موقف الطفل من والديه بالنسبة إلى اختيار الأصدقاء — إنما هو موقف سلبى ، بعكس المراهق فإنه يقوم بدور إيجابى عند اختيارهم .

ولما كان الفتى المراهق يصر على اختيار أصدقائه دون توجيه الكبار ، فإن الحظ دائما ما يخطئه ، إذ يثبت له بعد الخبرة والتعامل معهم ، أن الكثيرين منهم غير جديرين بصداقته . وهنا يدب النزاع بينه وبينهم فتنفصم عرى الصداقة ، ويتبع ذلك دائما شعور بخيبة الأمل . وعندما تكرر هذه الخبرات السيئة ، المصحوبة بالفشل ، يبدأ المراهق التدقيق فى اختيار أصدقائه الذين يجب أن تتوفر فيهم شروط خاصة .

إن أول ما يتطلبه المراهق فى صـديقه هو أن يكون قادرا على فهمه ويُظهر له من الود والحنان ما يساعده على التغلب على حالات الضيق وعدم الاستقرار التى تؤرقه من وقت لآخر . وقد يحدث فى بعض الأحيان ، أن يكون هذا الصديق أكبر منه سنا (أحد مدرسيه أو أقارب مثلا) ؛ ويشترط فى أمثال هؤلاء الأشخاص ، ألا يكون لهم عليه سلطة مباشرة ، وتـكون علاقة المراهق بهم قائمة على الود والاحترام ، ومن ثم يجد جواً ، طليقا ، حرا ، يتحدث فيه عن متاعبه ورغباته دون تـكلف .

وقد يحدث — بجانب ذلك — أن يختار المراهق نوعا آخر من الأصدقاء تربطه بهم عوامل مشتركة ، فالرياضى يفضل صحبة الرياضى . والجد ، الدؤوب على العمل ، يختار عادة من الأصدقاء من يشترك معه فى هذه الصفات . . . وهكذا .

إن الصداقات التى يكونها الفتى أو الفتاة المراهقة تـكون أكثر دواما من الصداقات التى تتكون فى مرحلة الطفولة والتى تنفصم عُراها لأتفه الأسباب إن صديق الطفولة لا يخرج عن كونه رفيقا من رفاق اللعب ، فعندما تنتقل الأسرة من مسكنها إلى مسكن جديد ، تنقطع صلة الطفل برفاق اللعب من أبناء الجيران السابقين ، ولا يحاول الاتصال بهم أو السؤال عنهم ، كأن لم تـكن تربطه بهم أى صلة من الصلات ، فى وقت من الأوقات ، وقد يحدث أن يدور حديث الأسرة حول جيرانهم القدماء ، إلا أن ذلك لا يحرك الطفل ساكنا ، فهو مشغول بما كونه من صداقات جديدة فى الحى الجديد الذى تسكنه الأسرة . ويلاحظ نفس الاتجاه فى المدرسة فإن الطفل ميال إلى اختيار أصدقائه (رفاق لعبه) من بين زملائه فى الفصل ، وإذا ما انتقل إلى فصل آخر أو فرقة أخرى ، فإنه يبحث عن رفاق جدد من محيطه الجديد.

إن أساس اختيار الأصدقاء فى مرحلة الطفولة ، يقوم على أنهم رفاق فى اللعب ، بعكس الصداقات التى تتسكون فى مرحلة المراهقة ، فهى تقوم ، حسب ما بينا ، على أسس متنوعة ، منها ما يتصل بالميول أو القدرة والمهارة .

هذا ونلاحظ أنه فى الفترة الأخيرة من المراهقة ، يميل المراهق إلى اختيار أصدقاء من الجنس الآخر ، كما يميل إلى قضاء وقت أطول معهن ، وسنستعرض لهذا الموضوع عند مناقشة الميول الجنسية .

(٤) الميل إلى الزعامة :

ان الزعيم أو القائد (leader) ، هو ذلك الشخص الذى يستطيع أن يكون له أتباع ومريدون ، نتيجة تأثيره عليهم .

ولما كانت أنواع النشاط والميول فى مرحلة المراهقة مختلفة ومتعددة ، ولما كانت كل ناحية من هذه النواحى تحتاج إلى زعيم تتوفر فيه شروط خاصة ، وجب أن توجد أنواع مختلفة من الزعامات فى هذه المرحلة .

إن هناك أنواعا من الزعامات المدرسية :

(١) زعامة اجتماعية .

(٢) زعامة ذهنية .

(٣) زعامة رياضية .

ومن المعروف أنه قلما توجد زعامة عامة فى مرحلة المراهقة ، إلا أنه قد يحدث فى بعض الحالات أن يجمع زعيم فى ناحية معينة ، صفات الزعامة فى ناحية أخرى ، كأن يكون مثلا الزعيم الذهنى هو الزعيم الدينى .

ولا شك أن لكل نوع من هذه الزعامات ، صفات خاصة تميزها عن غيرها . فالزعيم الذهنى ، يمتاز بكونه يحصل على درجات عالية فى علومه

المدرسية ، وفى اختبارات الذكاء ، كما تتصل ميوله بالتحصيل والمعرفة ؛ بينما الزعيم الاجتماعى يميل إلى العناية بملابسه ومظهره الخارجى وقدرته على التعامل مع الناس .

ولقد أثبتت أبحاث (بارتردج و ودنكرلى)[1] أن الخصائص الآتية — بصفة عامة — لازمة لتكوين الزعيم فى مرحلة المراهقة :

(١) خصائص جسمية تتصل بالوزن والطول والصوت والقوة البدنية .

(٢) خصائص تتصل بالملبس والمظهر الخارجى ؛ وليس معنى ذلك أنه يشترط فى الزعيم أن يكون جميل الوجه ، يستعمل المساحيق و يمشط شعره و يصفه بطريقة خاصة و يرتدى أحدث (الموديلات) ، بل أن يكون هندامه نظيفا ، مرتبا و يكون شكله غير قبيح .

(٣) أن يكون ذا ذكاء فوق متوسط المجموعة التى يتعامل معها ، لأن ذلك يساعده على توجيه تلك المجموعة و إصدار القرارات . ودرجة الذكاء اللازمة للزعيم — لا شك — تختلف باختلاف نوع الزعامة ، فرئيس فريق رياضى لا يحتاج إلى نسبة عالية من الذكاء كرئيس جماعة ثقافية مثلا .

(٤) للمركز الاجتماعى له أثر كبير فى اختيار الزعماء . فأمثال هؤلاء يعيشون فى عائلات لها من الوسائل ما يمكنهم من اكتساب خبرات لا تتوفر فى كل بيئة ، وتكون أمثال هذه الخبرات من العوامل التى تساعد على ظهورهم .

(٥) خصائص تتصل بالشخصية ، ومن أهم السمات التى تجعله شخصية محبوبة ، ما يلى : فرديته واعتماده على نفسه وقدرته على الابتكار وعلى إصدار الأحكام .

---

(1) E. Hurlock : Adolescent development p. 191—195 (1949).

النظرة إلى الزعيم فى مرحلتى الطفولة والمراهقه :

فى فترة الطفولة المبكرة نجد الزعيم هو أكثر الأطفال عنفاً وعدوانا وسيطرة ؛ وفى أواخر هذه المرحلة وأوائل مرحلة البلوغ ، نلاحظ أن أمثال هؤلاء الزعماء تذهب عنهم السلطة تدريجيا ، ففى ذلك الوقت يبدأ الطفل يشعر بذاتيته ، وهذا الشعور الجديد يصاحبه تغير فى نظرته إلى الزعامة والزعماء، إنه يريد من زعيمه شخصاً يمكن التعاون معه ، لا شخصاً يسيطر عليه . ولهذا وجب أن تتوفر فى شخصية الزعيم صفات معينة ، وإلا لم يجد المراهق فيه ما ينشده من رغبة فى إيجاد شخص يؤثر فيه و يقدم له النصح والإرشاد .

التغيرات العقلية

النمو العقلى وتطوره :

إن النمو العقلى لا يسير بسرعة واحدة فى جميع الأعمار ؛ فقد أثبتت الأبحاث أن هذا النمو يكون بطيئا فى الصغر ، ويلى ذلك فترة نمو عقلى سريع وذلك خلال فترة الطفولة المتأخرة حتى مرحلة المراهقة المبكرة ، ثم يأخذ النمو العقلى ابتداء من العام السادس عشر فى البطء[1].

إن هذا الارتقاء فى عالم الطفل العقلى أثناء النمو وخاصة فى مرحلة المراهقة ، يؤثر بدوره على خبرات الطفل وعلى قدراته العقلية المختلفة (كالتذكر والتركيز والاستدلال والتخيل) .

القدرة على التذكر :

سبق أن ذكرنا أن قدرة الطفل على التذكر تزداد مع العمر ، ومعنى ذلك أن قدرة المراهق على الحفظ تفوق الطفل ، وذلك من حيث استيعاب

(1) Psychology of Adolescence by L. Kole (1946) — P. 451

أكبر كمية ممكنة من المعلومات وحفظ هذه المعلومات مدة أطول . كما يلاحظ أن المراهق يفضل التذكر القائم على الفهم ويبذل فى الحفظ مجهودا أقل من حفظ المادة غير المفهومة .

القدرة على الاستدلال :

يقول (جيتس) أنه كلما كان الطفل صغير السن ازداد تركز تفكيره العادى حول الحوادث المتصلة بخبراته المباشرة وأموره الذاتية . فإذا ما تقدم به العمر غدا أكثر قدرة على أن يشغل نفسه بأمور غير مباشرة ، وأن يعالج أمورا معنوية تختلف عن المشكلات المحسوسة . ويمكن ملاحظة هذه التغيرات (فى دور المراهقة) فيما يتصل بزيادة المعانى المرتبطة بمختلف ألفاظ اللغة التى يستعملها ، وفيما يظهره من اهتمام بالأمور الاجتماعية ومن القدرة على معالجتها ، وفى قدرته على إدراك ما يقع فى العالم الواسع من حوادث ماضية ومستقبلة[١] .

القدرة على التخيل :

إن المراهق فى هذه المرحلة من مراحل النمو يكون واسع الخيال ، ويبدو ذلك جليا من كتاباته بعكس ما نلاحظه على كتابات الأطفال فى المدرسة الابتدائية . وأصدق تعبير نستعمله لأجل أن نفرق بين أساليب الخيال عند الأطفال والمراهقين ، أن أساليب الفئة الأولى هى أساليب ضحلة ، ساذجة ، بسيطة ، ليس فيها صناعة ؛ بينما أساليب الخيال عند المراهق فيها تزيين وزخرفة . ونستطيع أن ندال على ذلك بما ورد فى كتاب زميلنا الدكتور عبد المنعم المليجى (النمو النفسى) فى وصف مراهق للجنة : «أتخيل الجنة حديقة

---

(١) علم النفس التربوى (تأليف أرثر جيتس) ، ترجمة الأستاذ إبراهيم حافظ ومحمد أبو العزم والسيد محمد عثمان — ص ٢١١ .

غناء ، وقف على أبوابها ملائـكة ، أما أرضها فقد فرشت بالحصباء وانسابت فى وسطها الأنهار ، وعلى شواطئها نمت أشجار الفا كهة ، فهذا تفاح وهذا عنب وذاك نخل ورمان ، وهناك أشجار الزيتون ذات الطلح المنضود والظل الممدود ، فيها الورد يعانق الياسمين ، وفيها الفل يضحك للقرنفل وفيها عيون من لجين، تشخص بأحداق من الذهب قامت على قضب من الزبرجد ... ولقد سبى لبى منظر الحور العين ، يخطرن بين هذه المناظر الأخاذة بالقلوب ، وفى ثياب لم ترها عينى من قبل » .

ومن هذا الوصف يتضح لنا كيف أن المراهق يتمتع بخيال خصب وبروح رومانتيكية يتفتح القلب فيها للحب وتنبثق فيها المشاعر الجميلة التى يمكن توجيهها نحو أهداف فنية رائعة .

القدرات الخاصة وميول المراهق نحو اختيار المهنة :

من أهم خصائص النمو العقلى فى مرحلة المراهقة ظهور القدرات الخاصة . ولأجل أن نفهم هذا الموضوع يحسن بنا أن نشرح فى شىء من الإيجاز طبيعة الذكاء ، وسنكتفى فى هذا الصدد بنظرية العاملين كتفسير لهذه القدرة العقلية: أثبت « اسبيرمان » فى عام ١٩٠٤ وجود عامل عام يشترك فى كل نشاط ذهنى. وهذا العامل العام لا يعمل بمفرده ، بل يوجد إلى جانبه فى كل عملية عقلية عامل نوعى خاص بها . إن هذا العامل النوعى يختلف من عملية لعملية أخرى فى الفرد الواحد . ومعنى ذلك أن لـكل شخص مقدارا ثابتا من الاستعداد العقلى العام يؤثر فى نجاحه فى جميع العمليات العقلية التى يحاولها ، ولـكن هذا الاستعداد العـام لا يعمل وحده بل يوجد إلى جانبه استعداد نوعى خاص بكل عملية ؛ والنجاح فى العملية المعينة يتوقف على الاستعدادين معا ؛ فقدرة

الفرد على حل مسألة حسـابية تتوقف على استعداده العقلى العام من جهة وعلى استعداده الخاص لحل هذا النوع من المسائل من جهة أخرى . وقدرة الشخص على الرسم تتوقف كذلك على استعداده العقلى العام من ناحية وعلى استعداده الخاص للرسم . بحيث يجوز أن يكون استعداده العام عاليا ومع ذلك لا يكون بارعا فى الرسم ، مما يجعل مجموع العاملين معا أقل من مجموعهما عند شخص آخر ينقص عن الشخص الأول فى العامل العام ، ولـكنه يفوقه فى العامل النوعى[1] .

ولقد ظهر (لسبيرمان) بعد ذلك أن هناك علاقات بين القدرات النوعية ، ولذلك أضاف إلى العاملين السابقين نوعا ثالثا أطلق عليه العامل الطائفى . إن العوامل الطائفية عبارة عن عوامل مشـتركة بين مجموعة من الأعمال ، إلا أنها لا تدخل فى جميع مظاهر النشاط العقلى ؛ أو بعبارة أخرى ، تدخل فى تلك الأعمال المتحدة فى الموضوع أو فى الشكل ، وقد ثبت حتى الآن من هذه العوامل الطائفية أو (القدرات الخاصة) مجموعة هى القدرة الرياضية ، والقدرة اللغوية والقدرة الموسيقية . . . الخ[2] .

وزيادة فى الإيضاح نستطيع أن نقتبس ما ورد فى كتاب « قياس الذكاء » للأستاذ القبانى ، إذ يقـول : « إن العوامل الطائفية هى وسط بين العاملين الأصليين ، فلا هى عامة تدخل فى سـائر العمليات العقلية ، ولا هى نوعية يقتصر فعلها على عملية معينة . مثال ذلك : أنه يوجد عامل طائفى يؤثر فى سائر القدرات الحسابية من جمع وطرح وضرب . . . الخ . فقدرتى على جمع عددين إذن تتوقف على ثلاثة أنواع من العوامل : العامل العام الذى تشترك فيه جميع

(١) من كتاب «قياس الذكاء» للأستاذ محمود القبانى (١٩٣٨) ص (٢٩ — ٣٠) .
(٢) علم النفس التربوى للدكتور زكى صالح ص ١٧٠ (الطبعة الرابعة) .

العمليات العقلية ، وعامل طائفى يؤثر فى مختلف العمليات الحسابية دون غيرها من العمليات ، وعامل نوعى خاص بتلك العملية المعينة .

اختيار المهنة وعلاقة ذلك بالقدرات الخاصة :

عندما يقترب المراهق من نهاية تعليمه فى المدرسة الإعدادية ، يجدر بالمدرسة أن تكون قد اكتشفت عن طريق الاختبارات المختلفة ميوله واتجاهاته الشخصية نحو اختيار المهنة .

وأود أن أشير إلى نقطة ، وهى أن من عادة الآباء اختيار المهنة لأبنائهم وبناتهم وهم صغار ، ويقوم أساس اختيارهم على عوامل عدة ، فمن الآباء من يرغب أن يتبع الطفل أباه فى مهنته ، ومنهم من يتمنى أن يتعلم طفله مهنة كانت رغبة الوالد شديدة فى أن يتعلمها ، ومنهم من يتمنى اختيار مهنة لولده تكون ذات صيت وذات نفوذ . وأعتقد أن هذا العامل الأخير هو الذى كان يدفع الآباء فى الريف — لعهد قريب — إلى إلحاق أبنائهم بكليات البوليس أو الحقوق لأن هذه الوظائف — من طبيعتها — لها مظاهرها الخاصة. إن رغبة الآباء تقوم فى أساسها على ما يريدون هم ، دون مراعاة لميول واتجاهات واستعدادات أطفالهم . والأطفال عندنا يستمعون إلى آبائهم وهم يتحدثون عما اختاروه لهم مقدما من مهنة ، لا يبدون اعتراضا بل إنهم على العكس من ذلك يبتسمون ويشعرون بالزهو ، إذ يصبح منهم من سيكون طبيبا أو مهندسا أو طيارا — الخ . . وعندما يصل الطفل إلى مرحلة المراهقة نجد أن موقفه بالنسبة لاختيار مهنته يختلف كل الاختلاف، فيصبح إيجابيا بعد أن كان سلبيا، ويعتقد إذ ذاك أن اختيار المهنة مسألة شخصية تخضع لميوله ورغباته .

ولا شك أن اختيار المهنة على أساس ميول المراهق له علاقة كبيرة بقدرته على ملاءمة نفسه اجتماعيا ، فبقدر هذا التلاؤم يتوقف رضاؤه وتقدمه فى الحياة ، و بقدر فشله فى مهنته وعمله تزداد حياته سوءاً وقنوطا .

ويجب ألا يغيب عن الذهن أن الميل وحده غير كاف لتوجيه الفتيان والفتيات المراهقين ، فهناك بالإضافة إلى ذلك عوامل أخرى لها أهميتها فى اختيار المهنة ونعنى بها الذكاء والشخصية والاستعداد ونوع التعليم الذى تلقاه .

إن المراهق فى السنوات الأولى من تلك المرحلة يكون تواقا إلى عمل يعمله دون أى اعتبار للقدرات والاستعدادات التى يتطلبها العمل الذى يختاره . وهذا الاندفاع فى اختيار مهنة معينة يترتب عليه ، فيما بعد ، عدم رضائه عن عمله . وهذا الذى يدعونا إلى القول بأن اختيار مهنة للمراهق فى سن مبكرة له من الأضرار بقدر ما له من الفوائد ، فكما أنها تحقق رغبة المراهق فى التحرر من السلطة الوالدية والاستقلال والاعتماد على النفس ، وهذه أمور يطرب لها فى هذه السن المبكرة ، إلا أن ذلك يؤدى به فى غالب الأحيان إلى الفشل والإخفاق فى العمل . والنتيجة المنطقية لكل هذا هو عدم الرغبة فى مواصلة هذا العمل مما يؤدى به إلى التعطل والبطالة . وقد دلت الإحصاءات على أن ثلث عدد المتعطلين يتكون من شبان صغار فيما بين (سن ١٤ — ١٦) .

ويحسن أن تؤجل رغبة المراهق فى اختيار مهنته إلى السنوات الأخيرة من مرحلة المراهقة ، حيث تزداد فى ذلك الوقت خبراته وتتنوع ميوله وتتضح اتجاهاته .

وهنا يكون اختياره للمهنة قائما على أساس متين ، ولا تحدده رغبة طارئة أو ميل مؤقت أو نصيحة يتقدم بها صديق من أصدقائه أو مدرس من مدرسيه. ولقد أجريت أبحاث كثيرة لدراسة مدي ثبات اختيار المهنة عند مجموعة من

المراهقين فى أعمار مختلفة ، فلوحظ أن نسبة كبيرة ممن اختاروا مهنتهم فى أعمار متأخرة لم يغيروا اختيارهم . والعكس بالعكس فى الأعمار المتقدمة (الصغيرة) .

ومن أهم الأبحاث التى أجريت لدراسة هذه الناحية الدراسات التى قام بها معهد العناية بالطفولة فى جامعة كاليفورنيا .

قراءات المراهقين :

للقراءة والاطلاع أهمية فى حياة الفرد ، فهى تساعد على اكتساب المعلومات ، كما أنها تعتبر وسيلة من وسائل الترفيه والتسلية . إن الطفل — بعكس المراهق — لديه من وقت الفراغ ما يسمح له بقضاء الوقت قصد التسلية ، أما المراهق فلديه من الميول المتعددة ما يسمح له بتوجيه نشاطه فى ميادين مختلفة وأهمها الحياة الاجتماعية . ولقد اتضح من أبحاث (Terman—Lima) (ترمان وليما)[1] أن الرغبة فى القراءة بقصد التسلية تصل قمتها فيما بين ١٢ — ١٣ سنة ، و بعد ذلك نجد أن قراءة الفرد تحددها ميوله ورغبته فى التزود بالمعلومات والخبرة . ولقد أيدت أبحاث (Eberhart) فى عام ١٩٣٩ النتائج السابقة ، فقد اتضح له أن الطالب فى الفرقة السابعة من مرحلة الدراسة الأمريكية (وهى تعادل سن الثانية عشرة) يقرأ بمعدل ٣١ قصة (fiction) فى العام ، تنقص إلى ١١ فى سن السادسة عشرة (فى الفرقة الحادية عشرة) ؛ يقابل ذلك ما يقرب من ٢٫٥ بالنسبة للكتب غير القصصية (Nonfiction reading) فى سن الحادية عشرة و ٥ — ٦ كتب فى الأعمار ١٦ — ١٧ على التوالى . ومعنى ذلك أن نوع قراءات المراهق وكمية ما يقرأ تختلف باختلاف العمر ، فهو ميال إلى قراءات القصص فى السنوات

---

(1) E. Hurlock ; Adolescent Development (1949) P.208—210.

المبكرة من حياته وتقل تلك الرغبة فى السنوات المتأخرة من مرحلة المراهقة ، بعكس ميله إلى قراءة الكتب ذات المعلومات العامة التى تحددها ميوله واستعداداته ، فإن هذه الرغبة تقل فى السنوات الأولى من مرحلة المراهقة وتأخذ فى الزيادة فى السنوات الأخيرة .

وخلاصة الأبحاث الأمريكية التى أجريت لمعرفة ميول القراءة فى مرحلة المراهقة يمكن تلخيصها فيما يلى :

(١) فى سن ١١ لوحظ أن المراهقين من الذكور يميلون إلى قراءة قصص المغامرة والموضوعات الخاصة بالاختراع ، بينما الفتيات يملن فى هذا السن إلى قراءة القصص التى تتصل بالحياة المنزلية ، والمدرسية ، وبالإضافة إلى ذلك فإنهن ما زلن يملن إلى القصص الخيالية (fairy tale) والقصص التى تروى على لسان الحيوانات .

(٢) تبدو رغبة المراهقين فى سن ١٢ إلى قراءة قصص البطولة والقصص التاريخية وتاريخ حياة مشاهير الرجال والنساء وخاصة المكافحين والعباقرة منهم .

(٣) فى سن ١٤ نلاحظ أن الفروق الفردية فى القراءة تأخذ فى الظهور ، كما أننا نلاحظ أن المراهق لا يقرأ كل ما يعطى له أو كل ما تقع عليه يده ، كما هو الحال فى الطفولة ، فهناك رغبة فى الاختيار تحددها ميول المراهق ، فهناك من يميل إلى قراءة الشعر وهناك من يميل إلى قراءة القصص الغامضة وهناك من يميل إلى قراءة القصص الغرامية .

(٤) فى سن ١٥ نلاحظ زيادة فى قراءة قصص الاختراع والمخترعين والقصص الخاصة بالأسفار والرحلات والكتب الفنية التى تتفق وميول المراهق وهواياته .

(٥) وعندما يبلغ المراهق ١٦ عاما ، نجده يميل إلى القـراءة الخاصة بالحوادث الجارية والرياضة وكل ما يتعلق بالمعلومات العامة .

قراءة المجلات :

(١) قراءة المجلات والجرائد الدورية تكون أكثر تداولا لدى الفتيان المراهقين والفتيات المراهقات ، ويرجع ذلك إلى رخصها وتنوع موضوعاتها وماتحويه من صور إيضاحية . ولقد قام جونسن فى سنة ١٩٣٢ [1] بدراسة تفصيلية لمعرفة أهم ما يميل إليه هؤلاء مما تنشره المجلات المختلفة من الموضوعات .

وفيما يلى ما توصل إليه (جونسن) من نتائج :

موضوعات المجـلة	العمر ما بين ١٤ — ١٦ سنة	
	بنين	بنـات
قصص قصيرة	٪٩١	٪١٠٠
فـكاهات وموضوعات طريفة	٪٨٢	٪ ٨٦
قصص طويلة	٪٦٥	٪ ٨٤
قصص علمية	٪٧٢	٪ ٣٤
رحلات وأسفار	٪٤٠	٪ ٤٦
إعلانات	٪٣٨	٪ ٣١
أخبـار	٪٣٨	٪ ٣٦
مقالات سياسية	٪١٨	٪ ١٥
مقالات عن رجال نجحوا فى حياتهم	٪ ٨	٪ ٤

ويتضح من هذه الدراسة أن أكثر الموضوعات انتشاراً بين المراهقين والمراهقات فيما بين (١٤ — ١٦ عاما) هى القصص القصيرة والفـكاهات والموضوعات الطريفة ، ويلى ذلك فى الأهمية المقالات العلمية والرحلات ، وأقل الموضوعات استثارة للمراهقين فى هذه السن المقالات السياسية .

---

(1) Johnson B. M.: Children's reading interests as rclated to sex and age (1932).

اتجاهات المراهقين نحو القراءة فى مصر :

أما فى مصر ، فقد أجرى الأستاذ محمد حامد الأفندى . المعيد بمعهد التربية للمعلمين ، بحثاً عن « موضوعات القراءة التى يميل إليها الطلاب فى المرحلة الثانوية »[1] فاختار لذلك عدداً من مدارس البنين والبنات الثانوية ، فى أنحاء متفرقة من مدينة القاهرة ، تمثل الأوساط الاجتماعية المختلفة ، بعضها مدارس أميرية ، وأخرى حرة . وأجرى التجربة على (١٣٣٧) ألف وثلاثمائة وسبع وثلاثين طالبة وطالباً ، أما البنات فكنَّ : ٦٤٠ طالبة ، وأما البنون فكانوا : ٦٩٧ طالبا وذلك على النحو الآتى :

الجنس	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	المجموع
البنات	٢٠٥	٢٧٧	٢٠٨	٦٤٠
البنون	٢٧٢	٢٢١	٢٠٤	٦٩٧
	٤٧٧	٤٤٨	٤١٢	١٣٣٧

وكانت أعمار الطالبات فى السنة الأولى الثانوية تتراوح بين سن ١٤ ، ١٨ ، وفى السنة الثانية بين ١٥ ، ١٩ ، وفى السنة الثالثة بين ١٦ ، ٢٠ .

أما أعمار الطلاب فتراوحت فى السنة الأولى الثانوية بين ١٤ ، ١٧ ، وفى السنة الثانية بين ١٥ ، ١٨ ، وفى السنة الثالثة بين ١٦ ، ١٩ .

ومعنى هذا أن المدى بين سن أصغر طالب وسن أكبر طالب فى السنة الدراسية الواحدة هو ثلاث سنوات ، على حين كان هذا المدى أربع سنوات ، بالنسبة للطالبات ، وكانت توجد أقلية ضئيلة جداً تزيد فى السن أو تنقص سنة عن المدى ، سواء فى البنين والبنات .

---

(١) وقد نال بهذا البحث درجة «الماجستير فى التربية» فى يونية ١٩٥٥ .

وقد قدم للطلاب والطالبات عددا من قطع القراءة فى موضوعات مختلفة ، اختيرت بطريقة علمية معينة ، و بعد أن حصل على الإجابات المطلوبة ، حللها بطرق إحصائية مختلفة ومتعددة ، ليضمن سلامة نتائجه ، وقد جاءت نتائج هذه الطرق متفقة تماما ، بعضها مع بعض ، ويمكن تلخيص هذه النتائج فيما يلى :

البنون :

دلت الاختبارات على أن الطلاب فى السنوات الدراسية الثلاث « الأولى والثانية والثالثة » : يفضلون قصص البطولة فى المرتبة الأولى ، ثم الموضوعات العاطفية ، فالموضوعات الاجتماعية ، ثم الموضوعات التى تتناول العلوم والمخترعات، ثم قصص المغامرات ، فالموضوعات الفكاهية ، فالموضوعات السياسية ، ثم الموضوعات التى تبحث فى الفلسفة وما وراء الطبيعة .

وهذه الموضوعات ، و إن اتفق ترتيب الميل إليها فى السنوات الدراسية الثلاث ، إلا أن درجة الميل إلى كل منها تختلف من سنة دراسية إلى سنة أخرى .

البنات :

وقد اتفق البنات فى الميل إلى بعض الموضوعات ، فى السنوات الدراسية الثلاث ، واختلفن فى الميل إلى بعضها الآخر ، وذلك على النحو الآتى :

السنة الأولى :

فضل البنات فى السنة الأولى الموضوعات العاطفية وقصص البطولة فى المرتبة الأولى ، ثم الموضوعات الاجتماعية فقصص المغامرات ، ثم الموضوعات الفكاهية فالموضوعات التى تتناول العلوم والمخترعات ، فالموضوعات السياسية ، ثم الموضوعات التى تبحث فى الفلسفة وما وراء الطبيعة .

السـنة الثانية :

وفضل البنات فى السنة الثانية فى المرتبة الأولى : الموضوعات العاطفية ، وفى المرتبة الثانية قصص البطولة والموضوعات الاجتماعية ، وفى المرتبة الثالثة الموضوعات الفكاهية ، وفى المرتبة الرابعة موضوعات العلوم والمخترعات وقصص المغامرات ، وفى المرتبة الخامسة الموضوعات السياسية ، وأخيرا الموضوعات التى تبحث فى الفلسفة وما وراء الطبيعة .

السـنة الثالثة :

وفضل البنات فى السنة الثالثة ، الموضوعات الآتية بالترتيب :

الموضوعات العاطفية — قصص البطولة — الموضوعات الاجتماعية — قصص المغامرات — موضوعات العلوم والمخترعات — الموضوعات الفكاهية — الموضوعات السياسية — موضوعات البحث فى الفلسفة وما وراء الطبيعة .

موضوعات أخرى :

وقد أجرى الأستاذ محمد حامد الأفندى ، اختبارا بطريقة أخرى ، توصل منه إلى أن الطلاب والطالبات فى المدارس الثانوية يفضلون قراءة موضوعات أخرى على النحو التالى :

الموضوعات التاريخية : يفضل قراءتها ٩١,٥٪ من البنين و ٧٣٪ من البنات .
« الثقافية : « « ٨٣٪ « « . . . .
« الدينيـة : « « ٨٠٪ « « و ٩٥٪ من البنات .
« البوليسية : « « ٧٨٪ « « و ٧٦٪ « « .
« الأدبية : « « ٦٧٪ « « و ٧٧٪ « « .
موضوعات الدراما : « « . . . . ٨٧٪ « « .
الموضوعات الخيالية : « « . . . . ٨١٪ « « .
موضوعات علم النفس : « « . . . . ٨١٪ « « .

الاستماع إلى المذياع (الراديو) :

أصبح للإذاعة أثر هام فى حياة الأفراد ، كما أنها ناحية من النواحى التى يصرف فيها الفرد جزءا كبيراً من أوقات فراغه . ولقد تبين من الإحصاءات الأمريكية أن ١١٪ من المراهقين الذين شملهم البحث يقضون أكثر من ثلاث ساعات يوميا فى استماع الراديو ، بينما يقضى ٦٦٪ منهم ما بين (١—٣) ساعات يوميا ، والباقون وهم حوالى ٢٣٪ يقضون أقل من ساعة .

ومن مشاهداتنا أن الكثير من الفتيان والفتيات المراهقات بمجرد عودتهم من المدرسة أو من عملهم يسرعون إلى الراديو ويمكثون بجواره الساعات الطوال مستمعين إلى ما يعرض من برامج ، ولا يحول ذلك — فى الوقت ذاته — دون القيام بواجباتهم المدرسية أو تناول طعامهم أو الحديث فى شتى الموضوعات أثناء الاستماع .

ومن عادة المراهق أن يستمع إلى أى شىء يذاع ، إلا أنه إذا ما أعطى حريته فى عمل البرامج الإذاعية ، فلا شك أنه يقصرها على موضوعات خاصة. ولقد أجريت أبحاث فى أمريكا[1] لمعرفة أكثر الموضوعات تفضيلا لدى المراهقين اتضح منها ما يلى :

نوع البرنامج	بنين	بنات
القصص والمسرحيات	٧٠٫٧	٧١٫٥
المتنوعات والفكاهات	٤٢٫٠١	٤٦٫٧
الموسيقى	٣٩٫٧	٦٦٫٠٤
الرياضة	١٣٫٧	١٫٩
الأخبار	٨٫٩	٨٫١
الموضوعات التعليمية	٤٫٢	٣٫٣

(1) Wittyetal ; A study of radio interest amony high school students (1041) .

و يتضح من ذلك أن ميول المراهقين نحو القصص والمسرحيات واضحة جدا. و يلى ذلك ميلهم نحو الفكاهات ، أما عن الميل للموسيقى فهو أكثر وضوحا فى البنات منه فى البنين ؛ وعلى العكس من ذلك نلاحظ رغبة المراهقين الذكور إلى الاستماع لأخبار الرياضة .

أحلام اليقظة :

إن أحلام اليقظة وسيلة من الوسائل المهمة التى يعبر بها المراهق عن ميوله ؛ ومن غير المألوف أن نجد فتى مراهقا (أو فتاة مراهقة) دون أن يكون له خبرة بهذا النوع من التفكير الذى يوجه و يسيطر على سلوكه و يسهل له الحياة .

إن أحلام اليقظة ظاهرة عقلية توجد فى جميع الأفراد ، إلا أنها تكون واضحة فى مرحلة المراهقة ، كما أن الموضوعات التى تدور عليها هذه الأحلام فى هذه المرحلة تختلف عنها فى المراحل السابقة أو اللاحقة لها .

هذا واجب أن أشير إلى أن أحلام اليقظة فى دور المراهقة لا تعتبر ظاهرة مرضية ، إنما ينظر إليها على كونها ظاهرة طبيعية ، أو خاصية من خصائص النمو العقلى فى هذا الدور .

وقد قسمت (Pruette — ١٩٢٤) أحلام اليقظة عند المراهقين والمراهقات إلى طائفتين :

(ا) أحلام يقظة تدل على الشعور بالعظمة والقوة والسيادة daydreams of surperiority.

(ب) أحلام يقظة تعبر عن الشعور بالنقص (daydreams of inferiority)

و يعتبر النوع الأول من أحلام اليقظة وسيلة للتفنيس من آماله ومشروعاته المستقبلة وخاصة ما يتصل منها بغرامياته ، و يعينه خياله عوناً كبيراً على تنمية

هذا النوع من الأحلام ، فقد يتخيل المراهق نفسه فى بعض الأحايين بطلا قوى الجسم ، مفتول العضلات ، رأى فتاة حسناء تغرق وحولها جمع غفير من القوم يترددون فى إنقاذها فتأخذه الحمية ، فيقفز إلى الماء معرضاً نفسه إلى أشد الأهوال وأخطبها ، ويخرج من الماء حاملا الفتاة بين ذراعيه القويتين؛ إن هذا النوع من التخيل فيه شىء من التعويض لما يشعر به المراهق من عجز وقصور فى إمكانياته.

أما النوع الثانى من أحلام اليقظة فهو نوع من الماسوشسية (masochistic) تلجأ إليه الفتيات المراهقات عادة فى حالات القنوط واليأس الشديد إذ يدفعها هذا الشعور باليأس إلى تخيل نفسها فى مواقف تسبب لها الآلام والتعذيب ، وهى تجد فى هذا النوع من التعذيب لونا من الراحة النفسية ، شأنها فى ذلك شأن من يبكى عند مشاهدة مسرحية حزينة ، إلا أنه يجد فى هذا البكاء راحة للنفس ، فالدموع فى أمثال هذه الحالات تهدئ الأعصاب .

إن أحلام اليقظة سلاح ذو حدين ، فكما أنها تثير من همة المراهق وتدفعه إلى العمل لتحقيق ما يفكر فيه فى عالم الخيال وتكون وسيلة لتوجيه الناحية الابتكارية وتنميتها (creative art) ، إلا أنها فى الوقت ذاته تعتبر مضيعة لوقت المراهق على حساب إهماله لنواح كثيرة من النشاط الذى يستطيع أن يقوم به لتنمية ميوله المتعددة ؛ وبالإضافة إلى كل ذلك فإن بعض المراهقين يجدون إشباعا لحاجاتهم فى خيالهم ، ومن ثم لايبذلون إلا جهداً بسيطاً محدوداً لتحقيق نجاح واقعى فى حياتهم العادية ؛ وأخيراً يجد المراهق أن ما يمر بخاطره من خبرات عن طريق أحلام اليقظة يبدو أكثر تشويقا من الخبرات التى يمارسها فى حياته الواقعية ، ومن ثم فهو لايميل إلى الأخيرة ولا يحب أن يبذل جهداً حقيقياً لتحقيق ميوله بشكل عملى ، ولذلك نجده يركن إلى أحلام يقظته ليشبع تلك الميول والرغبات عن طريق الخيال .

الاتجاه الخلق والشعور الدينى

الاتجاه الخلق

معنى كلمة خُلق :

المقصود بكلمة خُلق (morality) مجموعة العادات والآداب المرعية ونماذج السلوك التى تطابق المعايير السائدة فى مجتمع ما .

إن القيم الأخلاقية التى تقبلها جماعة من الجماعات قد ترفضها جماعة أخرى تعيش فى نفس المجتمع ؛ وقد يحدث أحيانا أن تتغير تلك القيم من وقت لآخر ، على حسب ما تتعرض له البيئة من تطور . ومعنى هذا أنه لا توجد معايير سائدة ، عامة ، يشترك فيها الناس قاطبة ؛ وكل ما هنالك ، أن الفرد إذا ما أراد أن يعيش فى وئام مع الجماعة التى ينتمى إليها، عليه أن يتعلم الشرائع والدساتير الخلقية السائدة فى تلك البيئة ، و يعمل وفقا لها .

المعايير الخلقية عند الأطفال :

إن خُلق الطفل يتحدد فى السنوات الأولى من حياته ، فهو يتعلم — دون مناقشة — ما هو الخير وما هو الشر ، من والديه ومدرسيه وغيرهم من الكبار .

إن الخير فى نظر الطفل الصغير ، يتكون من الأشياء التى يُسمح له القيام بها ، بينما الشر يقتصر على تلك الأعمال التى لم تجد قبولا عند الكبار . ولقد سألت مرة جماعة من الأطفال فى إحدى مدارس الرياض ، عن معنى كلمة « أمانة » ، فكانت إجابة الكثير منهم : « أنها عمل ما تنصح به الأم » .

فكرة المراهق عن الخُلق :

فى مرحلة المراهقة نلاحظ تحولا كبيرا فى نظرة المراهق للخلق والمعايير الخلقية . إن المراهق يختلف عن الطفل فى كونه لا يتقبل أى مبدأ خلقى دون مناقشة ، ومعنى ذلك أن موقف المراهق بالنسبة لما يُلقى عليه من مواعظ ، إنما يكون موقفاً إيجابيا ، بعكس ما كان عليه عندما كان طفلا ، فقد كان يتقبل كل فكرة أخلاقية دون إظهار أى ريبة فيما يقوله أو يعمله الكبار .

إن الفتاة المراهقة وكذلك الفتى المراهق يناقش فى صراحة كل ما يصدر عن والديه من أعمال ، ويحاول أن يصدر أحكامه على هذه الأعمال ، فيقبل منها ما يروقه وما يتمشى مع منطقه ، ويرفض ما يتعارض مع مثله العليا ؛ وهو لا يعجز فى الوقت ذاته أن يجد لنفسه من الأسباب ما يؤيد وجهة نظره ، ويجادل والديه فى صحة ما يعتقد .

وهناك ظاهرة أخرى يمتاز بها سلوك المراهق الخلقى : يختلف المراهق عن الطفل فى أن فى استطاعته التفكير فى صيغ عامة ، تساعده على أن يُكون لنفسه (مُثل عليا ideals) . إن مُثل المراهق ، ما هى إلا تجميع لخبراته التى بدأت فى مرحلة الطفولة ثم تبلورت فى مرحلة المراهقة على شكل صيغ أخلاقية عامة (مُثل) ، تسيطر على أعماله وتوجه سلوكه[1] . ويحضرنى الآن أمثلة عديدة تدل دلالة واضحة على ما يمتاز به سلوك الكثير من المراهقين والمراهقات من مثالية عالية فى الأخلاق : خذ لذلك مثل هؤلاء الفتيان (والفتيات) الذين يعملون ليل نهار فى جمع التبرعات لمشوهى الحرب ، أو لرعاية الطفولة المشردة ، أو لعلاج المصدورين . . . الخ ، دون أن يكون لهم مقصد

(1) L. Cole : Psychology of Adolescence (1946) P. 388.

أو كسب مادى . إن كل مراهق أو (مراهقة) يقوم بهذا العمل يكون مدفوعا بدافع إنسانى قوى .

ونستطيع أن ندلل على شهامة المراهقين ومثاليتهم العالية بمثل آخر . . . مثل هؤلاء الطلاب الذين اشتركوا فى حرب فلسطين أو فى معركة القنال بعد إلغاء المعاهدة المصرية الإنجليزية (١٩٣٦) . كان الكثير من هؤلاء فى سن المراهقة ، ذهبوا وضحوا بأنفسهم فى سبيل مبدأ وطنى جليل دون رهبة أو وجل .

يستمر المراهق متحليا بهذه المثالية الأخلاقية فترة من الزمن ، إلا أنه كلما زاد فهمه للمجتمع الذى يعيش فيه و يتعامل معه ، تكشف له أن هذه المثالية بعيدة كل البعد عن حياة المجتمع الواقعية . إن المراهق لا يصل إلى هذه النتيجة المؤلمة ، إلا فى نهاية مرحلة المراهقة ، حيث يكون قد حقق قدراً من النضج العقلى ، وهنا يبدو للمراهق أن مُثله العليا التى ارتسمها لنفسه ، صعبة التنفيذ ، وخاصة عندما تتسع الدائرة التى يتفاعل فيها ، وتخرج من حيز الأسرة الضيق إلى مجال اجتماعى أوسع : كالمدرسة أو الكلية التى يتعلم فيها أو المصنع أو المصلحة التى يؤدى فيها عمله . فى ذلك الوقت يساور المراهق الشك فى القيم الأخلاقية التى كان يدين بها ، فتبدو له الحياة مليئة بالمتناقضات، مهوشة ، لامعنى لها ، بغيضة ، كلها رياء . والنتيجة المنطقية لهذا الشعور الجديد خيبة أمل ، لاحد لها فى آماله وأمانيه ونظرته للحياة تنتهى بأحد أمرين : الانطواء على النفس بعيدا عن المجتمع ، أو الاندفاع فى غمار الحياة الاجتماعية لإشباع دوافعه الفطرية ، دون احترام لما يفرضه المجتمع من تقاليد اجتماعية أو سنن أخلاقية .

الشعور الديني[1]

إن شعور الطفل الديني يختلف في وجوه كثيرة عن شعور الفتى أو الفتاة المراهقة. إن نظرة الطفل للدين، إنما هي نظرة موضوعية، مادية. وتتضح تلك النظرة المادية في إجابات الأطفال عند سؤالهم عن فكرتهم عن (الله). إن (الإله) على حسب تصورهم عبارة عن «رجل عجوز، له لحية طويلة، يلبس لباسا أبيض اللون . . . الخ». وعلى العكس من ذلك، نلاحظ أن فكرة المراهق — وخاصة في السنوات الأخيرة من مرحلة المراهقة — عن الدين تصبح فكرة ذاتية، تأملية، منطقية؛ فالمراهق يفحص الأفكار والمبادئ الدينية التي تلقاها في طفولته من جهة، ثم إنه من جهة أخرى، يلتمس في الدين مخرجا يحقق له الشعور بالأمن الذي فقده، بسبب ما يعانيه من أزمات نفسية واضطرابات انفعالية. إن المراهق ينظر إلى الدين على أنه طريق يؤدي به إلى الخلاص والتغلب على حل مشكلاته اليومية، لا على كونه وسيلة تحقق له الحصول على جائزة مادية أو يكسب بها رضاء والديه.

الشك الديني في مرحلة المراهقة:

أشرنا فيما سبق إلى أن المراهق في السنوات الأولى من هذه المرحلة يميل إلى مناقشة ما سبق أن تلقاه من أفكار ومبادئ دينية خلال أيام الطفولة، وما هذا إلا أكبر دليل على يقظة المراهق الدينية ونضجه العقلي، فهو لم يعد بعد الطفل الساذج الذي يقبل كل ما يلقى عليه من تبعات دينية، دون فهم

(١) أنصح القارئ أن يطلع على البحث القيم، الشيق، عن الشعور الديني عند الأطفال والمراهقين، تقدم به زميلنا الأستاذ عبد المنعم المليجي إلى جامعة (القاهرة) — كلية الآداب في عام ١٩٥١، للحصول على درجة الماجستير.

أو إدراك ؛ ثم تأخذ هذه النزعة فى الازدياد التدريجى ، لدرجة أن بعض الكبار المحيطين بالمراهق يفسرونها على كونها كفر و إلحاد .

ولقد أجرى (جليلاند)[1] بحثاً على مجموعة من المراهقين والمراهقات فى السنوات الأخيرة من المراهقة ، نلخصه فى الجدول التالى :

الموضوع	معتقد	غير معتقد	متردد
وجود الله	٩٣	٣	٤
الخلود	٧٤	١١	١٥
المعجزات التى قام بها الأنبياء	٧٣	١٤	١٣
هل هناك آخرة ؟	٥١	٢٤	٢٥
الاعتقاد فى الجنة والنار ...	٣٣	١٩	٤٨
الاعتقاد فى الشياطين ...	٣٩	٢١	٤٠

و يستدل من هذا البحث أن هناك فئة من المراهقين تتردد فى قبول بعض المعتقدات الدينية ؛ ولكنى أحب أن أشير أنه يحسن بنا اعتبار هذه النزعة ، لا على كونها مظهراً من مظاهر الإلحاد والكفر ، بل هى فأل حسن يدل على نضوج المراهق وتحرره فى التفكير . إن المراهق فى هذه الفترة يحتاج إلى من يشجعه على التحدث فى مشكلاته ، و يبعد عنه ما يؤرقه من أفكار وشكوك . ولا شك أن أمثال هذه المناقشات تعيد إلى المراهق اتزانه ، وتبعث إلى نفسه الطمأنينة . أما إذا كان سلوكنا نحو هذا الاتجاه ، قائماً على العنف والتحقير ، قد يؤدى ذلك فى حالات خاصة إلى نوع من الاستهتار الدينى .

(1) A. R. Gilliland : The attitude of college students towards God. Jour of Soc. Psy. (1940).

الباب الثالث

مشكلات الطفـــولة

ضرورة العناية بالأطفال المشكلين :

تعرضنا فى الفصول السابقة لمظاهر النمو السوّى فى مرحلتى الطفولة والمراهقة ، و بينا إلى أى حد كيف ينمو الطفل العادى حتى يبلغ رشده .

ونحب أن نشير إلى أنه لم تـكن الدراسات الخاصة بالطفولة مقصورة على نواحى النمو العادى ، بل تعدت ذلك إلى دراسة الانحرافات المختلفة التى تطرأ على نواحى النمو ، وهنا برزت عناية بعض الباحثين بسيكلوجية الشذوذ والانحراف ، إذ يتعرض بعض الأطفال فى مراحل التعليم المختلفة إلى ألوان شتى من الانحراف والشـذوذ تسبب لهم مشكلات عدة فى حياتهم اليومية ، فى المنزل والمدرسة والمجتمع الخارجى . و يترتب على إهمال هذه الفئة من الأطفال وعدم التبكير بحل مشكلاتهم أثر سيىء يؤدى بهم إلى التخلف فى الدرس ، والتحصيل ، والشعور بالعجز ، والفشل فى مواجهة الحياة بصفة عامة . وهذه أمور تجعل منهم أدوات غير نافعة ، لا تسهم فى سعادة المجتمع ، إن لم تـكن عقبة فى سبيل تقدمه وارتقائه ، ومقلقا لراحة الآباء ، ومعطلا لجهود المدرسين التربو ية .

وقد اتخذ الاهتمام بتربية الأطفال المشكلين شكلا منظماً فى البلاد التى استطاعت أن تحظى بمقدار من الاستقرار فى النظم التعليمية . فاستطاع المسؤولون ملاحظة ما يعود على الأطفال والمدرسين عندما يخلو الفصل العادى من وجود بعض الأطفال الشواذ منه ، إذ أن وجودهم معطل لجهود المدرسين التربوى ، ومقلق للتلاميذ أنفسهم . ولقد اتضح المسؤولين — فوق ذلك — أن هؤلاء الأطفال الشواذ أنفسهم إذا ما أعدت لهم دراسات خاصة بهم

فى المدرسة العادية أو فى مؤسسات خاصة تقوم على تعليمهم بطرق خاصة تتفق وإمكانياتهم ، فإنهم يستطيعون أن يعوضوا ما يلحقهم من التأخر بسبب اشتراكهم فى الفصول العادية . ولقد انتشرت فكرة التربية الخاصة (Special education) فى أوروبا وأمريكا ، فأنشئت الفصول والمعاهد الخاصة لضعاف البصر والسمع ولناقصى العقل والعمى والصم وضعاف البنية وذوى العاهات البدنية . . . الخ .

أما فى مصر — وإلى عهد قريب جداً — فقد كان ينظر إلى موضوع العناية بالطفل غير السوى على أنه ترف ليس فيه كبير فائدة ، وأنه إضاعة للوقت والجهود . وظلت الحال كذلك حتى تألفت فى غضون العام الدراسى المنصرم لجنة وزارية لبحث موضوع الأطفال الشواذ . وقد أثبتت الدراسات النفسية والتربوية والطبية والإحصائية التى قام بها أعضاء اللجنة وجوب الأخذ بناصر هؤلاء الأطفال وضرورة العناية بهم ، وخاصة بعد أن تبين من الإحصاءات التى قدمت إليها أن عدد الأطفال المشكلين فى مدارس التعليم العام غير قليل .

وكخطوة أولى لمواجهة الموقف نصحت اللجنة بإنشاء دراسات تدريبية لبعض المدرسين والمدرسات ، ليوزعوا بعد حصولهم على التدريب اللازم على مدارس المرحلة الابتدائية ، ليقوموا فيها بإنتقاء الأطفال المشكلين و بتوجيههم والعناية بهم ، و إحالتهم إلى جهة يمكن أن يفيدوا منها . كذلك سيعهد إلى بعض هؤلاء المتخرجين بالعمل فى الفصول الخاصة بالمشكلين التى ستنشىء الوزارة فى أول العام الدراسى المقبل تسعة منها تلحق ببعض مدارس المرحلة الأولى .

ولعل هذه أن تكون خطوة مشكورة نحو الاعتراف بضرورة العناية بمشكلات الطفولة فى المدرسة ، كما أنه سيلي ذلك — دون شك — خطوات

أخرى فى سبيل العناية بالأطفال المشكلين ، ذلك لأن من واجب المجتمع والدولة أن تأخذ بيد هؤلاء الأطفال المساكين ، لأن معظمهم — ضحية لاختلال نظامنا الاجتماعى الحالى — من الخطأ أن يقال إن من العبث أن نضحى بكثير من الجهد والمال جزافاً فى سبيل أطفال قد لا يبلغون مهما فعلنا معهم إلا مقداراً طفيفاً من التقدم ولا يكون لهم فى المجتمع إلا قيمة محدودة . ولكن يجب ألا يغيب عن البال ما لهؤلاء الأطفال من حقوق إنسانية واجتماعية فى البيئة التى يعيشون فيها .

معنى الشذوذ (الانحراف) :

فى كل بحث من الأبحاث الخاصة بانحرافات الطفولة ، تنجم مشكلة تحديد النشاط التى توصف بأنها سوّية وأنواع النشاط التى تعد انحرافاً أو شذوذاً . فإذا فرضنا أن ما يتعرض له بعض الأطفال من انحرافات وشُذوذ ، يتضمن النشاط العقلى والانفعالى والذهنى والحركى والحسى والاجتماعى غير العادى ، وجب علينا إذن أن نحدد أولا معنى النشاط غير العادى (الشاذ) .

اختلف الباحثون فى فهمهم لكلمة (شاذ) أو بعبارة أخرى فى تفسيرهم لمدلول الشذوذ ، فإذا سألت مثلا رجل الدين عن مدلول تلك الكلمة ، أجاب أنه يتضمن « الانحراف عن المعايير الأخلاقية المثلى » . ويكون بذلك فهم هؤلاء للشخص العادى ، على حسب تلك النظرية الوصفية ، أنه يجب أن يكون مثالياً فى أعماله وتصرفاته وسلوكه ، ونحن إن أخذنا بذلك التفسير نستطيع أن نصف كل نشاط اجتماعى بأنه شذوذ ، كذلك نستطيع أن نصف كل فرد بأنه شاذ ، لأن الشخص المثالى لم يوجد بعد ، فالكمال المطلق ليس من طبيعة البشر . ويقول الشاعر الإنجليزى[1] (شاكسبير) فى هذا المعنى : « إن الخطأ من

طبيعة البشر » ؛ فالشخص مهما بلغت درجة تكامله ، فلا شك أن به بعض مظاهر الانحراف النسبي ، كالحقـد أو الجبن أحياناً ، أو التعرض لثورات الغضب ، أو الإفراط فى الخضوع لبعض العادات غير المرغوب فيها كالتدخين ، أحياناً أخرى . إن هذه الانحرافات رغم عدم خطورتها ، تعتبر انحرافاً أو شذوذاً فى نظر رجل الدين .

تلك هى النظرة الأخلاقية التى تقوم على أساسها التفرقة بين ما هو شاذ وما هو عادى فى تصرفاتنا واستجاباتنا السيكلوجية . إلا أنه بجانب ذلك ، فهناك معنى آخر للشذوذ ، ونقصد به المعنى الاجتماعى . فإذا أخذنا برأى الباحث الاجتماعى فى مدلول كلمة (شاذ) ، أجاب بأنه الخروج عن المألوف . ومعنى ذلك أن السلوك الشاذ ، هو سلوك غير مألوف ، أو هو سلوك تنعدم فيه اللياقة الاجتماعية ، لأنه لا تقره العادات والتقاليد التى تسـيطر على المجتمع وتوجه سلوك أفراده .

وغير خافٍ أن اتخاذ هذا التفسير كمعيار للشذوذ ، لا يمكن اعتباره مقياساً عاماً ، ذلك أن ما يحرمه المجتمع من تصرفات و يعده شاذاً فى زمن ما ، قد يصبح بدعة سائدة فى زمن آخر . فلو أن سيدة ظهرت على الناس منـذ عشرين أو ثلاثين سنة ، برداء مما تلبسه السيدات اليوم و يوافق المجتمع على ارتدائه ، لاتهمت بالتعرى والإباحية . وكذلك لو أن شاباً وفتاة تناقشا منـذ سـنوات فى الموضوعات الجنسية المناقشة التى لا تستنـكر الآن ، لـكانت مناقشتهما فى ذلك الحين نوعا من السفالة والانحطاط . هــذا وما يعد لائقاً ومألوفاً فى مجتمع ما ، ينظر إليـه على أنه خروج عن المألوف فى مجتمع آخر ، ذلك لأنـ فـكرة المألوف وغير المألوف تتغير بتغير البيئات والحضارات

والثقافات والديانات . فالقبائل البدائية فى جنوب السودان لهم آراء فى التزين تختلف عن آرائنا ، فهم مثلا يطلون أجسامهم بروث البقر المحروق ، ويعتبر ذلك آية من آيات التجميل ؛ ولنفس القبائل عادات أخرى تتصل بالنظافة ، فهم مثلا لا ينظفون أو يطهرون الأوعيــة التى يحلبون فيها اللبن بالمـاء ، بل ببوال البقر . إن أمثال هذه العادات مألوفة بين جماعات (الشيلوك) مثلا ، وهى جزء من تراثهم وتقاليدهم ، لا ينفرون منها ، فى الوقت الذى تعتبر شاذة وتدل على الهمجية فى بيئات أخرى .

وكذلك فـكرة ما هو عادى تتغير بتغير الثقافة ، فالهنود لهم آراء فى النظافة تختلف عن آرائنا ، والإسلام له فـكرة فى الزواج تختلف عن الفـكرة المسيحية ، والشعوب الأوربية لها فـكرة فى المرأة وما ترتديه من ملابس وما تقوم به من سلوك تختلف عن الشعوب الشرقية . ويرجع كل هــذا الاختلاف ، إلى أن المشاعر والميول والاتجاهات المختلفة تتأثر إلى حد كبير جداً بالظروف التى نعيش فيها ، لأن الفرد والبيئة متداخلان ، لا ينفصلان .

التحديد الإحصائى كمعيار للشذوذ :

تحدثنا عن المعنى الأخلاقى والاجتماعى والنفسى للشذوذ ، ورأينا كيف يتعذر علينــا الأخذ بهــذه المعانى إذا كنا نريد فهما صحيحا لأية استجابة سيكلوجية أو أية عملية ذهنية أو حسية أو حركية ، أو أى سلوك اجتماعى ، تختلف عن العملية أو الإستجابة العادية. ولذلك فلنبحث عن معنى آخر للشذوذ:

هناك طريقة لاتخاذ المعايير أو المتوسطات على أنها محور التحول بين ما هو عادى وما هو شاذ . ونستطيع أن نوضح كلامنا هذا بالمثال التالى : قد نصف في كلامنا العادي بعض الناس بأنه شاذ الطول أو شاذ القصر . وحكمنا هــذا

يتوقف على أساس تقديرنا للطول . ولما كانت ظاهرة طول القامة تخضع للقياس الدقيق ، فإنه إذا أمكن قياس عدد كاف من الناس ، استطعنا الوصول إلى متوسط يعتمد عليه و يوثق فيه ؛ بمعنى أنه يمكننا التنبؤ بأننا لو استطعنا قياس مجموعة أخرى من الناس من نفس الجنس والنوع والعمر ، لحصلنا تقريبا على نفس المدى من الأطوال ونفس المتوسط أيضا .

ونستطيع إيضاح ما سبق بالمثال التالى : إذا أخذنا عينة كبيرة غير منتقاة من الرجال البالغين ، وقسنا طول كل منهم على حدة ، ثم وضحنا هذه النتائج على صورة رسم بيانى ، الإحداثى الأفقى فيه يدل على مقاييس الطول بالبوصات والإحداثى الرأسى يبين مرات التكرار ، فينتج من ذلك المنحنى الذى يمثل بصـــورة واضحة الفروق الفردية بين أفراد المجموعة . وفى العادة إذا كانت العينة ممثلة تمثيلا صحيحا ، فإن المنحنى الحادث يكون على شكل جرس (منحنى اعتدالى) ، تقع الأغلبية فى الوسط (حوالى ٦٨٪) ، بينما تقـع الأقلية على طرفى المنحنى (يوجد فى كل طرف ١٦٪ من الحالات) . وعلى حسب التفسير الإحصائى نستطيع القول بأن الأفراد الذين يقعون على جانبى المنحنى شواذ فى الطول ، والطرف الأيسر يمثل قصار القامة لدرجة شاذة ، بينما الطرف الأيمن يمثل طوال القامة إلى درجة الشذوذ .

وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة قصيرة ؛ إن التحديد الإحصائى كمعيار للشذوذ مناسب فى داخل الحدود التى فرضناها فى المثالين السابقين (الأطوال والذكاء) وهى أمور — كما نرى — تخضع لعامل الـكم ؛ إلا أنه بجانب هذا ، فهناك من الظواهر ما لا يخضع للقياس الإحصائى ، ومن بين هذه الظواهر التى لا تخضع للتفسير الإحصائى ، اللجلجة فى الـكلام والانحرافات الجنسية والعمى

الوظيفى وفقدان الذاكرة (الأمينزيا) ، وكل حالة من هذه الحالات قد تكون متفاقمة إلى درجة ملحوظة أو قد لا تكون سوى انحراف يسير عن السواء . فإلى أية درجة ينبغى أن يتلجلج الشخص حتى يمكن أن يوضع — بحق — فى قائمة المرضى باللجلجة ؟ قد يبدو هذا السؤال غريبا ولكن الحقيقة أن قليلا جدا من الناس هم الذين لم يتوقفوا أبدا فى كلامهم فى مرة من المرات . ومعظم هؤلاء الناس لا يمكن أن يعدوا شواذا . وليس هناك من مقياس موضوع متفق عليه يمكن أن نقدر على أساسه هذه الحالات السابقة . والأمر كذلك بالنسبة لفقدان الذاكرة أوعدم القدرة على استرجاع المعلومات القديمة (الأمينزيا). إن أساس تقديرنا لأمثال هذه الظواهر لايقوم على دراسة كمية صرفة ، فكل ما نستطيع أن نقوله بهذا الصدد ، إن قدرة فلان على استرجاع المعلومات متوسطة أو منخفضة أو عالية . . . الخ .

وهناك بجانب الظواهر الانحرافية السابقة أمور يصعب إخضاعها للتقدير الكمى . فدراسة الشخصية مثلا لا يقوم فى أساسه على الناحية الكمية أو الحسابية الرقمية ، أو بعبارة أخرى ، أننا لا نقول ونحن ندرس شخصية معينة ، ان صاحبها حصل على عدد معين من الوحدات يعادل ٣ فى الشعور بالنقص ، إلى جانب ٥ درجات فى العدوان ، بالإضافة إلى درجتين فى الرغبة إلى العزلة . . . الخ . ثم يكون نتاج هذه الوحدات هو صورة عامة للشخصية . إن هذه النظرية الحسابية الرقمية هى نظرية تقوم على دراسة الكم ، أما فى دراسة الشخصية فيتعذر ذلك ، إذ أن أساس فهمنا للشخصية هو النوع : كأن نقول مثلا ، إن شعور الفرد بالنقص عالٍ وقدرته على التلاؤم مع رفاقه متوسطة وأحلام اليقظة لديه منخفضة . . . الخ . إن شخصية كل فرد — كما هو

معروف — تتكون من مجموعة سمات أو خصائص ، ويمكن عند دراسة تلك الخصائص عن طريق إستجابات الفرد أن يعمل له ما هو معروف باسم « التخطيط النفسى »[1] . ولو أن دراسة الشخصية كانت تخضع جميعها للقياس الإحصائى لكان من السهل تحديد حالات الشذوذ فى هذه الناحية . إلا أن الأمر — كما بينا — يبدو عسيرا عندما نحاول تطبيق مبدأ المتوسط الإحصائى للتمييز بين الشخصية السوية والشخصية الشاذة ، ولهذه الصعوبات يستعاض عنه بتكوين صورة عامة أو عمل تخطيط نفسى للفرد .

الخلاصة :

من الاستعراض السابق يتضح لنا أنه ليس من اليسير الاتفاق على وسيلة واحدة عامة نستطيع بها الحكم على ماهية السلوك ، لنتمكن فى ضوء ذلك من فهم ماهية السلوك الشاذ . وطالما كانت مظاهر السلوك الخارجى مختلفة ، أدى ذلك إلى اتخاذ أكثر من مقياس أو تفسير للحكم على هذه الأنماط السلوكية المختلفة .

مظاهر الشذوذ أو الانحرافات المختلفة

نستطيع أن نجمل مشكلات الطفولة تحت الفئات الرئيسية التالية :

(أولا) مشكلات تتصل بالحالة الانفعالية للطفل .

(ثانيا) مشكلات تتصل بالحالة البدنيه والحسية .

(ثالثا) مشكلات تتصل بالحالة الذهنية المعرفية .

---

(1) Psychograph.

القسم الأول : يتضمن الاضطرابات التى ترجع العلة فيها إلى أسباب انفعالية ، الفئات التالية من الانحرافات :

(ا) اضطرابات (نفسية) ومنها :

١ — القلق . ٢ — المخاوف .

(ب) التبول اللاإرادى .

(ج) الانحرافات تأخذ مظاهر سلوكية ، كالسرقة والكذب والتعنت والاعتداء الجنسى والتجوال والهروب من المدرسة والمنزل ... الخ .

(د) اضطرابات الكلام .

القسم الثانى : وهو الانحرافات التى تتصل بالحالة البدنية والحسية وتشمل :

(ا) عاهات الحواس .

١ — ضعف الابصار . ٢ — ضعف السمع .

(ب) العيوب والعاهات البدنية وهى :

١ — الشلل . ٢ — الكساح .

(ج) انحرافات تنشأ بسبب إصابة الجهاز العصبى المركزى ، منها :

١ — الكوريا . ٢ — الأفيزيا . ٣ — الصرع .

القسم الثالث : الانحرافات متصلة بالنمو الذهنى ، وتشمل الظاهرة المعروفة باسم النقص العقلى وهى :

(ا) طبقة ضعاف العقول .

(ب) البلهاء .

(ج) المعتوهون ، وهم أحط طبقات الضعف العقلى .

القسم الأول :

(ا) الاضطرابات النفسية

(١) القلق النفسى

تعريف القلق :

القلق عبارة عن حالة من التوتر المصحوب بالخوف والضيق وعدم التركيز والتبرم والتهيج والعجز عن إصدار الأحكام ؛ ويصاحب هـذا الشعور (أحيانا) بعض التغيرات الفسيولوجية كسرعة ضُربات القلب واضطرابات فى التنفس وفى افرازات الغدد والشعور بالاجهاد والعرق المستمر ، بالإضافة إلى إضطرابات فى النوم والصداع وفقدان الشهية .

ولقد قسم المشتغلون بعلم النفس المرضى ، القلق ، إلى نوعين : قلق عادى أو موضوعى (objective anxiety) ، وقلق عصابى أو مرضى (neurotic anxiety) . والنوع الأول من القلق أقرب إلى « الخوف » ذلك لأن مصدره يكون واضح المعالم فى ذهن المصاب ؛ فالفرد يشعر بالقلق « الخوف » مثلا إذا ما اقتربت منه سيارة مسرعة أثناء سيره فى الطريق العام ؛ والتلميذ الذى قضى عامه الدراسى فى اللعب دون العناية بتحصيل دروسه ، يشعر بالقلق « الخوف » عنـدما يقترب موعد الإمتحان . ويرتبط مصدر القلق فى هذه الحالات وغيرها بالعالم الخارجى ، سواء أكان موضوعا خاصا أو موقفا معينا . وهنالك من الـكتاب أمثال (هورنى) من يقصر استعمال لفظ « خوف fear » على هذا النوع من القلق .

---

(1) Karen Horney : The neurotic personality of our age, 1937, p . 41.

أما النوع الثانى من القلق فهو معروف باسم القلق العصابى . وهو نوع آخر من القلق لا يدرك المصاب به مصدر علته ؛ وكل ما هنالك أنه يشعر بحالة من الخوف الغامض المنتشر (العام) ، غير المحدد . إن المصاب بالقلق العصابى يكون فى حالة دائمة من الارتباك والتوقع والشعور بالعجز والشكوى الدائمة ، إلى غير ذلك من الظواهر الفسيولوجية والنفسية التى سبق أن أشرنا إليها . إن هذا الشعور وتلك الأعراض تصاحب المصاب وتسيطر على سلوكه فترات طويلة دون أن يعرف لها سببا واضحا محددا ؛ ومعنى هذا أن القلق المرضى لا يتضمن شعور الفرد بخطر معين يهدده ، وكل ما هنالك أنه يشعر بإحساس دائم بتوقع الهزيمة والإكتئاب والرغبة فى الهرب عند مواجهة أى موقف من مواقف الحياة . إن هذه الأحاسيس والمشاعر الخفية تؤثر — دون شك — على شخصية الفرد بصفة عامة ، وعلى عمله وسمعته وقدرته على إصدار الأحكام وعلاقته بالغير ، بصفة خاصة . إن شخصية الفرد المصاب بالقلق العصابى ، هى شخصية مريضة ، منحلة ، غير متكاملة ، ومن ثم يصعب على مثل هذه الشخصية ، التكيف الحسن والقدرة على إشباع حاجاته والوصول إلى أهدافه بشكل سوى .

أسباب القلق :

سبق أن بينا أن القلق إما أن يكون من النوع العادى أو من النوع المرضى. إن أسباب القلق فى كلا الحالتين ترجع فى إطارها العام إلى ما يسمى (بالإحباط frustration) . ومعنى ذلك أن الإحباط يعتبر المسؤول عن نوعى القلق رغما عن الفروق الكبيرة التى اتضحت سابقا فى طبيعة هذه العملية النفسية .

والسؤال الذى يواجهنا الآن : إذا كان الإحباط بمعناه العام هو المسؤول الأول عن نوعى القلق ، فكيف يسبب الإحباط فى الحالة الأولى قلقا عاديا ،

طارئا ، خفيفا ، وفى الحالة الثانية قلقا مرضيا ، عاما . إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب عرضا دقيقا لأنواع الإحباط ومستوياته المختلفة .

تعريف الإحباط :

إن الإحباط عبارة عن عملية تتضمن إما الإدراك المباشر لمثيرات إعاقية تمنع الفرد عن إشباع دوافعه الراهنة ؛ أو توقع معوقات تحول دون تحقيق عمل من الأعمال[1] . ومن بين هذه المعوقات ، توقع العقاب أو قسوة وتزمت الضمير اللاشعورى لدى الفرد بسبب ما عاناه من جد وصرامة خلال سنوات طفولته الأولى . وسنزيد هذا الكلام إيضاحا عند الحديث عن تقسيم الاحباط .

تقسيم الاحباط :

هناك تقسيمات عدة للاحباط ، نكتفى بأن نعرض منها ما يلى :

(أولا) تقسيم (نزروزويج)[2] ، وهذا التقسيم يقوم فى أساسه على مدى استجابة الفرد للموقف الاحباطى . وعلى ضوء هذا الفهم ، استطاع (روز نزويج) أن يقول إن هناك مواقف احباطية سلبية ، لا تخرج عن كونها مواقف تعوق الفرد عن الوصول إلى أهدافه ، دون أن تبدو منه أية رغبة فى تجنب الإعاقة أو العمل على إزالتها . ونستطيع أن نوضح ذلك بالمثال التالى : شخص عائد إلى منزله . سائر على قدميه أو راكبا سيارة ، وكان الجو رائعا جميلا ، فى الوقت الذى تعطلت فيه سيارته عن المسير ، أو أنه وجد الطريق مغلقا لسبب من الأسباب ؛ فقد يحدث فى بعض الأحيان ، أن صفاء الجو وجودته ، تجعل الشخص يتخذ موقفا سلبيا أمام العقبات التى تعترضه وتحول بينه و بين الوصول إلى هدفه الأصلى .

---

(1) Bert Sappeufield : Personality dlynamics (1954) P. 88.
(2) Saul Rozenzweig : Frustration theory (1944), P. 381.

وإلى جانب هذا الصنف من المواقف الاحباطية ، هناك نوع آخر يكون موقف الفرد فيه إيجابيا . إن كل ما يقوم به الفرد من نشاط فى سبيل التغلب على العقبات التى تعترضه فى سبيل تحقيق الهدف ، لا تخرج عن كونها مظاهر سلوكية مختلفة يبغى بها إزالة حالة التوتر الناجمة عن عـدم تحقيق الهدف . ويمكننا التدليل على ذلك بمثال الطفل الصغير ، عند ما يسمع صوت جرس بائع الجيلاتى فى الشارع ، فأنه سرعان ما يذهب إلى أمه ، يجذب ثوبها و يجرها إلى مكان النقود فى الدولاب ، فإذا ما رفضت الأم إعطاء الطفل النقود ، أو تباطأت فى تنفيذ رغبته ، فإن ذلك السلوك الاحباطى (صد — حرمان — منع) ، يؤدى بالطفل إلى مضاعفة نشاطه ومحاولاته ليتغلب على كل عائق أو مانع حرمه من تحقيق هدفه .

(ثانيا) وهناك تقسيم آخر للاحباط ، ذكره (سيموندز)[1] ؛ و يقوم هـذا التقسيم حول ماهية الاحباط وطبيعته ، هل هو صادر عن معوقات خارجيه (موضوعية) ، أم أنه صادر عن عوامل شخصية (داخلية) . ومن أمثلة النوع الأول : العوامل المادية فى البيئة أو العوامل الاقتصادية أو العوامل الاجتماعية ، وأسباب أخرى تتصل بعاهات البدن والحواس المختلفة .

ونستطيع أن نوضح مصدر الاحباط بالأمثلة التالية :

١ — طفل جائع وكان يشبع دافع الجوع عن طريق امتصاص ثدى الأم ؛ الأم جذبت الثدى لسبب من الأسباب ؛ يؤدى هذا السلوك إلى بكاء الطفل بكاء حارًّا .

٢ — طفل آخر ميال إلى الحركة والصياح والعبث بالأشياء ولا يحافظ على مواعيد الطعام ، كل ذلك يؤدى إلى تدخل الوالدين وفرض القيود والنواهى على سلوكه . إن هذه القيود ما هى إلا وسائل احباطية تحول بين

---

(1) P. M. Symonds : The dyuamics of human adjustment (1946), P.P. 53 - 8.

الطفل و بين التعبير عن رغباته بالشكل الذى يريده . وكثيرا ما يتعرض الطفل للعقاب إذا ما خالف أوامر والديه .

٣ — طفل ثالث يطلب من والده شراء دراجة ولكن حالة الوالد الاقتصادية لا تسمح له بتحقيق رغبة الطفل .

٤ — شخص متعود على التدخين وتعطل عن كسب قوته بسبب تعطله ، إن ضيق ذات اليد يؤثر بدوره على إشباع هذا الدافع . أن هذا المصدر الاحباطى المادى يسبب لهذا الشخص الضيق .

٥ — موظف يطلب علاوة من رئيسه الذى يرفض بسبب الضيق المالى الذى تعانيه المصلحة أو الشركة ، هذا مصدر إحباطى مادى آخر . يدعو الموظف إلى الشعور باليأس .

٦ — فتاة تريد الزواج من شخص معين الوالد يرفض ويرى ضرورة التأجيل لسبب صغر سن الفتاة ؛ هذا موقف احباطى ينشأ بسبب التقاليد السائدة فى المجتمع والتى تحتم زواج الفتاة فى سن لا يقل عن ١٦ عاما .

٧ — وأحيانا ينشأ الاحباط بسبب وجود عاهة أو نقص فى الشخص ، مثل العمى والشلل أو الصعوبة فى الكلام . إن هذه العاهات تحول بين الأفراد و بين تحقيق أهدافهم واشباع ميولهم ، فمثلا : طالب كان يميل إلى أن يلتحق بكلية الحقوق ثم أصيب باللجلجة ؛ وطالب آخر كانت أمنية أهله أن يصبح ضابطا بالجيش ثم أصيب فجأة بالشلل . إن هذه العاهات تحول ، دون شك ، دون تحقيق الهدف .

هذه أمثلة قليلة لبعض المواقف الإحباطية التى تنشأ بسبب عوامل خارجية (الوالدين ، الحالة الاقتصادية ، التقاليد السائدة ، عاهات البدن واضطراب الكلام . . . الخ .)

وبجانب هذه العوامل الخارجية ، توجد عوامل داخلية ، تتصل بذاتية الفرد وبتكوينه النفسى وما يترتب على ذلك من صراع داخلى . ذلك أنه فى حالات كثيرة ينشأ الإحباط بسبب وجود الفرد فى موقف يستدعى منه التفكير والتردد . والسؤال الذى يبرز الآن : ما الذى نقصده بكلمة صراع ؟

معنى الصراع :

اهتم علم النفس فى السنوات الأخيرة بدراسة الظاهرة المعروفة باسم الصراع النفسى ، من حيث أنواعه وتحليله وآثاره كما تظهر فى السلوك الخارجى.

والصراع بمعناه العام ، يمكن تعريفه بأنه حالة نفسية منشؤها وجود فكرتين متعارضتين لا يمكن تحقيقهما فى وقت واحد ، وهو على العموم ينشأ نتيجة تفاعل الفرد مع البيئة التى يعيش بها .

أنواع الصراع :

يوجد نوعان من الصراع : أحدهما : عناصره واقعة فى دائرة شعورنا ، لدرجة أننا ندرك المشكلة التى يدور حولها ذلك الصراع وندرك طرفى الصراع . إن ذلك النوع من الصراع لا يتسبب عنه أى كبت أو عزل أفكار أو ميول أو رغبات من الشعور إلى اللاشعور ، ذلك لأن المشكلة التى يقوم عليها الصراع تواجه الفرد ويستطيع بطريقة ما أن يصل إلى حلها .

أما النوع الثانى : فيحدث فى مستوى لاشعورى ، فكثيرا ما يجد الفرد نفسه نهب حاجات ونزعات لا تسمح له ظروفه الاجتماعية بتحقيقها ، وحينئذ تكبت هذه الحاجات دون شعور منه وترسب فى حيز اللاشعور ، ولا تبقى فيه خاملة ، بل تظل فى حركة ونشاط لأنها لم تتحقق ؛ فهى دائما تبحث لها عن منفذ تخرج منه ، إلا أن النفس الشعورية (الذات الواقعية) أو الضمير اللاشعورى

يقف فى أغلب الحالات حائلا بينها و بين تحقيق رغباتها . وعلى هـذا النحو يحدث الصراع النفسى الذى ينتج عنه الـكثير من الاضطرابات النفسية .

تحليل الصراع الشعورى :

هناك أنواع لهذا النوع من الصراع يمكن اعتبارها مواقف إحباطية تعوق الفرد عن تحقيق أهدافه بسرعة ، أو بعبارة أخرى تسبب وجود الفرد فى موقف يتطلب منه أن يختار و يفـكر و يتردد . ومن أهم هذه الأنواع ما يلى :

١ — صراع يتمثل فى وجود موقفين متعادلين من الصفات التى تجذب رغبة الفرد نحو كل منهما .

ومن أمثـلة ذلك الصراع : طفل يخير بين موضوعين محببين إليه ، كقراءة قصة جذابة أو الاشتراك فى اللعب مع مجموعة من رفاقه ؛ أو شاب يعرض عليه عملان متساويان من حيث المرتب ؛ أو شابة يتقدم إليها خطيبان لهما من الصفات المشتركة ما يجعل تفضيل أحدهما على الآخر أمرا عسيرا .

وفى الواقع أن الفرد فى الحالات السـابقة يتعرض إلى الإحباط بسبب ما يتسبب عنها من صراع مؤقت يصاحب عملية الوصول إلى قرار معين يؤدى إلى تفضـيل أحد الموضوعين . وسبب ذلك أن الفرق بين الموضوعين المعروضين يكون صغيرا ، أما إذا كان الفرق بينهما كبيرا ، فإن الاختيار بينهما يكون أمرا سهلا .

٢ — وفى بعض الحالات الأخرى ينشأ الصراع بسبب وجود الفرد فى موقف إحباطى يتطلب منه أن يختار بين موضـوعين أو أمرين مكروهين بالنسبة له . و ينشأ فى هذه الحالة ميل قوى للهروب من الموقف ، وذلك بأن يسلك الفرد سلوكا لا علاقة له بأحد هذين الهدفين . إن فترة التردد فى هذه الحالة تـكون أطول مما لو كان كلا الموضوعين جذابا بالنسبة للفرد .

ومن أمثلة هذا النوع من الصراع : طفل طُلب منه أن يختار بين أن يأكل طعاما لا يحبه (سبانخ مثلا) أو أن يذهب إلى فراشه لينام مبكرا ؛ كلا الشيئين مكروه بالنسبة له ، فهو لا يرغب فى أكل (السبانخ) ، كما أنه لا يريد أن يذهب إلى فراشه . لذلك نراه يلعب (بالشوكة) وهو جالس على المائدة التى وضع عليها طبق (السبانخ) ، أو نراه يوجه نظره معظم الوقت إلى النافذة . أما إذا اضطررناه إلى اختيار أحد الموضوعين ، فهو فى هذه الحالة يكثر من التردد حتى يتخذ موقفا معينا .

مثال آخر : جندى وجد نفسه على أبواب معركة ، وهنا تنتابه فكرتان ، فكرة الحرص على حياته ، وفكرة الخوف من العار ، إذا ما تقهقر . ولا شك أن الصراع بين الفكرتين يطول وقد ينتهى الأمر به إلى الالتجاء إلى حل ثالث وهو قطع اصبعه فيصبح غير صالح للجندية .

٣ — صراع ينشأ بسبب وجود الفرد فى موقف يود تحقيقه، ولكن هناك من المصاحبات والمثيرات مايحول بينه و بين ذلك. و ينتهى الصراع فى مثل هذه المواقف بأن يعدل الشخص عن الأمر الأول إلى أمر جديد يحقق نفس الغاية دون أى اصطدام . ومثال ذلك : الأم التى يبدى ولدها ميلا إلى قضاء العطلة الأسبوعية مع رفاقه فى إحدى الحدائق العامة البعيدة عن المنزل ؛ وهنا تجد الأم نفسها أمام أمرين : رغبتها فى إرضاء ولدها ، ولكن يحول بينها و بين ذلك خوفها عليه من التعرض للخطر ، فيحدث لديها نتيجة لذلك نوع من الصراع تتغلب عليه بتحقيق رغبتها فى إرضاء ولدها عن طريق آخر غير ذهابه مع رفاقه ، كأن تعرض عليه أن يصاحبها إلى السينما فى ذلك اليوم ، و بذلك يعدل الولد عن رغبته الأولى ، وفى نفس الوقت تتحقق رغبتها فى إرضائه .

أمثلة أخرى : الموظف الذى يريد ترقية أو علاوة ، ولـكنه فى الوقت نفسه يشعر بالخوف إذا ما طالب رئيسه بما يريد ، خوفاً من أن يؤدى ذلك إلى غضب رئيسه فيطرده من العمل . وكذلك الفتاة التى تحب الحلوى ولـكنها فى نفس الوقت تعلم أن أكل الحلوى سيؤدى بها إلى أن يصبح وزنها غير مألوف . إن الفرد فى أمثال هذه المواقف يكون فى حالة من التأرجح (Ambivalent) نحو الاتجاهين (إقدام ثم إحجام) ، وقد يطول به هـذا الاتجاه المتأرجح ، ويتسبب عن ذلك شعوره بالقلق ، إلى أن يجد حلا يريحه من الصراع الناجم عن الموقف الإحباطى [١] .

تحليل الصراع اللاشعورى :

تحدثنا فيما سبق عن النوع الأول من الصراع ، وهو الذى يحدث على مستوى شعورى . والآن نتناول بالبحث النوع الثانى من الصراع الذى يحدث على نحو لاشعورى ، وسوف نكون متأثرين إلى حد ما بآراء (فرويد) فيما يتصل بتكوين الجهاز النفسى [٢] .

---

(١) E. Hilgard : Introduction to Psychology, P. 179

(٢) يفترض (فرويد) أن الجهاز النفسى يقسم إلى ثلاثة أجزاء وينسب إلى كل منها وظائف وخصائص معينة وهذه الأجزاء هى :

(ا) ما يسميه بـ (الأنا أو الذات الواقعية) وهى عباره عن الجانب النفسى الذى يواجه الواقع ويتأثر به .

(ب) أما القسم الثانى من الجهاز النفسى فهو يشمل مجموعة النزعات والرغبات والشهوات التى كبتها الفرد بطريقة لاشعورية ، فى مستهل حياته فى أعماق النفس لانها لا تتفق مع العرف والتقاليد والتعاليم الاخلاقية والدينية . ويطلق (فرويد)على هذ الجزء من الجهاز النفسى لفظ (هو) .

(حـ) (الأنا الأعلى) الذى يتكون تكونا لا شعوريا عن طريقة امتصاص المعايير والمثل العليا التى يتلقنها الطفل من العالم الخارجى . ويمكن تشبيه هذا الجزء من الجهاز النفسى بالرقيب الداخلى ، الذى يقف حائلا دون اندفاع تلك الرغبات والميول غير المهذبة والمـكبوتة فى اللاشعور . والمهم أن (الانا الأعلى) يتكون تكوينا لاشعوريا . ومن هنا يتضح الفرق بين (الأنا) و (الانا الأعلى) . فالأول شعورى فى غالب الاحيان ، بينما الثانى ، لا شعورى دائما .

ارجع لـكتاب « مقدمة فى التحليل النفسى » ، تأليف (فرويد) — ترجمة الدكتور إسحق رمزى . (١٩٥٠) .

و ينشأ الصراع — كما يقول (فرويد) بين « الأنا » و « الهو » من جهة و بين « الأنا » و « الأنا الأعلى » من جهة أخرى ، و إليكم التفصيل :

الصراع بين « الأنا » و « الهو » :

نعلم أن الإنسان مزود بمجموعة من الدوافع المختلفة ، وهذه الدوافع كما أسلفنا فى حاجة إلى الإشباع وتحقيق ما تهدف إليه من أغراض . ونضيف الآن أن هذه الدوافع ، قد تتهيأ لها الفرصة فى العالم الخارجى ، فتصل إلى غايتها ، وقد لا يتاح لها ذلك ، فتبقى على سعيها لنيل رغبتها . و « الأنا » هو الذى يتوسط بين « الهو» ، الذى يصدر عنه عادة هذا النوع من الدوافع ، و بين العالم الخارجى الذى ينطوى على مختلف النظم والقيود ، فيسمح لبعض الرغبات بالتنفيذ و يقاوم البعض الآخر ، بناء على فهمه للواقع وحدوده .

و « الأنا » قبل أن يسمح لأمثال هذه النزعات بالتعبير عن نفسها ، لابد له أن يقدر النتائج التى تترتب على هذا التعبير، وأثر ذلك فى عالم الواقع . وهكذا نرى أن «الأنا» يمهل هذه الدوافع حتى يأتى الوقت المناسب لإشباعها ، ولا يزال يكبح جماحها و يماطلها ، وقد يضطرها إلى التنازل عن بغيتها نظير مقابل ، أو تعديلها على الأقل ، حتى تتوافق مع العالم الخارجى ، أو تعديله حتى يتوافق معها .

ولا يستطيع « الأنا » أن يقوم بهذا الدور ، إلا إذا كانت لديه القوة الكافية للتحكم فى رغبات « الهو » ، حينئذ يسير الجهاز النفسى سيرا طبيعيا دون أن يتعرض للخطر . أما إذا كان « الأنا » ضعيفا ، فلن يستطيع أن يوفق بين رغبات « الهو » و بين عالم الواقع ، أو بعبارة أخرى لن يستطيع أن يتحكم فى الشهوات والنزعات المكبوتة ، وأغلب ما يكون ذلك فى الطفولة ، حينما يكون « الأنا » لا يزال ضعيفا ، لا يكاد يتميز من « الهو » .

ولما كان « الأنا » فى الطفولة الأولى لا يزال ضعيفا غير مكتمل ، كان من الطبيعى ألا ينجح دائما فى تحقيق التوافق بين رغبات « الهو » وبين مطالب الواقع . وآية ذلك أنه يعمد إلى إجراء لا شعورى هو كبت رغبات « الهو» عجزاً عن إشباعها على نحو يتفق مع مطالب الواقع ، فى حين أنه لو كان قوياً قوة كافية لاستطاع أن يهيىء لها السبيل المقبول للإشباع . ومن هنا تنعزل الرغبات المكبوتة فى الأعماق اللاشعورية للنفس حيث تعمل غير آنية على الانتقام لنفسها ، وتتفاعل ، وتتصارع مع « الأنا » ويتكون عن طريق هذا التفاعل وذلك الصراع ، مشتقات جديدة (العقد النفسية) .

ومن هنا يتبين لنا ، أن البادئ بالصراع ، أو بعبارة أوضح ، أن المسئول عنه ، هو الكبت .

الصراع بين الأنا والأنا الأعلى :

ينشب صراع آخر بين (الأنا) و (الأنا الأعلى) ، ولهذا الصراع أهمية فى الحياة النفسية . ولعلنا نذكر ما قلناه عن (الأنا العليا) من أنه ينشأ نتيجة اتصال (الأنا) بالنظم والتقاليد والأديان والمثل العليا ، وأنه « ذاتُ » مثالية ، تجنح نحو السمو ، وأنه رقيب على (الأنا) يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة . ونقول الآن : إن (الأنا الأعلى) أو (الذات العليا) — كما سميناه — إذا لاحظ شذوذا فى تصرف (الأنا) وأنه قد أتى بما ينافى الأخلاق والآداب فإنه ينزل به العقاب ، ويصب عليه التقريع واللوم ، وكثيرا ما يوقفه عند حده قبل أن يرتكب هفوته فيحول بينه وبينها ، ويصرفه عنها ، بل كثيرا مايشتط فى أحكامه على (الأنا) إذا كان على جانب من القوة—ويكون ذلك فى مراحل الطفولة — فيظهر عمله البرىء بمظهر الجرم العظيم .

وخلاصة القول أنه فى كثير من الحالات ينشأ القلق بسبب الصراع النفسى (اللاشعورى) وما يترتب على ذلك من كبت وحرمان لكثير من دوافع الفرد البيولوجية والنفسية . و يتسبب عن هذا الحرمان ، خبرات وتجارب مؤلمة تتصل بمرحلة الطفولة ، ومن أهمها الخوف من العقاب أو الشعور بالإثم . فإذا ما صادف الفرد بعد ذلك بعض المواقف أو الظروف التى تشبه المواقف القديمة التى أثارت فيه القلق ، أخذ الإنسان يشعر من جديد بالقلق ، دون أن يدرك العلاقة بين المواقف الجديدة و بين المواقف القديمة . وهذا الذى دعانا إلى القول فى مستهل هـذا الفصل « إن القلق حالة من التوتر المصحوب بالضيق والتردد والخوف ، مع ملاحظة أن كل هذه الظواهر غير مرتبطة بأى سبب ظاهرى » . إن هذا النوع من القلق معروف باسم القلق المرضى أو العصابى ، وهو ، إن أصاب فردًا ، سيطر على سلوكه وجعله هدفا للأوهام والشكوك والريبة والرغبة فى الانعزال عن المجتمع وتوقع الفشل إذا ما أسند إليه عمل من الأعمال . هذا وتبدو هذه الأعراض بشكل مستمر ولأتفه الأسباب .

والفرق كبير بين القلق العادى والقلق العصابى ، فالنوع الأول من القلق مؤقت ، موضوعى المصدر و يزول بزوال المثير أو المثيرات التى أثارته . ومن الجائز أن تكون مثيرات القلق الموضوعى ، من العوامل التى تساعد على أبراز وانتشار القلق المرضى .

حالة من حالات القلق المرضى :

هى حالة رجل فى مقتبل العمر ، نشأ فى الجزيرة العربية السعودية ، متزوج وله ستة أطفال كبراهم بنت فى سن الثانية عشرة وأصغرهم طفل يبلغ من العمر ثمانية شهور .

الشكوى (كما وردت على لسان المصاب) : « أشعر بضيق واكتئاب دون معرفة سبب ذلك . . . أزهق من المنزل ومن دوشة أولادى . . . شعورى نحو زوجتى متأرجح ، أحيانا أحب أن أجالسها وفجأة أطلب منها أن تذهب عنى . أشعر بآلام فى جسمى وشعور بالإجهاد وجفاف فمى ؛ وعند ما أنام أنزعج لأقل الأصوات . أعامل أولادى بجفاء وهم لذلك يتجنبون مجلسى . أكره الاشتراك فى أى عمل ودائما أتوقع الفشل إذا فكرت فى القيام بعمل من الأعمال التجارية . أنفر من الناس وأحاول جاهدا تجنب المجتمعات ؛ وقد يحدث أحيانا أننى إذا ركبت الترام وكانت العربة مزدحمة ، أنتهز أول فرصة للنزول من الترام وعندما يتم لى ذلك أعتقد أن كل الركاب ينظرون إلى » .

معلومات عن الحالة : -

تيسر لنا جمع المعلومات التالية عن طريق تحدث المصاب عن نفسه ، وإليكم الملخص :

١ — نشأ فى أسرة كبيرة تتكون من ١٦ عضوا . وكان والده مزواجا ، يتزوج ويطلق ثم يعود فيتزوج ثانية ويطلق مرة أخرى وقد ترتب على ذلك وجود عدد من الأخوة والأخوات غير الأشقاء . كانت والدته مغلوبة على أمرها وكثيرا ما كان يحدث بينها وبين ضراتها نزاع دائم .

٢ — لم تكن طفولته مرحة وذلك بسبب ما كانت تشعر به الأسرة من ضيق مالى ومن كثرة أسفار والده ؛ وقد ذكر المصاب فيما ذكر — عند ما كان يتحدث عن طفولته — أنه كان يتمنى أن تكون حالة أسرته المالية ميسرة ، ليستطيع أن يجارى زملاءه فى المدرسة .

٣ — توفى والده عند ما بلغ السادسة عشر من عمره ، فاضطر أن يترك المدرسة ليجد له عملا يكفل به إخوته الصغار بعد وفاة والده وقد كانت الأعمال التى يقوم بها مضنية فى هذه السن المبكرة .

وعندما التحق بالعمل لأول مرة اشتغل كاتبا فى إحدى المحاكم الشرعية وكان يتقاضى مرتبا ضئيلا فلم يمتنع عن قبول الرشاوى من المتقاضين فى نظير تسهيل أعمالهم وهو لذلك كان يشعر دائما بالاضطراب خوفا من أن يُبعَد عن عمله فيكشف أمره .

و بعد ذلك التحق بعمل تجارى كبير ، وكان صاحب العمل يثق به ثقة عمياء . كان صاحب العمل رجلا عصاميا أصاب نجاحا كبيرا فى عمله بطرق مشروعة وغير مشروعة . وكان صاحب العمل يقدر المجهودات التى يقوم بها إلا أنه لم يكافئه ماليا ، ولذلك أخذ يشعر بالكراهية لصاحب العمل .

٤ — تزوج المصاب من ابنة عمه . وكانت الصورة الذهنية لزوجته أنها فتاة جميلة تتمتع بصحة جيدة ، ولكنه وجد العكس عند الزواج منها ؛ شعر أنها ضعيفة البنية ، معتلة ، ولهذا السبب كان يعايرها ويقول لها : « ما كنتش أتصورك على هذه الصورة ! » . وكان تعليقها على قول زوجها « أنا بنت عمك من لحمك ومن دمك » .

— بدأ حياته الجنسية بعد الزواج ، إلا أنه كان يشعر بعدم إشباع

الجنس الكامل لأسباب منها سرعة القذف . وقد ترتب على ذلك شعوره بالخجل أمام زوجته . وعلى الرغم من أنها لم تواجهه بشعورها جهرا ولم تكاشفه بما تعانيه من مضايقات ، إلا أنه يخيل إليه أنها تتحدث سرا عن ذلك .

وعلى الرغم من قصوره الجنسى هذا ، إلا أنه كان يشتهى النساء ، وكثيرا ما يفكر فى إشباع شهواته مع أفراد غير زوجته ، فلا يمنعه إلا خوفه من الله والناس والإصابة بالأمراض .

نماذج من استجابة الحالة لاختبار تفهم الموضوع :

الصورة رقم ٤ (وهى تمثل رجلا تجذبه امرأة إليها على حين أنه يحاول أن ينفر منها ، ومن خلفهما امرأة نصف عارية) .

ذكر عنها صاحب الحالة : «أتصور رجلا تظهر عليه حالات شبه عصبية ، جنون . الرجل يحاول الاعتداء على شخص ما ، والسيدة تستعطفه . السيدة التى فى الخلف تلاحظ الموضوع . الرجل موجه نظره إلى شىء أمامه ، يريد أن يفلت من يد الست للذهاب إلى الشىء الذى أمامه ، السيدة تلاطفه لأجل أن تمنعه من الذهاب . السيدة التى فى الخلف تنظر إلى الرجل بسكون ، الرجل فى حالة عصبية . لا توجد علاقة بين الرجل والسيدة التى فى الخلف . السيدة التى فى الخلف متأثرة من الوضع ، ولكن هى مسلمة بالوضع . جلستها لاتدل على أنها مسرورة .

الصورة رقم ١٤ :

منظر يدل على رجل يريد أن يرتكب جريمة سرقة أو قتل ، داخل فى حتة ظلام علشان يدخل المنزل . أرى أن السكان داخل المنزل هادئون ، وهو يتسلق علشان يرتكب جريمة . الجريمة سترتكب فى ليل مظلم . المنظر يدل على حالة مخيفة .

الرجل طالع من ظلام وهو متردد من النور الذى أمامه . النور منعه وهو لذلك متردد . ويخيل إلى أن سكان المنزل هادئون غير شاعرين بحاجته . تردده عن ارتكاب الجريمة بسبب النور الذى ظهر أمامه وإذا كانت الدنيا مظلمة كان دخل على أهل المنزل لارتكاب الجريمة .

إذا حدثت الجريمة فإن العائلة تصبح فى قلق . العائلة مطمئنة إلى نفسها، هى عائلة هادئة ، ولا يخطر ببالها إن حد يجىء ويعمل فيهم حاجة . أنا أشعر الآن بعطف على الناس الذين جوه وأشعر بالعداء ضد الراجل الذى حينكد عيشهم ويسبب لهم الضيق »

الصورة رقم ١٨ (وتمثل شخصا يقف بين بعض المقابر التى تحمل صلبانا حجرية) .

ورد فى تقرير الحالة ما يلى : « أرى مقبرة وتمثالا فوق المقبرة ، اشخص محترم ، صلب أو قتل . إشارة الصليب تشير أن هذه مدافن منظر مثير بالنسبة لى ويبعث إلى الرهبة والخوف . التمثال رجل دفن فى أحد المقابر وهذا الرجل يمكن أن يكون شهير » .

الصورة رقم B.M. ٧ (وتمثل صورة شخصين أحدهما كبير السن والثانى أصغر منه سنا حتى لتكاد العلاقة بينهما تكون علاقة رجل بابنه) .

ورد فى تقرير الحالة ما يلى : « شخصين جالسين ، أحدهما وهو الأصغر ينظر إلى حاجة غير راضى عنها . الرجل الكبير يكلم الشخص الصغير عن موضوع ، والشخص الصغير غير راضى عن كلام الكبير . الشخص الكبير ينصح الصغير والشخص الصغير يتذمر . الشخص الصغير غير مبال للنصح ، النصح يدور حول شىء عائلى ، كلام الشخص الكبير لم يترك أى أثراً فى نفس الشخص الصغير . وعلى الرغم من ذلك فإن الشخص الكبير عنده أمل أن يستمع الشخص الصغير له » .

تحليل للحالة :

على ضوء المعلومات التى جمعناها واستجابات صاحب الحالة فى اختبار تفهم الموضوع ، نستطيع ذكر التفسيرات التالية المرتبطة بحالة القلق التى كان يشكو منها المصاب :

١ — كانت طفولته تعسة مضطربة بسبب كثرة زواج والده وما ارتبط بذلك من طلاق كثير من الزوجات . ولم يجد المصاب —عند ما كان طفلا— فى أمه ما يشبع فيه الحاجة إلى العطف والحنان ، ذلك لأنها كما اتضح لنا من البحث مغلوبة على أمرها .

٢ — إن سوء الحالة المالية فى الأسرة لم يتح للحالة فى مراحل الطفولة أن تشبع رغباته المختلفة ، فكثيرا ما كان يرغب فى مجاراة زملائه الموسرين فى المدرسة . وقد سببت له هذه الحالة الشعور بالنقص .

٣ — تربى صاحب الحالة تربية دينية متزمتة ، جعلته يكبت الكثير من مشاعره ويعتبر أن مجرد التفكير فى التنفيس عن هذه المشاعر أمر يعاقب عليه ويعرضه لغضب الله والناس والإصابة بالمرض .

٤ — تحمل المصاب وهو ما زال فى سن صغير مسئوليات جساماً فقد قام بأعباء أسرته وكلف نفسه فوق ما يطيق ، ولا شك أن هذا الموقف أدى به إلى ألوان مختلفة من الصراع ، صراع بين رغبته فى حماية أهله وأخوته ليجنبهم ما تعرض له هو من حرمان ، وبين نفسه التى تنزع إلى إيثار الراحة وتجنب الشواغل .

٣ — ثم كبر صاحب الحالة وأراد أن يتزوج وصور له وهمه أن ابنة عمه فتاة حسناء ، تتمتع بقسط وافر من الجمال والفتنة . فلما تزوجها نُكبَ

عندما رآها ، وحزن حزنا شديدا بسبب ضعفها وضآلة جسمها وسوء صحتها .
وقد كان يشعر بالنفور عند الاقتراب منها ، لأنها كانت فى نظره عبارة عن
جلد فوق عظم [١] .

هذه كلها ألوان من الصراع تدور فى نفس الفرد دون أن يخرج منها بحل
يرضيه أو تطمئن إليه نفسه . وكما اتضح لنا أن بعض مصادر هذا الصراع يرجع
إلى خبرات وتجارب مؤلمة تتصل بمرحلة الطفولة ، وبعضها يرجع إلى سن
متأخرة . ولقد أنهك المصاب هذه الصراعات المختلفة فجعلته فى حالة دائمة من
التوتر . لهذا فلا عجب إن رأيناه يصاب بالقلق وأن تبعث المواقف أو الظروف
الجديدة التى تشبه المواقف القديمة ، فى نفسه الرهبة أو الخوف وأن يظن أنه
سيكون (الشهيد) لكل هذه الأحوال . وهذا يلخص ما بدأه المصاب عند
قوله فى أول جلسة من جلسات العلاج « أشعر بالضيق والاكتئاب وتوقع
الفشل والنفور من الناس . . . الخ » .

(١) لم يكن من تقاليد الأسرة أن يرى الرجل عروسه قبل الزواج .

٢ — المخاوف

يشعر بعض الأفراد بحالات من الخوف الشديد الذى يختلف فى طبيعته عن الظاهرة المعروفة باسم الخوف العادى الذى يتعرض له الأفراد فى حياتهم اليوميسة كالخوف من سيارة مسرعة تقترب من الشخص السائر فى الطريق أو الخوف من كلب ضال . . . . الخ إن الفرق بين الخوف العادى — كما وضحناه — والنوع الثانى من المخاوف ينحصر فى أن المخاوف العادية يمكن تحديدها ، كما أن التغلب عليها ليس بالأمر الصعب ، بعكس النوع الثانى من المخاوف ، فهى فى الواقع غامضة ويصعب التخلص منها إلا عن طريق الدراسة والبحث الطويل الذى يقوم فى أساسه على التحليل والاستقصاء ! ومن أجل ذلك أطلق على هذا النوع من المخاوف — المخاوف المرضـية لتميزها عن المخاوف العادية .

وترتبط المخاوف المرضية ببعض حوادث الطفولة المبكرة والتى صاحبتها انفعالات وخبرات مؤلمة . والذى يحدث أن هذه الحوادث تنسى على مرور الزمن ، بينما الحالات الانفعالية والخبرات المؤلمة المتصلة بها تستمر باقية وتؤثر فى سلوك الفرد وفى حياته اليومية ، وذلك إذا ما تواجد فى موقف من المواقف يشابه الموقف القديم الذى أثار فيه الخوف . وهنا يبدو الفرد خائفاً مضطرباً دون أن يكون هناك ما يبرر ذلك .

وسنتحدث فيما يلى عن مثل من أمثلة المخاوف المرضية ، ليتوضح لنا كيف تتكون هذه المخاوف وكيف تؤثر فى سلوك الفرد وتدفعه إلى القيام بألوان شتى من السلوك الشاذ :

وهى حالة فتاة تخاف من المياه الجارية[1] دون أن تعرف لذلك سبباً

(1) Bagby: Psychology of Personality.

واضحاً . وقد سيطرت عليها هذه المخاوف اللاشعورية بين الحادية عشرة ، والعشرين من عمرها ، وكانت هذه المخاوف تظهر فى أشكال مختلفة منها :

(ا) كان من المتعذر على هذه الفتاة أن تدخل الحمام دون أن يؤنسها رفيق من أهلها ليبعث فى نفسها الأمن والطمأنينة ، وكانت بالرغم من ذلك تصرخ كلما رأت المياه تتدفق من الصنابير .

(ب) وفى المدرسة كان يبدو عليها الذعر عندما يقع بصرها على المياه المنبعثة من نافورة فناء المدرسة .

(ج) وكانت تضطر عندما تركب القطار إلى إغلاق النوافذ و إسدال الستائر التى تحول بينها و بين رؤية مجارى المياه والأنهار التى يمر بها القطار .

وقد ظهر من التحليل النفسى أن الفتاة وهى فى سن السابعة خرجت بصحبة أمها وخالتها فى نزهة خلوية لقضاء يوم عطلة ، وعندما أقبل المساء ، اضطرت الأم إلى العودة بمفردها إلى المنزل ، بينما أصرت البنت على أن تبقى مدة أطول مع خالتها . وقد قبلت الأم ذلك الوضع على أن تلزم البنت الهدوء والطاعة وتنفيذ رغبات خالتها . ولكن الذى حدث بعد فترة من عودة الأم ، أن البنت جنحت إلى اللعب بمفردها ، وكان من نتيجة ذلك أن وقعت بين الصخور الملقاة فى إحدى المجارى المائية ، وكانت المياه تتدفق بشدة فوق رأسها ، وتعالى صراخها من جراء ذلك ، فحملت إلى منزل قريب حيث جففت ملابسها ، ولزمها الذعر خوفاً من أن تحاسبها أمها على إخلالها بما وعدتها به من التزام السكينة والهدوء . ولكن خالتها كانت تهدئ من روعها محاولة طمأنتها من هذه الناحية ، عن طريق وعدها لها بكتمان ما حدث عن أمها .

ومرت الأيام ونسيت الحادثة ، ولكن ما صاحبها من رعب وخوف

وما أحاط بها من ذكريات ترتبط بظروف الحادثة ، كبت فى اللاشعور . وظل الخوف يعمل فى الصور المختلفة التى شرحناها قبل ذلك . وهذا الخوف المكبوت وما ارتبط به من ملابسات وذكريات يكوِّن عقدة ؛ والعقدة عبارة عن ظاهرة نفسية لا شعورية (مكتسبة) ، تعتبر مصدراً مسئولاً عن الكثير من سلوك الفرد . إن مثل هذه الدوافع اللاشعورية ، تختلف باختلاف ظروف الأفراد ونشأتهم وما تعرضوا له من أحداث ؛ ومن ثم يحق لنا أن نسميها دوافع ثانوية شخصية .

(٣) التبول اللاإرادى

تكتمل قدرة الطفل على التحكم فى عملية التبول النهارى فى الشهر الثامن عشر . أما التحكم فى عملية التبول الليلى فيتم — عادة — فى المدة التى تقع بين منتصف العام الثالث ونهايته (٢½ — ٣) .

هذا هو التطور الطبيعى لعملية التبول فى الطفل العادى ، إلا أننا نلاحظ فى بعض الحالات أن الطفل يتعذر عليه التحكم فى العملية حتى سن كبيرة ، تصل أحياناً إلى السابعة أو الثامنة ، وقد تمتد إلى ما بعد ذلك . وهنا يجد المشرفون على تربية الطفل أنفسهم أمام مشكلة من مشكلات الطفولة ، يطلق عليها أحيانا (البوال)[1] ، ويطلق عليها أحياناً أخرى (التبول اللاإرادى)[2] .

أسباب التبول :

إن التبول اللاإرادي — شأنه فى ذلك شأن بعض الاضطرابات الانفعالية — يرجع مصدر العلة فيه إلى أسباب نفسية ، تنشأ بفعل البيئة والطريقة التى تربى

(١) ترجمة الدكتور إسحق رمزى للفظ الانجليزى (enuresis)
(٢) ترجمة الدكتور عبد العزيز القوصى لنفس اللفظ .

بها الطفل ! هل هى طريقة تقوم على إشباع حاجات الطفولة المختلفة من حنو وانتماء إلى جماعة تحب الطفل وتقدره وتنمى فيه الرغبة فى التحرر والمخاطرة ؛ أم هى طريقة تقوم على الإذلال والحرمان والمنع والكف و إصدار الأوامر والنواهى فى إسراف وقسوة ؟ ومما لاشك فيه أن هذا النوع من التربية الخاطئة يعرض الطفل إلى ألوان شتى من الصراعات المستمرة ، المصحوبة بشعور غامض من القلق ؛ ثم تأخذ بوادر هذا القلق تستفحل تدريجيا ، إلى أن تصبح خطرا يهدد كيان الطفل النفسى ؛ وهنا يلجأ العقل إلى الاحتماء بنوع من التنفيس الانفعالى ، الذى يتجه إلى مركز تنفيس صالح ، فى حالة التبول ، نلاحظ أن أى خلل عضوى يصيب الجهاز البولى ، سواء أكان مباشرا (ضيق المخارج البولية ، الالتهابات) أو غير مباشر (استسقاء النخاع الشوكى (Spina bifida) قد يتيح مركز تنفيس صالح . ويؤدى ، كذلك ، خلل الجهاز البولى من الناحية الوظيفية نفس النتيجة ، ومن العوامل التى تساعد على الخلل الوظيفى ما يأتى : الإصابة بالبلهرسيا والانكلستوما ووجود البول الحمضى المركز وعدم تدريب الطفل على العادات الصحية المتصلة بعملية التبول ، والضعف الجسمى العام الذى يترتب على فقر الدم وسوء التغذية مثلا ، واضطراب الجهاز العصبى أو حساسيته .

ومعنى ذلك أن أصابة الطفل بالتبول اللا إرادى ، يجب أن يتضافر فيها عاملان :

(ا) عامل استعدادى يتصل بالتكوين العضوى أو الوظيفى للجهاز البولى .

(ب) عامل نفسى ينشأ بسبب البيئة ومافيها من خبرات مؤلمة واضطرابات انفعالية حادة .

وفى استطاعتنا أن نوضح ذلك التفاعل بالحالات التالية والتى وردت على العيادة النفسية التابعة لوزارة التربية والتعليم :

الحالة الأولى :

تلميذة تبلغ من العمر ١٥ سنة ، تشكو من ضيق وتبول أثناء الليل .

تكوين الأسرة : تتكون الأسرة من الأب الذى يشتغل بالأعمال التجارية ، تزوج زوجتين ، ماتت أولاهما (وهى أم الحالة) منذ أربع سنوات ، أى عندما كان عمر الحالة أحد عشر عاما . أما الزوجة الثانية فتبلغ من العمر ٢٠ عاما .

ترتيب الحالة بين إخوتها لأمها : الثانية ، الأول ذكر يكبرها بعام واحد والأخير ذكر يبلغ من العمر ثمانى سنوات . ولم تنجب زوجة الأب أطفالا عند ما بدأت الحالة تتردد على العيادة النفسية للعلاج .

تاريخ الأسرة :

تزوج الأب وهو فى سن الرابعة والعشرين من عمره ، وعاش مع زوجته الأولى ١٧ عاما ثم توفيت لإصابتها بحالة روماتزم واضطراب فى القلب .

ولقد ورد فى أقوال الأب « أن زوجته الأولى لم تكن تتمتع بحياة هادئة ، فقد كانت عصبية المزاج ، قليلة الصبر ، دائمة الشكوى من حالة الروماتزم ، ولقد انعكست هذه المتاعب والمضايقات على سلوكها مع أطفالها ، من جهة ، وأقارب زوجها من جهة أخرى : ذلك أنها كانت دائمة الشجار مع أطفالها ، تسىء معاملتهم وتقسو عليهم وتتبرم من وجودهم وتعتبرهم مصدر شقائها . وقد اتسع مجال تبرم الزوجة فانتقل الأطفال إلى أقارب الزوج ، إذ حدث أنها تشاجرت منذ ٧ سنوات مع شقيق الزوج ، وقد انتهت المشاجرة باشعال النار فى نفسها ثم ذهبت للزوج فى غرفته وهى على هذه الحال فذعر الزوج وقام بتمزيق ردائها وأصيبت يداه بجروح لا يزال أثرها واضحاً ، كما أصيب باضطراب نفسى ، وأصبح يفزع عندما يرى النار ، ويرتجف إذا طرق

أحد باب غرفته . وعند ما توفيت زوجته الأولى على النحو الذى أوردناه سابقا ، تزوج زوجة أخرى ، شابة ، وصفها الزوج بالهدوء وطيبة القلب .

أما (الحالة) فتصف زوجة الأب « بأنها تحاول دائما التفرقة بينهم و بين أبيهم ، فهى شديدة الغيرة منهم ، تفرح لأحزانهم وتتحكم فيهم ، وتتولى الصرف على المنزل فتقتر فى المصروفات لـكى تدخر لنفسها ما يساعدها على شراء مايلزمها من الملابس والحلى .

التاريخ التطورى للحالة :

كانت ولادة الطفلة طبيعية وظروف الحمل عادية إلا أن (الحالة) أصيبت فى اليوم الأول من ولادتها بحالة نزيف من « السرة » لمدة ساعتين ، وكانت ضعيفة البنية . كانت الرضاعة من الثدى وتمت عملية الفطام فى تمام السنة والنصف . أما عملية المشى فتمت فى حوالى السنة الثانية ، أما الـكلام فقد تأخر حتى العام الثالث ، إلا أنه بدأ واضحا عندما بلغت الخامسة من العمر . لم تتمكن الطفلة من أن تتحكم فى عمليـة التبول حتى هذه السن ، فهى تتبول على نفسها ليلا مرة أو مرتين ، فى أول الليل وآخره .

ويقول الأب إن (الحالة) أصيبت (بالتيفو يد) عندما كانت فى الثالثة من عمرها ، ولقد أنهكها المرض ، وأثر فى صحتها العامة .

تحليل العوامل الفعالة التى أدت للمشكلة :

يتضح من البحث السابق ، الأمور الآتية :

١ — أن الحالة منذ طفولتها المبكرة . كانت هدفا لمشاعر الخوف والاضطراب بسبب ضيق أمها وتبرمها بأولادها ، وقد يكون مرجع ذلك ما كانت تعانيه الأم من مرض .

٢ — لم يستطع الأب تعويض أطفاله عما كانوا يحتاجون إليه من عطف وحنان ، وذلك لما كان يعانيه من تبرم وضيق بسبب زوجته ، وما كانت تضفيه على جو الأسرة من فزع .

٣ — كل ذلك جعل الطفلة منذ باكورة حياتها تعيش فى جو مضطرب ، لم تستطع فى خلاله أن تشبع حاجات الطفولة ، من حنو وعطف ورغبة فى الإنتماء إلى جماعة تحبها وتعطف عليها . وقد أدى ذلك إلى تعرضها لمجموعة من الصراعات النفسية ، والانفعالات المؤلمة .

٤ — عبرت هذه الانفعات المؤلمة ، المتراكمة فى نفس الطفلة ، عن نفسها بشكل مرضى ، ألا وهو التبول اللا إرادى .

٥ — والذى حدد هذا العارض المرضى وأظهره على النحو السابق ، عامل استعدادى اتخذ شكل ضعف عام فى البنية منذ الولادة ، ضاعف من أثره إصابة الطفلة بمرض (التيفويد) عند ما بلغت الثالثة من عمرها .

٦ — كان لزوجة الأب دور هام فى مضاعفة آلام الطفلة واضطرابها وشعورها بعدم الأمن ، ولقد بدا ذلك جليا فى أحلام الطفلة ، فقد كانت تحلم دائما أحلاما مخيفة ، كأن ترى مثلا عبدا أسود يهجم عليها ليقتلها بعد أن يكتم أنفاسها . وفى مرة أخرى روت حلما حدث لها ، تلخص فى « أن النساء بمصر قد بلغن عددا كبيرا ، لدرجة دفعت كل زوج إلى قتل زوجته بقطعة من حديد » .

الحالة الثانية :

هذه حالة طفلة فى التاسعة من العمر ، فى السنة الثانية الابتدائية حضرت إلى العيادة بصحبة خالها . كانت الأسرة تشكو من أن الطفلة تتبول على نفسها

من الصغر ، بالإضافة إلى ما ينتابها من أزمات فى التنفس ، وقيامها بحركات وإشارات غريبة مع سرعة استثارتها لأقل سبب .

تكوين الأسرة : تتكون الأسرة من الأب والأم وخمسة أطفال . الحالة هى الطفلة الثانية ، والأول فى ترتيب الإخوة والأخوات ذكر يبلغ من العمر أحد عشر عاما .

التاريخ التطورى للحالة :

جاء على لسان الأم أنها لم تكن راغبة فى إنجاب الأطفال عند ما حملت بالحالة ؛ ولم تتأكد من حملها إلا فى الشهر الخامس عند ما بدأ الجنين يتحرك فى أحشائها . كانت الولادة طبيعية ، وقامت الأم بإرضاع طفلتها بنفسها وفطمتها تدريجيا فى منتصف العام الثانى ؛ أتمت عملية المشى والكلام فى حوالى الشهر الثامن عشر . بدأت الأم تعود طفلتها على ضبط وظائف الإخراج فى السنة الأولى ، وعلى الرغم من ذلك فهى لا زالت تتبول على نفسها حتى تاريخ ترددها على العيادة ، ويحدث التبول فى منتصف الليل ، وإذا أيقظتها أمها ليلا للتبول فإنها تتعثر فى مشيتها ثم تقف وتظل واقفة حتى تتبول على نفسها : أما عن حالتها الصحية ، فعلى الرغم من أنها تتمتع ببنية جيدة ، إلا أنه يبدو من سرعة استثارتها من كثرة حركاتها ، أن جهازها العصبى فيه إضطراب وحساسية بالغة .

علاقة الطفلة بإخوتها ووالديها :

لم تكن علاقة الطفلة بإخوتها طيبة وخاصة بأخيها الذى يكبرها إذ هما دائما الخلاف معا . وتقول الأم إن (الحالة) تعلن كراهيتها لأخيها ، الذى يبدأ دائما بمشاكستها والاعتداء عليها ، فى الوقت الذى يتعذر عليها

فيه رد هذا الاعتداء ، وكل ما تستطيع أن تقوم به ردا على هذا العدوان ، هو أن تذهب لأمها شاكية لانصافها أو تنفجر باكية .

هذا عن علاقة الحالة بأخيها ، أما من حيث علاقتها بأبيها فهى علاقة سيئة لقسوته ، وهو يبرر هذه المعاملة السيئة لمخالفتها أوامره . وكثيرا ما تعده الطفلة بالتوبة اتقاء للضرب ، إلا أنها بمجرد الخلاص منه ، فإنها تعود وتتحدى أوامره وتخرج له لسانها كما أنها تبدأ مشاكسة أمها وجدتها وتوجه إليهما ألفاظا نابية ، فتضطر الأم إلى التظاهر بعدم سماعها حتى لا تمادى فى أسلوبها . أما عن سلوك الطفلة فتستطيع إجماله فيما يلى : عنيدة ، صلبة الرأى ، تضرب من يلعب معها من الرفاق بدون سبب ، كثيرة الحركة ، ميالة إلى المبالغة والتهويل .

تحليل العوامل الفعالة التى أدت للمشكلة :

يتضح من دراسة الحالة الأمور الآتية :

١ — كانت الطفلة تشعر بغيرة شديدة من أخيها الأكبر الذى كان كثيرا ما يتفنن فى إيذائها والاعتداء عليها ومشاكستها . ولا شك أن هذا الشعور أدى إلى إضطرابها وعدم شعورها بالطمأنينة فى جو الأسرة .

٢ — لم تجد الطفلة فى سلوك والديها نحوها ما ينصفها من أخيها . وعلى العكس من ذلك كان سلوك الأب نحوها يقوم على القسوة والتهديد والوعيد والعقاب . أما الأم فكان سلوكها سلبيا ، ومن ثم كان هذا السلوك لا يرضى الطفلة ، ولذلك كانت فى بعض الأحيان تسخر من أمها وتسبها بألفاظ نابية .

هذه هى أهم العوامل التى أدت إلى اضطراب الطفلة النفسى الذى نجم عنه اصابتها بالتبول اللا إرادى . والذى ساعد الإنحراف على أن يتخذ هذه الصورة

دون غيرها من الصور المرضية الأخرى هو أن جهازها العصبي كان يمتاز بعدم الاستقرار والاضطراب والحساسية البالغة ، ودليلنا على ذلك ما كانت تقوم به الطفلة من حركات وإشارات كثيرة وغريبة ، بالإضافة إلى سرعة استثارتها لأتفه الأسباب . ولا شك أن هذا العامل البدنى (الاستعدادى) أثر على الجهاز البولى من الناحية الوظيفية .

هذه صورة من حياة طفلة تعرضت منذ طفولتها لعوامل بيئية مضطربة ، فليس عجيبا أن تتعرض والحالة هذه لضروب القلق النفسى الذى أدى بها إلى التبول اللا إرادى ، عند ماتوفر العامل الاستعدادى (إضطراب الجهاز العصبى الذى أثر بدوره على الجهاز البولى) وقد تضافر العاملان معا فنتج عنهما هذا اللون من الإنحراف .

الحالة الثالثة :

هذه حالة تلميذة فى العاشرة حضرت للعيادة بصحبة والدتها ، تبدو مضطربة وتجيب باختصار على مايوجه إليها من أسئلة .

الشكوى : تبول ليلى وآلام بجنبيها .

تكوين الأسرة :

تتكون الأسرة من الأب والأم ، أنجبت الأم خمسة أطفال قبل ميلاد الحالة ، توفوا جميعا بنزلات معوية . ثم أنجبت طفلا آخر بعد ميلاد الحالة ، توفى عند مابلغ من العمر ثمانية عشر شهرا ، وكانت وفاته بالحصبة .

التاريخ التطورى للحالة :

كانت الأم راغبة فى الحمل ، وكانت الولادة طبيعية ؛ الرضاعة من الثدى حتى الشهر السابع ، وبعد ذلك قل اللبن فاضطرت الأم إلى الاستعانة بالطعام

الخارجى ، كان الفطام فجأة خلال السنة الثانية ، بوضع مادة شديدة المرارة على حلمة الثدى . وقد تمت عملية المشى فى أوائل العام الثانى .

تحكمت الطفلة فى عملية التبرز فى الشهر الثامن عشر ، بينما لم تستطع ضبط عملية التبول . إذ أنها تتبول على نفسها مرة أو مرتين فى الأسبوع ، ويكون ذلك عادة فى آخر الليل .

واقد تبين من الفحص الطبى للحالة أنها مصابة بضعف شديد و(أنيميا) حادة : تحليل وازرمان كان إيجابيا . أصيبت الحالة بالحصبة فى سن السادسة و (بالتيفويد) فى سن الثامنة .

سلوك الوالدين نحو الحالة :

تقول الأم إنها فرحت كثيراً لميلاد الطفلة فقد جاءت بعد وفاة خمسة من أبنائها بالنزلة المعوية . وهى لذلك تخاف عليها وتدللها . أما الأب ، فقد بلغ شغفه وتعلقه بابنته درجة كبيرة ، فهو يجيب جميع مطالبها . ان كلا من الأب والأم يخاف على الطفلة إذا ما نزلت للطريق العام ، خشية أن تصاب بمكروه أو أن يعتدى عليها أحد من أبناء الجيران ، ومجمل القول أن الطفلة كانت موضع رعاية وعطف زائد ، لدرجة أنها تشارك والديها النوم على سرير واحد منذ ولادتها حتى اليوم .

سلوك الطفلة : مطيعة ، خجوله ، تبكى فى حالة الاعتداء عليها ولا تدافع عن نفسها حتى ولو اعتدى عليها بالضرب من رفاقها : تخاف الظلام ، ولا تستطيع الذهاب لدورة المياه ليلا بمفردها .

تعقيب : ومجمل القول إن الطفلة كما بينا فى هذه الحالة تعانى منذ طفولتها المبكرة من حالات عدم الاستقرار والتوتر الانفعالى الذى كان سببا فى اصابتها

بالانحراف الذى ظهر فى هذه الحالة على شكل (تبول لا إرادى) ان العامل النفسى المسئول والذى سبّب المشكلة يرجع — فى أساسه — إلى إفراط الأبوين ومغالاتهما فى رعاية طفلتهما وتدليلها ، وكان يحسن بهما أن يدرباها خلال هذه الفترة من حياتها على الاعتماد على النفس وتحمل المسئوليات والقدرة على التعاون والتضحية . ولاشك أن هذه كلها عوامل تدل على انسجام وتكامل فى الشخصية.

وبالإضافة إلى ذلك فقد تبين من الفحص الطبى للحالة ، أنها مصابة بضعف شديد و (أنيميا) حادة منذ طفولتها ؛ وهذه — دون شك — أثرت بدورها على الجهاز البولى من الناحية الوظيفية ، فجعلته مركز تنفيس صالح لما كانت تعانيه الطفلة من توتر نفسى بسبب التربية الخاطئة التى مرت بها الطفلة .

(ج) الانحرافات السلوكية

يتعرض بعض الأطفال إلى نوع ثالث من المشكلات ، تبدو أعراضها على شكل سلوك مضاد للمجتمع بما فى ذلك السلوك الخارج على القانون . ومن أهم مظاهر هذه الانحرافات ما يلى :

(١) جرائم الأحداث كالسرقة والنشل وهتك العرض والتزييف .

(ب) وهناك بجانب القائمة السابقة ، انحرافات أقل خطورة ، كالهروب من المنزل والمدرسة والتشرد والتسول والكذب والتخريب .

ويطلق على مظاهر الانحرافات السابقة بقسميها ، الإصطلاح « جُناح الأحداث » .

تشريعات الأحداث فى مصر :

إن قانون العقوبات رقم ٥٨ الصادر فى عام ١٩٣٧ قد أفرد باباً خاصاً بالأحداث ، وبين نوع الانحرافات التى تعتبر خروجا على القانون ؛ وفى الوقت ذاته قسم الأحداث إلى أربع فئات :

الفئة الأولى : (أطفال دون السابعة) — لا يجوز إقامة دعوى على طفل خالف القانون دون السابعة . والحكمة فى ذلك أن الطفل دون السابعة ، لا يعتبره القانون مسئولا عن تصرفاته .

الفئة الثانية (٧ — ١٢) : لا يجوز الحكم على الصغار بين (٧—١٤) بالعقوبات العادية ، وهى الحبس مهما كانت ذنوبهم . وتتخذ بشأنهم وسائل الملاحظة والتربية والتأديب ، فإذا ارتكبوا جناية أو جنحة ، يحق للقاضى أن يحكم بتسليمهم لأولياء أمورهم ليلاحظوا سيرهم فى المستقبل . أما إذا كان الجرم كبيراً ، جاز للقاضى أن يرسلهم إلى إصلاحية من إصلاحيات الأحداث ، ليمكثوا فيها مدة لا تزيد على خمس سنوات .

الفئة الثالثة (١٢ — ١٥) : إذا ارتكب الحدث جناية عقوبتها الإعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة ، كان على القاضى أن يستبدل بعقوبة الإعدام عقوبة أخرى هى الحبس لمدة لا تزيد عن عشر سنوات . أما إذا كانت عقوبة الجريمة السجن أو الأشغال الشاقة المؤقتة ، يستبدل بها الحبس لثلث المدة المقررة للجريمة إذا ارتكبها البالغ المسئول جنائياً .

الفئة الرابعة (١٥—١٧) : لا يجوز الحكم عليهم بالإعدام ولا بالأشغال الشاقة ، وإنما تخفض العقوبة فى هذه الفئة إلى فترة لا تقل عن عشر سنوات .

ولقد قضى القانون أن الجهة التى يرسل إليها الأحداث ليست السجون العادية ، وإنما الإصلاحيات والمؤسسات الخاصة . وقد جرت العادة على أنه إذا بلغ الحدث سن الثامنة عشرة وهو ما زال فى الإصلاحية ، وما زالت عليه مدة عقوبة ، فإنه يقضى المدة الباقية له فى السجون العادية .

المؤسسات المعترف بها رسمياً لإيداع الأحداث :

مؤسسات حكومية :

١ — إصلاحية الجيزة (دار التربية للشباب) وهى خاصة بالأحداث من سن ٨ فأكثر . ولا يمكث الحدث بالإصلاحية بعد سن ١٨ سنة .

٢ — إصلاحية البنات بالجيزة (دار التربية للبنات) .

٣ — إصلاحية القناطر (دار التربية بالقناطر للبنين) ، وهى خاصة بالأحداث المشردين . وهى عبارة عن مدرسة صناعية مخصصة للغزل والنسيج ، وتستقبل الأحداث ذوى الاستعدادات الخاصة لهذا النوع من العمل . والذى يحدث أن الحدث يرسل إلى إصلاحية الجيزة ويبقى فترة يظهر فيها استعداده المهنى ، ومن ثم فهو يرسل إلى إصلاحية القناطر .

٤ — إصلاحية المرج (دار التربية بالمرج للبنين) ، وتستقبل الأحداث الذين ارتكبوا جرائم إذ إن إصلاحية الجيزة تستقبل الأطفال المشردين فقط .

مؤسسات أهلية :

١ — مدرسة التربية الاجتماعية للبنين بالزيتون ، وهى تابعة لجمعية رعاية الأحداث .

٢ — بيت الطفل بمصر القديمة للبنين ، وهو تابع للاتحاد المصرى لرعاية الطفولة .

٣ — دار التربية الشعبية للبنين ، وهو تابع لرابطة الإصلاح الاجتماعى .

٤ — دار الضيافة للبنات بحلوان وهو تابع لجمعية مصر لحماية المرأة والطفل .

وتستقبل بعض هذه المؤسسات الأهلية الأحداث الذين تقل أعمارهم عن الثامنة ، ذلك لأن إصلاحية الجيزة ترفضهم .

أسباب انحرافات الطفولة :

قبل أن نستعرض الأسباب الحقيقية التى تؤدى بالحدث إلى الانحراف والقيام بسلوك مضاد للمجتمع بما فى ذلك السلوك الخارج على القانون ، أرى أن نذكر شيئاً عن النظريات القديمة فى تفسير الجريمة :

وأولى هذه النظريات معروفة باسم النظرية الجسمية ، وهى تقول بأن المجرمين يتميزون عن غيرهم بسمات بدنية يمكن ملاحظتها فى بيئتهم الخاصة ، فهى بهذا تربط بين حالتهم الجسمية و بين تصرفاتهم الشاذة . وهناك علاقة وثيقة بين السلوك الإجرامى ومظاهر الجسم وخاصة سمات الوجه و بهذا أصبح الإجرام ثابتا يصدر عن أفراد معينين لهم شخصياتهم الذاتية وهم مجبرون فى إجرامهم لأن تركيبهم الجسمى يرغمهم على الإتيان بأفعالهم غير السوية ، ولهذا سميت هذه النظرية أحيانا بالنظرية الجبرية . وأهم مؤيديها (Lumbrose) (لومبروسو) فى إيطاليا وهوتون (Hooton) فى أمريكا .

وتأتى بعد هذا النظرية الحيوية وهى تجتهد فى ربط الجريمة بالوراثة فالسبب الدافع للجريمة عند أصحابها هو صفات متأصلة فى الفرد تأتيه بالولادة وميوله الإجرامية تنزل إليه من أبويه وأسلافه . و يعتمدون فى إثباتها فى الغالب على ما يلاحظونه من مثل هذه الصفات عند بعض الكائنات المخالفة للانسان كالنباتات والحيوانات ، و بتوهمهم أن مثل هذه الصفات الإجرامية تسود وتنتشر عند بعض أفراد أسر معينة من الناس. وأهم من قال بهذه النظرية الأستاذ والتر (Walter)[١] .

---

(١) عن مقال للدكتور عبد العزيز عزت (الجريمة وعلم الاجتماع) مجلة علم النفس يونيو ١٩٥٢

ولقد دلل أصحاب النظرية السابقة (نظرية توريث الجريمة ، على صحة قولهم بأمثلة كثيرة تؤيد الفكرة القائلة بأن الحدث المجرم قد يكون نتاجا لعائلة مجرمة ، أغلب أفرادها من المجرمين الخارجين على القانون .

المثال الأول : عائلة (Jukes) وهى عائلة معروفة فى أمريكا . وقد قامت دراسات تتبعية لهذه العائلة شملت حوالى ٣٠٠٠ شخص ، وقداتضح أن حوالى ٣٤ ٪ من أفراد العائلة كانوا إما لصوص أو قطاع طريق أو نساء عاهرات . . الخ .

المثال الثانى : عائلة الطفلة (جريس) التى عرضت على (سيرل بيرت) . أرسلت الطفلة إليه من المدرسة بتهمة السرقة وعند دراسة الحالة اتضح ما يلى :

١ — جد الطفلة لأبيها كان طريد القانون ، هرب من باريس إلى انجلترا حيث كان قد ارتكب جريمة قتل .

٢ — والد الطفلة أتهم فى حوادث سرقة وتهريب المخدرات .

٣ — شقيق (جريس) سكير ، مدمن ، ونشال محترف .

٤ — للطفلة عمتان تعيشان بفرنسا وهما عضوتان فى عصابة تزييف .

٥ — والد الطفلة لم يتزوج زواجا شرعيا بأمها . وعند ما كان يتعطل عن العمل كان يُكرهها على البغاء .

وعلى الرغم من هذه الأمثلة ، أحب أن أشير أن عدد الأحداث المجرمين الذين يقال إن دماء الجريمة تجرى فى عروقهم ، إنما هم عدد قليل ، وحتى ولو كان تاريخ العائلة واضح فيه الجريمة ، فإن هذا لايقوم دليلا دائما على أن الإجرام ميل موروث .

جناح الأحداث وكيف يفسر فى الوقت الحاضر :

قد ثبت من الأبحاث والدراسات المختلفة أن جرائم الأحداث وذنوبهم ترجع إلى أكثر من سبب ، ولكننا نستطيع أن نرجعها إلى الأسباب الرئيسية التالية . وأحب أن أشير إلى أن كل سبب من هذه الأسباب ، لا يلعب دوره منفردا ، بل إنها تتفاعل جميعها فتؤثر على كيان الطفل وعلى نموه النفسى والاجتماعى ، هذا وبالاضافة إلى ذلك ، فان انحرافات الأطفال السلوكية ، ليست وليدة حادث أو خبرة طارئة ، بل هى سلسلة متصلة من التغييرات تنشأ فى السنوات الأولى من الحياة وتؤثر بدورها على الجهاز النفسى للطفل ، فتجعله هدفا للصراعات الانفعالية التى تعبر عن نفسها بشكل أو أكثر من مظاهر الانحراف السلوكى . ولقد أثبتت الأبحاث المختلفة ومن أهمها أبحاث (جون بولبى) أن اضطراب العلاقة مع الأم فى السنوات الأولى كان من العوامل الهامة فى حياة كثير من الجانحين .

ويمكننا بعد هذا التمهيد ترتيب العوامل التى تؤدى إلى جناح الأحداث فيما يلى :

(أولا) عوامل بيئية .

(ثانيا) عوامل نفسية (ذاتية) .

أولا — العوامل البيئية

يمكن تقسيم العوامل البيئية إلى قسمين .

(ا) عوامل بيئية داخل المنزل .

(ب) عوامل بيئية خارج المنزل .

(ا) العوامل البيئية داخل المنزل وتشمل :

(أولا) حالة المنزل من الناحية الاقتصادية :

١ — الفقر .

٢ — ازدحام المنزل .

٣ — انعدام وسائل الراحة .

(ثانيا) إنهيار الجو الأسرى بسبب :

١ — موت الأب أو الأم .

٢ — هجر أحد الوالدين أو كليهما للطفل .

٣ — الانفصال أو الطلاق .

٤ — سجن الوالد .

(ثالثا) أسلوب التربية فى الأسرة :

١ — إفراط ولين فى المعاملة .

٢ — مغالاة فى القسوة .

٣ — عدم اتفاق الوالدين على خطة واحدة لتربية الطفل .

٤ — التفرقة فى المعاملة بين الأطفال (الغيرة) .

(رابعا) الحالة الأخلاقية فى الأسرة :

١ — الادمان (مخدرات — خمور . . . الخ) .

٢ — مجون الزوج أو الزوجة .

٣ — تشجيع الأطفال على السرقة وارتكاب الجرائم .

(ب) العوامل البيئية خارج المنزل تشمل ما يلى :

(أولا) مشاكل الرفاق وصحبة قرناء السوء .

(ثانيا) مشاكل وقت الفراغ ، والأثر السيء للسينما .

(ثالثا) مشاكل العمل فى المدرسة أو المصنع .

ثانيا — العوامل النفسية

إن العوامل البيئية المختلفة التى ذكرناها ، وما يصاحبها من عدم إشباع حاجات الطفل الأساسية ، من جهة ، أو عجزه عن التكيف الاجتماعى السوى، من جهة أخرى ، تؤدى بالتدريج إلى قيام صراع نفسى ، أو نوع من انعدام الأمن الداخلى ، لا يلبث أن يستفحل حتى يصير فيما بعد الجانب الغالب فى تكوين الناحية النفسية للطفل .

والآن يبرز أمامنا السؤال التالى :

إلى أى مدى يمهد شعور عدم الأمن ، وما يستتبعه من الصراع النفسى السبيل إلى ظهور هذا السلوك اللااجتماعى والذى نسميه « جناح الأحداث » ؟

حين تمر بالنفس أزمة بسبب الصراعات الانفعاليــة المتــكررة والتى تنشأ بسبب العوامل البيئية المضطربة ، تحاول النفس أن تجد لها منصرفاً ، فتحيل صورة هذه الشدة إلى عوارض مرضية ، شاذة . ولـكن السؤال ما زال قائماً : لماذا عبرت تلك الشدة عن نفسها ، بهذا الأسلوب بالذات ؟

إنه فى حالة الاضطرابات السلوكية ، فيمكن أن تقع الأعراض جميعها فى إحدى الفئات الآتية[1] :

١ — أعراض ترجع إلى نزعة عدوانية .

٢ — أعراض ترجع إلى ضعف الشعور بالخطيئة (أو غيابه) .

أما عن الأعراض الأولى ، فتنشأ — بصفة خاصة — نتيجة الحرمان الأموى وعدم إشباع حاجات الطفل الأساسية (الحاجة إلى الأمن ، والتقدير والانتماء إلى جماعة تحبه . . . . الخ) . إن اضطراب العلاقة بين الأم وكذلك

---

(1) Modern Trends in Child Psychiatry. ed. by N. Lewis (1945) .

عدم إشباع حاجات الطفولة فى السنوات الأولى من الحياة ، يعتبر من العوامل الهامة فى أن يكون سلوك الطفل عدوانياً . ويكون هذا السلوك العدوانى على شكل (تمرد ، هروب ، تخريب) . والطفل إذ يقوم بهذا السلوك ، فإنما يعبر عما لحقه من أذى أو إساءة ، ولعله بذلك يستطيع أن يسبب الألم لوالديه . ثم سرعان ما تنعكس هذه الاتجاهات وتوجه فى المستقبل نحو المجتمع بصفة عامة .

هذا عن الأعراض التى تتخذ مظهراً عدوانياً ، أما عن الأعراض الجناحية الأخرى (كالسرقة والكذب والتزييف والاعتداء الجنسى . . الخ) ، فترجع فى أساسها إلى اضطراب تكوين « الأنا » . وتقول (كيت فردلاندر) إن الجنوح ما هو إلا نمو مضطرب « للأنا » ؛ وهذا النمو المضطرب يكون نتيجة لعدم حدوث تعديل فى الدوافع الفطرية ، غير المهذبة للطفل . إن أمثال هؤلاء الأطفال ، لا يجدون فى هذه المرحلة التكوينية ، من النواهى والأوامر ، ما يحول بينهم وبين تعديل دوافعهم الفطرية ، ومن ثم ينشأون ونظرتهم إلى المعايير الخلقية والقيم الاجتماعية ، تكون مضطربة ، غير كاملة ؛ أو بمعنى آخر ينشأون ولديهم ضعف نحو الشعور بالإثم أو الخطيئة : وهنا تبدو لديهم جميع تصرفاتهم (وخاصة الشاذ منها) على أنها سوية ؛ فمن يسرق منهم ، لا يجد فى هذا السلوك غضاضة ، بل على العكس من ذلك ، يجد فيها نوعاً من أعمال البطولة ؛ ومن يكذب منهم ، يشعر أن فى ذلك السلوك نوعاً من التبرير الذى يساعده على التوافق الاجتماعى .

وسنعرض فيما يلى عرضاً مطولا لحالتين من حالات الجناح ، تظهر منهما أثر العوامل البيئية والنفسية فى حدوث الاضطراب السلوكى . وأحب أن أشير أنه من الخطأ الاعتقاد أن العوامل البيئية بمفردها تسبب هذا النوع من الانحرافات ، بل هناك عامل آخر لا يقل أهمية عن العامل الأول ، وهو تأثير

العامل الخارجى على مجموعة العمليات النفسية التى تحدد شخصية الطفل ونموذج توافقه مع البيئة التى يعيش فيها ويتعامل معها :

الحالة الأولى :

هذه حالة طالب بالسنة التوجيهية يبلغ من العمر الثامنة عشرة ، حول إلى العيادة من المدرسة .

ولقد ورد فى تقرير الإخصائى الاجتماعى أن موضوع الشكوى : هروب من المنزل وقد تكرر هذا الهروب أكثر من عشرين مرة ، بلغ فى إحداها حوالى الأسبوعين . وقبيل هروبه فى المرة الأخيرة استأجر (عجلة) من أحد المحلات وباعها إلى أحد التلاميذ مقابل مبلغ جنيهين ، وعُمل له محضر سرقة ولكن والده استعاد (العجلة) ودفع التعويضات اللازمة لصاحب المحل وحفظت القضية .

أما عن شكوى الطالب ذاته وإحساسه نحو المشكلة فتنحصر فى الآتى : يشكو من سرحان شديد ومن عجزه عن المذاكرة . ولما سئل عن شعوره بالنسبة لحوادث هروبه ، أجاب : « تأتى لى الفكرة فجأة (وأحياناً بدون سبب مباشر) ، وأحاول أن أقاومها بعنف ، وتستمر المقاومة ، وبعدين أجد نفسى مضطر لتنفيذ الفكرة بعد ساعتين أو ثلاثة ؛ وبعد الهروب بفترة يحس بخطأ تصرفاته وتأنيب ضميره . كذلك يخيل له أحياناً أثناء هروبه أن أحد رجال البوليس يتبعه للقبض عليه ؛ وإذا رأى أثناء سيره شخصاً يرتدى ملابس تشابه ملابس والده أو يضع على عينيه (نظارة) ، فإنه يصاب بالرعب » .

تاريخ الحياة العائلية وطفولة الطالب :

تزوج الوالد من ابنة عمه وقد استمرت معيشتهما مدة أربع سنوات فى شجار دائم وكانت حياة مضطربة عاصفة . وبعد هذه الفترة اضطر الزوج إلى طلاقها بعد أن تبين له أن زوجته كانت على علاقة مع شخص آخر .

وبعد الطلاق أخذت الزوجة أبناءها (الحالة وشقيقة تكبره) وتركتهما فى رعاية جدها ، أما هى فقد تزوجت من ذلك الشخص الذى كانت تربطه بها علاقة . ولقد مكث الطفلان مع جدهما عامين حتى بلغ الصبى صاحب الحالة السادسة من عمره ، ثم أخذه أبوه من جده (جد الطفل) بعد منازعات أمام القضاء . وكان الطفل حينئذ فى حالة يرثى لها من الضعف وعدم الرعاية ، إذ كانت معاملة الجد قاسية للغاية ، فقد كان ينتقم من الأب فى شخص الأطفال . والذى زاد الطين بلة ، أنه كانت تعيش مع الجد إحدى قريباته ، وقد كانت هذه السيدة قاسية القلب ، تعامل الأطفال معاملة تخلو من العطف والحنان . ولقد انتقلت هذه السيدة مع الأطفال عند ما انتقلوا للعيش مع والدهم . وقد كانت هذه السيدة تتظاهر أمام الوالد بأنها تحب الأطفال ، والواقع أنها كانت تقسو عليهما وتحرمهما من الطعام الطيب وتحتفظ لنفسها به . ونظراً لأن أعمال الوالد كانت تتطلب منه التغيب عن منزله ، فكان أمر أطفاله موكولا لهذه السيدة التى كانت تأمل أن يتزوج الوالد منها بعد طلاق زوجته الأولى .

وتزوج الأب مرة ثانية من بنت خاله وكانت تعطف على أبنائه ؛ ويقول الأب إن سلوك ابنه فى ذلك الوقت كان مثالياً ، خالياً من المشكلات . وبعد سنة توفيت الزوجة أثناء الوضع . ومكث الوالد مدة سنتين بدون زواج ، ثم تزوج للمرة الثالثة من زوجته الحالية ، ويتفق الأب فى أقواله (مع الإبن) من أن

الزوجة الحالية تعطف عليه وتعامله معاملة كلها محبة وعطف . ولقد أنجبت هذه الزوجة ثلاثة أطفال .

علاقة (الحالة) بأمه :

كثيراً ما كان الصبي (منذ أن كان طفلا) يبدى رغبة فى الذهاب لأمه بالإسكندرية ، حيث كانت تقيم مع زوجها الجديد ، إلا أنها كانت تطرده بمجرد حضوره ، وفى حالة السماح له بالبقاء ، فإنها كانت تجعله يمكث فى حجرة فوق السطح . وفى ذات مرة دعت الأم طفلها ليقضى الاجازة الصيفية معها ، فما كان من الزوج إلا أن خرج من المنزل وطلب من زوجته أن تتصل به عند ما يسافر ابنها .

والواقع أن الصبي يحنو لأمه حناناً شديداً ولـكنه يجد فيها صداً فقد اتضح ذلك عند ما وجهت له هذا السؤال ، عند ما كان يتردد علينا فى العيادة بعد أن طالت فترات غيابه عن منزل أبيه :

— لماذا لا تذهب وتعيش مع والدتك بالإسكندرية ؟

— كيف أعيش مع والدتى ، إنها متزوجة و يمكن زوجها يرفض . . . أنا أتمنى ذلك .

علاقة الصبي بأبيه :

يكن الصبي لوالده غلاً شديداً ، فقد هجر الوالد أمه ، وأحضر إحدى قريباته لتدبير شئون المنزل خلال الفترة التى لم يتزوج فيها .

طلقت الأم عندما كان عمر الطفل ٤ سنوات ، وتزوج الأب للمرة الثانية عند ما كان عمره ٧ سنوات .

ولم تكن علاقة الإبن بوالده حسنة ، كما كانت علاقته بأخته التي تكبره سناً سيئة كذلك ، ومن ثم كان يحاول من وقت لآخر أن يترك المدرسة ويذهب لوالدته بالإسكندرية ، إلا أنها تحت تأثير زوجها الجديد كانت ترغمه على العودة إلى منزل أبيه ، حيث كان يشعر بأنه غير مرغوب فيه (من الأب والأخت ومدبرة المنزل) .

إن هذا السلوك جعله يشعر بالدونية ، ولذلك كان يتعمد ألا يجالس مع الأسرة على المائدة فقد كان إما أن يأكل قبلهم أو بعدهم . ومن المظاهر الأخرى الدالة على شعوره بالنقص ، أنه كان لا يجرؤ على أن يخرج ويدخل من الباب الرئيسي للشقة التي يقيمون فيها ، ولذلك كان يستعمل سلم الخدم :

متى بدأ الصبي الهروب :

كانت أول محاولة للهروب في سن الثانية عشرة وقد تكرر ذلك حوالى عشرين مرة . ويحدث ذلك إما بعد مشادة بين الصبي ووالده أو بين الصبي وشقيقته . وفي بعض الحالات تنتابه الفكرة مفاجأة دون أي سبب مباشر . وقد كثرت محاولاته في الهروب عندما التحق بالمدرسة الثانوية ، أي منذ حوالى خمس سنوات . أما قبل ذلك فقد كان يتغيب عن المنزل بحجة رغبته في السفر إلى والدته بالإسكندرية .

ولقد ضاقت الأسرة ذرعا بهروبه وبدأت قسوة الوالد في الزيادة . ولم تُجد هذه القسوة في إصلاح الطالب ، مما أدى إلى عدم دفع مصروفات المدرسة ، ففصل الطالب وأصبح شريداً ، وزادت رغبته في الهروب .

وقد ورد على لسان الطالب مرة ما نصه : « ما دام هو مش عاوز يدفع لي مصاريف المدرسة ، فأنا لا أنوى العودة إلى المنزل . . . أنا عارف انه عاوز

يوفر مصاريف مدرستى وأكلى وشربى . . . خليه يوفر هذه المصاريف ويشترى بها بنزين لعربته أو يدفعها لبنته اللى بتتعلم فى الجامعة » .

ثم أضاف قائلا : « ده هو مرة قابلنى بعد تغيبى عن المنزل فترة طويلة ، ولم يرغب أن يكلمنى . . . أنا عارف أن وجودى مش مهم عنده » .

وفى ذات مرة حدثت مشادة بين الوالد وابنه بسبب زيارة بعض أصدقائه له بالمنزل للسؤال عنه أثناء مرضه . وقد كانت مقابلة الوالد لهم سيئة للغاية ، إذ خاطبهم على مرأى من والده بالآتى : « أنا لا أود واحد منهم يجى بيتى . . . هو أنت عاوز تسوأ سمعة المنزل . . . دول أصحابك متشردين . . . إن بقاءك فى المنزل أو عدم بقاءك ، لا يهمنى ، بل بالعكس عدم وجودك يوفر على مصاريف الأكل والشرب » .

ومن هذا يتضح كيف كان الوالد يعامل ولده وينظر إلى أصدقائه ، مما جعل (الحالة) تزداد تمرداً . ولذلك كثرت محاولاته للهروب والتغيب عن المنزل . وكان الطالب أثناء غيابه ، يسير أثناء النهار فى الشوارع والطرقات فى جميع أحياء القاهرة ، وفى أثناء الليل يذهب ليبيت على رصيف المحطة . وكثيراً ما كان ما معه من نقود ينفد ، ولذلك كان يمكث الساعات ، بل الأيام بدون طعام . وإذا ما شعر بالحاجة الملحة إلى الطعام ، ذهب إلى أحد أصدقائه ليقرضه بعض النقود . وفى بعض الأحايين كان يذهب لشقيقته الصغيرة وينتظرها على المدرسة ليعرف منها أخبار المنزل وليقترض منها بعض النقود ، إلا أنها كثيراً ما كانت تفر منه وتصرخ عند ما يقع عليه نظرها .

ولقد حضر إلى الطالب فى العيادة ذات يوم فى حالة سيئة وفى ملابس رثة وممزقة . فقلت له : « كيف تصل حالتك إلى هذا الحد . . . ارجع إلى بيتك . . . إنك على هذا الوضع تنتقم من نفسك » .

فأجاب : « فى الواقع أنا أنتقم من نفسى ومن أسرتى ، إننى أريد أن يعرف الناس موقفهم منى . . . » أنا لا أريد أن أعود إلى المنزل بتاتاً ، لأننى إن فعلت ذلك فربما أحرق المنزل » .

العوامل المؤدية إلى المشكلة وتحليلها :

(أولا) حرمان الصبى من عطف أمه ؛ فقد أوضحنا أنه حُرم من عطف الأم ورعايتها وهو فى سن الرابعة ، وذلك بسبب طلاقها لسوء سلوكها . ولا شك أن الانفصال عن الأم أو الحرمان من عنايتها له آثار بعيدة المدى فى الصحة العقلية من جهة، كما أنه يعطل نموه من ناحية التوافق الانفعالى والاجتماعى.

ومن أهم الآثار الناجمة فى هذه الحالة التى نحن بصددها ما يلى :

١ — إظهار الكراهية والعداء للأب لأنه هو الذى حرمه من الأم ، هو الذى طردها وفصلها عنه وحرمه من رعايتها .

٢ — ومما زاد من عدائه للأب ، أن معاملة الأب (للحالة) منذ طفولته كانت تقوم على القسوة . لم يشعر فى يوم من الأيام أنه مرغوب فيه ، حاجة الطفل إلى الانتماء و إلى التقدير لم تشبع . كان الأب خلال طفولة الطفل كثير التنقل بسبب أعماله ، وقد ترك الطفل إلى إحدى قريباته التى كانت تدير المنزل (وذلك بالطبع حدث قبل زواجه للمرة الثانية) . وكانت هذه السيدة قاسية تظهر الحب للأطفال ظاهرياً ، إلا أنها فى الوقت نفسه تضمر لهم الكراهية ، لأنها كانت تود أن تتزوج من الرجل .

٣ — الشعور بالقصور والرغبة فى تجنب أفراد الأسرة ، وقد اتضح ذلك جلياً مما سبق أن أوردناه من رغبة الطفل فى تناول الأكل بمفرده ومن استعماله سلم الخدم للخروج والدخول بدلا من استعمال الباب الرئيسى للشقة .

٤ — الانسحاب ببرود من كل الارتباطات الانفعالية ، وقد ظهر ذلك جلياً من فشل الطالب من تكوين علاقات غرامية مع الفتيات ، ذلك أنه كان يكره مجالس الجنس الآخر ويعتبرهن شياطين . ولاشك أن هذا الشعور راجع فى أساسه (ولو لا شعورياً) إلى نظرته إلى أمه التى هجرته .

٥ — الاتجاه إلى العنف فى سلوكه بسبب شعوره أنه غير مرغوب فيه وأنه ليس له مركز محدد فى الأسرة ، بعكس شقيقته التى كانت تعامل معاملة تقوم على التقدير .

(ثانياً) كانت العلاقة بين الأب والأم فى السنوات الأولى من حياة الطفل مضطربة ، بسبب ما كان يساور الزوج نحوها من شكوك . إن اضطراب هذه العلاقة كان عاملا من العوامل الهامة فى اتجاهاته التكيفية فيما بعد . ولقد ترتب عن عدم شعور الطفل بالأمن فى السنوات الأولى من حياته أنه لم يستطع الانتماء إلى الجماعة بسهولة ، كما أنه لم يستطع الشعور مع الغير . ومن ثم كان ينفر من الناس ويكره البيت وأفراد الأسرة ، ويرفض أن يصغى إلى نصح الكبار .

(ثالثاً) أما عن مشكلة اختيار العرض فى هذه الحالة على النحو الذى أبرزناه (هروب وسرقة وتمرد ... الخ) فيمكن تفسيره على النحو التالى : أن اضطراب العلاقة العاطفية بين الأم والطفل فى السنوات الأولى من الحياة ، أدى إلى اضطراب فى تكوين « الأنا والأنا الأعلى » وهذا بدوره أدى إلى اضطراب الشخصية والتوائها . فأصبح الطفل والحالة هذه لا يجد فى السلوك الشاذ الذى يقوم به أية غضاضة ، بل على العكس من ذلك فقد يجد فى هروبه وتغيبه عن المنزل وتعرضه للمتاعب ، نوعاً من التضحية . وهذا ما قاله لى فعلا ، رداً على هذا السؤال :

— لماذا لاتعود إلى منزل أبيك وتجنب نفسك مشقة التجوال فى الشوارع والنوم على الأرصفة والحرمان من الطعام ؟

أجاب « إن فى كل ذلك ما يعودنى على التقشف والاحتمال والصبر ، وشأنى فى ذلك شأن الجنود فى الحروب » .

(ثالثاً) وهناك تفسير آخر لهروب الصبى ، ذلك أنه قد يرى فى هذا السلوك تعذيباً لوالده ولعائلته كلها ، وسيجلب إليهم الخزى والعار ... وهو لذلك سيكون بمثابة تعبير ثورى (لاشعورى) موجه ضد المعاملة السيئة التى يلقاها فى الأسرة .

الحالة الثانية :

هى حالة صبى فى الحادية عشرة من عمره ، تلميذ بإحدى المدارس الإعدادية وذكاؤه عادى كما تبين ذلك من اختبار « الإزاحة لألكسندر » . ترتيب الصبى بين إخوته الثانى ، وتكبره أخت تبلغ الثانية عشرة ، ويليه أخ يبلغ التاسعة . ولقد توفى للأسرة طفل رابع وهو فى سن الثالثة على أثر حادث تسبب فيه الصبى صاحب الحالة .

الشكوى :

جاء على لسان الوالدة عندما حضرت بصحبة إبنها للعيادة « أن هذا الولد (مغلبها خالص) ، لأنه يهرب من المدرسة ومن البيت و بيكذب كثير و يأخذ حاجات إخوته وخاصة شقيقته الكبرى ، و بيصاحب أولاد أكبر منه فى السن » . وقد اضافت الأم أن بوادر هذا السلوك اللا إجتماعى ظهرت منذ بلغ الصبى الثامنة من عمره .

الطفل فى الأسرة :

والدة الطفل عصبية المزاج ، حادة الطباع ؛ وهى تعلل هذه العصبية لشعورها بالضيق بسبب تصرفات زوجها . وقد ورد على لسانها مانصه : « أشعر أننى مخنوقة ومش طايقة نفسى . . . الأفندى بتاعى رجل غامض ومش عارفة عنه حاجة . . . يسافر ولا أعرف سبب سفره . . . حتى أننى لا أعرف ماذا يعمل . . . مره يقول إنه بيشتغل مهندس فى الحكومة ، ثم يرجع يقول إنه ترك الحكومة و بيشتغل فى أعمال حره » . ومما يضاعف مضايقات الزوجة موقف أهلها منها وشعورهم نحوها بعد الزواج ، إذ تكاد تكون العلاقة بينها و بينهم منقطعة ؛ وهذه المسألة كما ذكرت الزوجة « عاملة عندى عقدة » .

ولقد ترتب عن شعور الزوجة هذا أمران : كراهيتها لأطفالها وخاصة للذكور ومعاملتهم بالقسوة ؛ وكثرة نزاعها مع زوجها أمام الأطفال ، حيث يتراشقان بالألفاظ النابية أحيانا . أما الزوج فهو رجل هادئ لين ، كثير التغيب عن منزله بسبب أعماله . أما عن علاقته بالصبى صاحب الحالة فهى علاقة لا تقوم على الإيذاء ، إلا أنها فى الوقت ذاته فى معظم الأحيان يمكن وصفها بأنها علاقة سلبية .

علاقة الأم بأطفالها :

تفضل الأم الإبنة الكبرى وتصفها بأنها هادئة ورقيقة الإحساس وتحرص على أن تعطيها نقودا باستمرار كما تجيب جميع طلباتها ؛ والأم فخورة بابنتها لأنها مجدة فى عملها ، وهى كثيرا ما تساعدها فى أعمالها المدرسية كرسم الخرائط ونقل الدروس . وتكاد الأم تخص إبنتها بهذه المعاملة الطيبة ، فى الوقت الذى تهمل فيه أولادها الذكور وخاصة الصبى صاحب الحالة ،

الذى ينظر إلى هـذه التفرقة فى المعاملة على أنها تحيز من جانب الأم ، وهو لذلك يشعر بالغضب منها ، كما يشعر بالغيرة من أخته . أما عن موقف الأخت من شقيقها فهو موقف قائم على عدم التقدير ، إذ أنها كثيرا ما تثور فى وجهه وتنعته بألفاظ للتقليل من شأنه ، كأن تقول له مثلا « إنت حمار . . . إنت ما تفهمش حاجة » ؛ ويحدث كل ذلك أمام الأم دون أن تبدى أى اعتراض على ما تسمع ، بل على العكس من ذلك فهى دائما ما تـكذبه فيما يقول ، أو تقسو عليه وتضربه إذا ما صدر منه مايسىء . والطفل بسبب كل ذلك كان يشعر أنه غير مرغوب فيه . وكلما تنـكرت له أمه وأخذت تسىء معاملتـه وتضيق باقامته فى المنزل كلما شعر بالألم والضيق . ومن هنا بدأ يشعر الطفل أن مركزه فى الأسرة أصبح مزعزعا ، وأخذ يخالطه شعور بأنه غدا مخلوقا بغيضا . ومما لا شك فيه أن هذه المشاعر المختلفة جعلته هدفا لمجموعة من العمليات النفسية التى تحدد شخصية الطفل ونموذج توافقه مع المجتمع ؛ إن إخفاق الطفل فى الحصول على التوافق الإجتماعى فى الأسرة ، جعله يعبر عن هذا الإخفاق بسلوك منحرف إتخذ المظاهر الشاذة السابقة (الهروب والـكذب والسرقة) والتى ذكرتها الأم فى شكواها . إن هذا السلوك الجنح بمظاهره المختلفة لجأ إليه الطفل (لاشعوريا) كوسائل مخففة للتخلص مما يعانيه من صراع نفسى . والطفل إذ يفعل ذلك يعتقد أن هذا السلوك يحل له مشكلته ومتاعبه ، وقد يجد فيه نوعا من التوافق مع البيئة بعد أن فشل فى الملاءمة الإجتماعية السوية بالطرق الطبيعية .

وقد بدأت المظاهر الإنحرافية فى سلوك الطفل بالتغيب عن المنزل ساعات طويلة ، وكان من جراء ذلك يعاقب بالضرب . وقد أخذت فترات تغيبه عن المنزل فى الزيادة على الرغم من صغر سنه ، وقد كان يقضى معظم هـذا الوقت

فى ركوب الدراجات . وقد أخذ هذا السلوك مظهرا جديدا وذلك أثناء تغيب الأم بإحدى المستشفيات لمرضها ، إذ هرب من المدرسة وذهب مع زميل له إلى إحدى القُرى المجاورة لمركز إمبابه سيرا على الأقدام ، ولقد سبب هروب الطفل من المدرسة وتغيبه خارج مدينة القاهرة مضايقات كثيرة لوالديه ، وفى يوم آخر هرب الطفل من المدرسة عن طريق القفز من السور والذهاب إلى السينما . ولقد ترتب عن ذلك أن اضطرت الأسرة إلى أن يصاحبه أحد الخدم إلى المدرسة ويحضره منها عند انصراف التلاميذ . إلا أن هذا التصرف من جانب الأسرة لم ينفع ، فالذى كان يحدث أنه بمجرد أن يصل الصبى إلى المدرسة ، يعود فيهرب منها مع طالب يكبره سنا ، كان يهدده باستمرار ويعتدى عليه بالضرب إذا لم يستجب لما يقوله له . وقد تعددت مرات الهروب وزادت مدتها حتى بلغت فى بعض الأحيان أربعة عشر يوما ، مما اضطر المدرسة إلى فصله .

ولم يكن سلوك الطفل المنحرف قاصرا على هروبه من المدرسة بل تعدى ذلك إلى السرقة من أمه وإخوته ، فقد كان يسرق النقود من أمه والكتب من إخوته ليبيعها ويعطى ثمنها لذلك الزميل الذى يكبره سنا . وكان من ضمن الأشياء التى سرقها من المنزل بعض الحلى الخاصة بشقيقته ، والغريب أنه لم يبيع هذه الحلى بل ألقاها فى فناء المدرسة خوفا من أن تضبط معه .

الأسباب الدافعة لهذا السلوك الشاذ :

إن أبرز مشكلات الطفل فى هذه الحالة تنحصر فى أمرين : الهروب والسرقة . أما عن السلوك الأول فقد لجأ إليه الطفل بسبب ما يعانيه من تفرقة فى المعاملة بينه وبين شقيقته وما كان يصاحب ذلك من وسائل الضغط

المختلفة من قبل الأم ، فاضطره هذا الضغط إلى كبت مشاعره ودوافعه . ولكن قوة هذا الضغط لم تلبث أن انفجرت ، فاندفع الطفل إلى الهروب من المجال الذى كان يسبب له الضيق والشعور بالنقص . ولا شك أن فى هذا السلوك تعذيبا للوالدين وللعائلة كلها وسيجلب إليهم الخزى والعار ، وهو لذلك سيكون بمثابة تعبير لا شعورى ثورى موجه ضد المعاملة السيئة التى يلقاها فى الأسرة .

أما عن السرقة من الأم ومن الأخت ، فما هى إلا وسيلة إنتقامية ، فالطفل عند ما يسرق نقود أمه يشعر بأن هذا السلوك سيؤلمها ، وهو عند ما يسرق من أخته يشعر بالراحة لأنه يقتص منها لنفسه ؛ والغريب أنه عند ما سرق حلى شقيقته إنما سرق أشياء لم يكن فى حاجة إليها ، وكل ما فعله أنه تسبب فى ضياعها إنتقاما منها . أما عن كثرة ذهابه للسينما فهذه وسيلة هروبية من البيئة المنزلية التى يكرهها . ويمكن تعليل مصاحبته لتلاميذ يكبرونه سنا ، يخضع لأوامرهم وخاصة ذلك الطالب الذى أشرنا إليه ، بأنه يجد فيه أبا بديلا يعوضه عن سلوك والده السلبى .

الخلاصة :

اتضح من عرضنا لهذه الحالة ومن العوامل الفعالة فيها أن جناح الطفل لا يعتبر نتيجة مباشرة للظروف البيئية المضطربة ولسوء معاملة الأم فحسب ، بل ينتج عن تأثير هذه العوامل الخارجية على مجموعة العمليات النفسية التى حددت سلوك الطفل على النحو الذى ذكرناه .

(ى) اضطرابات الكلام (اللجلجة)

اللجلجة عيب كلامى شائع بين الأطفال والكبار ، وأسبابها معقدة متشعبة النواحى ، ولذلك فهى تحتاج إلى ألوان مختلفة من العلاج . وتوجد اللجلجة بنسب مختلفة تختلف باختلاف الأعمار والبيئات . ولقد قام المؤلف بدراسة إحصائية لمعرفة مدى انتشار اللجلجة فى بعض المدارس الأولية بمنطقة القاهرة ، وذلك فى عام ١٩٤٩ — ١٩٥٠ ، فاتضح له أن عدد المصابين باللجلجة فى مجموعة بلغت ٢٥١٩٥ طفلا وطفلة ، منهم ١٣١٣١ من البنين و ١٢٠٦٤ من البنات ، يبلغ (٩٧ من البنين و ٧٣ من البنات) . ومعنى هذا أن النسبة العامة للجلجة هى :

(ا) فى البنين : حوالى ٠ر٧٤٪ (ب) فى البنات : حوالى: ٠ر٧٧٪

وعند مقارنة هذه النسبة بمثيلاتها بالخارج ، نلاحظ أن التعرض للإصابة باللجلجة فى مصر أقل منه فى الخارج ، و إليكم الدليل :

المكان	النسبة
انجلترا	١ ٪
أمريكا	١ ٪
بلجيكا	٢ ٪
الهنود الحمر	لا توجد لجلجة

وليس من السهل تعليل هذا التفاوت والاختلاف بين البيئات المختلفة ، إلا أننا نستطيع أن نرجع ذلك إلى ظروف الحياة وقسوتها وما يصاحب ذلك فى البلاد الأوربية والأمريكية مثلا ، من توتر وصراعات انفعالية ، بعكس ماهو حادث فعلا فى بلد كمصر ، فإن من طبائع سكانها معالجة الأمور فى شىء من التبسط واليسر .

ولقد اتضح للمؤلف من دراساته الإحصائية فى البيئة المصرية — كذلك أن هنالك زيادة ملحوظة فى النسبة العامة للجلجة فى سن الثامنة والتاسعة والحادية عشرة ، وإليكم ما حصلنا عليه من نتائج :

السن	النسبة
٦	٤٨ و ٠ ٪
٧	٤١ و ٠ ٪
٨	٩٨ و ٠ ٪
٩	٩١ و ٠ ٪
١٠	٦٣ و ٠ ٪
١١	٢ و ١ ٪

ويمكن تعليل ذلك بأن التلميذ فى سن الثامنة مثلا يبدأ تحمل المسئوليات المدرسية ، بعد أن كانت الدراسة قبل ذلك خالية من الجهد . أما الزيادة الملحوظة فى سن ١١ فترجع إلى أنه فى هذه السن يبدأ الطفل يدخل فى مرحلة جديدة من النمو ، مرحلة تتميز بخصائص انفعالية معينة تؤثر بدورها على نموه النفسى .

هذا وقد اتضح لنا بالإضافة إلى ما سبق ، أن النسبة العامة للجلجة بين البنين والبنات متقاربة ؛ وقد استرعت هذه النتيجة انتباهنا ، حين قارناها بمثيلاتها فى البلاد الأوروبية ؛ ذلك لأن نسبة اللجلجة فى البنات والبنين تتراوح فى تلك البلاد بين ١ : ٣ ، ١ : ٩ ، بمعنى أن المتوسط يكاد يكون حالة واحدة فى الفتيات ، مقابل ست حالات فى الفتيان . ويمكن تعليل ذلك التضارب فى النتائج بين مصر وغيرها من البلدان ، بأن البنت تعانى حرمانا أكثر من الولد فى الظروف الاجتماعية المصرية ، التى تغرس فى الفتاة الشعور بالنقص والخطيئة ؛ وبأنها غير مرغوب فيها ، وليست الحال كذلك فى البلاد

الأوربية ؛ فالفتاة هناك تحظى بما يحظى به الفتى من حريات ، وقد لا يكون الضغط الاجتماعى عليها أكثر منه على الفتى .

أسباب اللجلجة :

إن النظرية القائلة بأن منشأ اللجلجة تمتد جذورها إلى أصول نفسانية ، هى أوسع النظريات شيوعا . فقد اتضح للمؤلف من دراساته الطويلة فى هذه الناحية ، أن الأساس فى إصابة المتلجلجين بهذا الاضطراب الكلامى يرجع إلى ما يشعرون به من قلق وانعدام الأمن فى طفولتهم المبكرة .

وقد كان من الأسباب الرئيسية فى تكوين هذه المشاعر فى نفوس هؤلاء الأطفال العوامل البيئية التالية :

(١) إفراط الأبوين ومغالاتهما فى رعاية طفلهما وتدليله . وكان يحسن أن يدرباه على الاستقلال والاعتماد على النفس .

(٢) محاباة الطفل وإيثاره بالحظوة والتدليل ، مما يؤدى إلى حقد رفقائه وإذكاء نيران الغيرة فى قلوبهم .

(٣) افتقار الطفل إلى عطف أحد أبويه وإلى رعايته .

(٤) التعس والشقاء العائلى .

(٥) تعارض التيارات وتنازع الأهواء فى الأسرة .

(٦) إجبار طفل أعسر على استعمال يده اليمنى فى الكتابة .

(٧) الإخفاق فى التحصيل المدرسى .

هذه هى مظاهر انعدام الأمن التى تنشأ عن أسباب خارجية أو موضوعية ، وهى تؤدى بالتدريج إلى قيام صراعات انفعالية ، أو إلى نوع من انعدام الأمن الداخلى ، لا يلبث أن يستفحل أمره حتى يصير بالتدريج الجانب الغالب فى تكوين الناحية النفسية للطفل .

والآن يبرز أمامنا ونحن فى سياق هذا البحث ، الأمر التالى ، وهو المتعلق بكيفية حدوث العرض فى هذا النوع من الاضطرابات الانفعالية :

حين تمر بالنفس أزمة عصبية شديدة تحاول أن تجد لها منصرفاً فتحيل صورة هذه الشدة إلى عوارض جسمانية[1] . ولكن السؤال ما برح قائما : لماذا عبرت تلك الشدة العصبية عن نفسها ، ودللت على وجودها بهذا الأسلوب بالذات ، وفى هذه الأعضاء الكلامية بصفة خاصة ، فى صورة اللجلجة . . ؟ . إن عيادات رعاية الأطفال غاصة بالأطفال المصابين الذين يشكون اضطرابات واختلالا فى الهضم ، وإفراطا فى التبول اللاإرادى ، وانحرافاً فى السلوك (السرقة والكذب مثلا) ولكنهم مع هذا كله خلو من هذا الاضطراب الكلامى الذى نحن بصدده .

و ينتقل هذا السؤال إلى موضوع ، اختيار العوارض Choice of Symptoms فى الأمراض النفسية العصبية ، حين يهدد الصراع النفسى الاتزان العقلى ، يلجأ العقل فيما يظهر إلى الاحتماء بنوع من التنفيس الانفعالى (Emotional discharge phenomenon) وأغلب الظن أن هذه القوى الدافعة — وأعنى بها التنفيس الانفعالى — تتجه فى هجومها إلى موطن النقص حيث يتاح مركز تنفيس صالح . فمثلا فى حالة التبول اللاإرادى نجد أن أى خلل وظيفى أو جسمانى يصيب الجهاز البولى ، قد يتيح مركز تنفيس صالحا . والأطفال السارقون أو الكاذبون قد تكون نقيصتهم بمثابة تعبير عما يخالجهم من رغبة فى التماس العوض عما لحقهم من أذى أو إساءة . ففى مثل هاتين الحالتين ، يكون (مركز التنفيس) هو الهدف الذى يهدفون إليه بما يصدر عنهم من تصرفات .

---

(1) Fenichel O., : The Psychoanalytic Theory of Neurosis (1945).

وعلى ضوء هـذا التعليل يمكن تفسير عارض اللجلجة . فقد تبين من الحالات التى درسناها أن هنالك عللا جسمانية معينة تساعد على تسليط التنفيس الانفعالى وتركيزه فى عضلات الجهاز الـكلامى .

ففى إحدى الحالات يمكن عزو (اختيار العارض) — وقد وقع هنا على اللجلجة — إلى ما اتضح من أن المصاب كان ممن يتنفسون من أفواههم وكان لسانه غليظا غير عادى ، مما ينبئ بأن فى أعضاء الـكلام لديه شيئا من قلة الانسجام ، خليقا أن يعيب نطقه . ولعل هذين العاملين يفسران اتجاه الاختيار — أى اختيار العارض — هذه الوجهة بالذات . وفى حالة أخرى نجد أن الاضطراب فى جهاز تنفس الطفل ، والصعوبة التى يلاقيها فى أداء بعض الأصوات أداء صحيحا سليما ، يوحيان بأن فى أعضاء جهازه الـكلامى شيئا من عدم التناسق . وقد طوع له هذا كله أن يندفع تنفيسه العاطفى إلى أهون الطرق وأيسرها ، وأعنى به طريق أعضائه الـكلامية المريضة السقيمة . وفى حالة ثالثة كان الطفل مصابا بتضخم اللوزتين . وبالنظر لما يعترى هذا المرض من ألم الفم والحلق ، فقد أصبح الطفل عزوفا عن الـكلام عسير النطق ، وعضلاته الـكلامية ضعيفة الانسجام ؛ وكذا فى حالة رابعة أصيب الطفل فى طفولته المبكرة بلحمية الأنف ، فعابت هذه اللحمية كلامه ، وجعلته أخن بعض الشىء ، كما أثرت أيضا فى تنفسه . فهاتان العلتان الجسميتان — أى تضخم اللوزتين ولحمية الأنف — يمكن أن تقوم أساسا لتثبيت العارض .

مظاهر اللجلجة :

تظهر اللجلجة على شكلين مختلفين :

(١) حركات ارتعاشية متكررة .

(٢) تشنج توقفى يكون على شكل احتباس فى الـكلام يعقبه انفجار .

و يتحدث (فروشلز) عن التشنج التوقفى فيقول إنه يظهر فى وضوح وجلاء بعد بداية اللجلجة بنحو سنة ، إذ يبذل المتلجلج عند تحريك عضلاته الكلامية جهودا ومحاولات فيبدو بوادر الضغط على شفتيه وعضلات الجهاز الكلامى ، و بذلك تحتبس طلاقة لسانه .

وعندما تشتد وطأة اللجلجة على المصاب ، تظهر بوادر جديدة تكون على شكل حركات مصاحبة للعرض الأصلى منها : تحريك الكفين أو اليدين ، الضغط بالقدمين على الأرض ، ارتعاش رموش وجفون العين ، إخراج اللسان من الفم ، الميل بالرأس إما إلى الخلف أو إلى الجنب . . . الخ . و يلجأ المصاب إلى هذه الحركات ، لعله يجدفيها معينا يساعده على التخاص من احتباس الكلام .

علاج اللجلجة :

على ضوء تشخيصنا لهذا الاضطراب الكلامى ، نستطيع أن نقترح الطريقتين التاليتين فى العلاج :

(١) العلاج النفسى .

(٢) العلاج الكلامى .

وقد قصدنا بهما إصلاح شخصيات هؤلاء المصابين ، بالإضافة إلى إصلاح ما اعوج من كلامهما . ولبلوغ هـذا القصد المزدوج استخدمنا هذا الأسلوب العلاجى الذى يشتمل على ضروب من العلاج النفسى ، مضافا إليها ما اصطلحنا على تسميته بالعلاج الكلامى . وتهدف أساليب العلاج النفسى إلى الكشف عما يحيط بالمصاب من فشل و إخفاق ، و إلى إماطة اللثام عن الصراعات الانفعالية التى مر بها فى السنوات الأولى من الحياة . كما تهدف كذلك إلى إعادة اتزانه الانفعالى و بناء شخصيته أما المجموعة الثانية من هـذه الأساليب

العلاجية (العلاج الـكلامى) ، فالغرض منها تمكين المتلجلج من استعادة قدرته الـكلامية فى المواقف المختلفة .

والآن يبرز إلى الصدارة سؤالان حيويان هما :

(١) هل تؤدى إزالة اضطرابات المتلجلج النفسية إلى شفائه دون حاجة إلى علاج كلامى ؟

(٢) هل يشفى العلاج الـكلامى المصاب باللجلجة دون حاجة إلى علاج نفسى ؟

إن الجواب الذى أستخلصه من تحقيقاتى وفحوصى الاكلينيـكية القائمة على أساس دراساتى للحالات التى باشرت علاجها ، جواب سلبى عن كلا السؤالين فقد تبين أن مباشرة العلاج النفسى من شأنها أن تلطف من حدة القلق والتوترات الانفعالية ، ولـكن اللجلجة تظل باقية على حالها ، باستثناء حالات قليلة تتميز بصغر السن .

وثبت كذلك أن العلاج الـكلامى لا يكفى لشفاء اللجلجة . فكان بين حالات المجموعة التى توليتها مصابون كان قد بدئ بعلاجهم بهذه الطريقة فقط ، قبل عرضهم علىّ ، وقد تقدموا فى طريق النجاح ولـكنه كان نجاحا مؤقتا ، أما اللجلجة فعادت إليهم تحت الأزمات وظلت فى مكانها لم تتزحزح .

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لتبدو أن أهمية العلاج الـكلامى بالذات فى علاج اللجلجة ، إنما هى أهمية ثانوية ما دامت أعراض اللجلجة معتبرة مظاهر خارجية لاضطرابات داخلية . بيد أنه حين تآزر العلاج النفسى بوسائله المتصلة باستقصاء كل ما يمكن استقصاؤه من البواعث الخفية وتحليل تلك البواعث ، وسار جنباً إلى جنب مع العلاج الـكلامى — هنالك أمكن بلوغ نتائج علاجية أفضل .

إن تآزراً كهذا بين العلاج النفسى والعلاج الكلامى قد يحقق غرضاً شاملا يستهدف مبدئين رئيسيين هما : بث روح الاستقرار فى نفس المتلجلج ثم تهذيب كلامه وتقويمه من جديد .

أما الهدف الأول : فمنوط إحرازه بأمر واحد هو إزالة ما استبد بالمصاب من أسباب الاضطراب النفسى . وفى هذا يجدى الإيحاء والإقناع و إعادة تعليم الآباء من جديد ليغيروا ما بأنفسهم ، وكذا بث الثقه فى نفوس المصابين باللجلجة أنفسهم .

أما الهدف الثانى : فيمكن إدراكه بشتى وسائل العلاج الكلامى مثل الاسترخاء الكلامى وتمرينات الكلام الإيقاعى وطريقة النطق بالمضغ والتدريب السلبى .

ومع ذلك فما برح هناك سؤالان ، و إن لم تكن لهما أهمية كبرى إلا أنهما يستلزمان رداً ، وهما :

١ — أيهما أحق بالتقديم ، العلاج الكلامى أم العلاج النفسى ؟

٢ — هل هناك مرجع يرجح إحدى هاتين الوسيلتين على الأخرى ؟

أما الإجابة على السؤال الأول فهو أن العلاج النفسى قد يقدم على العلاج الآخر بفكرة تخفيف وطأة التوتر والقلق عند المصاب باللجلجة . فما لم ترفع عن كاهل المصاب أعباء معضلاته ، وما لم تزح من أمام عينيه ظروف بيئته وهى حجر عثرة فى سبيل شفائه ، لكانت نتائج العلاج الكلامى مشكوكا فيها وفى آثارها ، بل لو أن هذا العلاج الذى لا يتناول إلا العوارض وحدها ، أصاب نجاحاً فإنه فى الواقع ليس إلا نجاحا موقوتا ، ما دام العلاج لم يمس العوامل النفسية التى هى علة العلل ومكمن الداء .

أما عن السؤال الثانى فأقول إن ترجيح طريقة على أخرى إنما هو ترجيح مضلل إذا تعددت الوسائل . ولئن كنت قد آثرت فيما مارست من علاج

طريقة على أخرى فليس معنى هذا أن الطريقة التى آثرتها تفضل سواها فى علاج كل مصاب باللجلجة ويمكن إيضاح ذلك بمثلين قاطعين فى دلالتهما ، أما الأول : فقد تبين أن التدريب السلبى أفاد كثيراً فى علاج اللجلجة من النوع الاهتزازى فى حين أنه زاد صعوبة الكلام عند أولئك المتلجلجين الذين يشكون من التشنجات التوقفية . وكذلك كان الإقناع أجدى عند الأطفال الكبار منه عند الأطفال الصغار . ومرد ذلك إلى أن المرجع فى الإقناع عائد إلى الفطنة والإدراك .

وغنى عن البيان أن إخفاق الوسائل السلبية وسبل الإقناع فى بعض الأحوال لا يعنى بالضرورة ضآلة قيمتها العلاجية أو يغض من قدرها .

دراسة تحليلية لبعض الحالات :

الحالة الأولى :

طفل فى التاسعة وأربعة شهور من عمره ، مستوى ذكائه عال ، فهو يبلغ من حيث الذكاء بحسب اختبار الإزاحة لألكسندر ، مبلغ طفل فى ١٢ سنة و ١٠ شهور .

الشكوى : لجلجة منذ سن مبكرة .

ترتيبه بين إخوته ٢/٢ (الأخ الأكبر يكبره فى السن بثلاث سنوات) .

ولقد اتضح من فحص الحالة ومن الاختبارات المختلفة ما يلى :

(١) طبق الدكتور عبد المنعم المليجى اختبار (الرورشاخ) على الحالة ، فتبين له أن الطفل يعانى كثيراً من المخاوف التى تزداد عند النوم وأنه شديد الحساسية للإهانة والقلق على مركزه فى الأسرة واتصاله العاطفى بوالدته اتصال وثيق جداً واعتماده عليها اعتماد لا يتناسب مع سنه .

(٢) أما المؤلف فقد أجرى على الحالة اختبار الشخصية « لكارل روجرز » للتعرف على مدى توافقه الاجتماعى والعائلى ، ودرجة شعوره بالنقص و إغراقه فى أحلام اليقظة ، فحصل على النتائج الآتية :

(أولا) من حيث الشعور الشخصى بالنقص	١٢ درجة
(ثانيا) من حيث سوء التكيف الاجتماعى	٢٢ «
(ثالثا) من حيث سوء التكيف العائلى	١٤ «
(رابعا) من حيث الإغراق فى أحلام اليقظة	صفر
المجموع الكلى	٤٨ درجة

و يتبين بمقارنة هذه الدرجات بجدول المعايير للاختبار أن شعور الطفل بالنقص شعور عادى لا يزيد أو ينقص عما يتوقع لمن كان فى مثل سنه .

كما أنه يعانى الكثير من سوء التوافق الاجتماعى (أى من حيث قدرته على أن يتفاعل تفاعلا طيبا مع غيره من الأفراد خارج الأسرة) فهو قد أحرز على ٢٢ درجة فى حين أن الطفل العادى السوى فى هذه الناحية بالذات يحصل على درجة تتراوح بين ١٠ — ١٤ .

أما من حيث سوء التوافق العائلى فقد بين الاختبار أن الطفل يعانى الشيء الكثير من سوء التوافق العائلى فهو يحس إحساسا (لا يخالجه شك فى أن أبويه يفضلان أخاه عليه وأنه فى المرتبة الثانية من الأهمية فى نظر الأسرة) . كما بين الاختبار أن الطفل يعانى غيرة شديدة من أخيه فى مواقف كثيرة . ولعل خير ما ندلل به على قولنا هذا أنه قد أحرز ١٤ درجة من درجات سوء التوافق العائلى فى حين يحرز الطفل العادى من هذه الناحية على درجة تتراوح بين ٧ ، ١٠ وأن الطفل الذى يحرز ١١ درجة أو أكثر يكون حظه من سوء التوافق العائلى كبيرا .

لـكن هذا الاختبار أبان أن الطفل أكثر التصاقا بالواقع فهو لا يجنح إلى الخيال إلا قليلا ولا يغرق فى أحلام اليقظة كما قد يغرق غيره من الأطفال . إذ هو لم يحرز درجة واحدة من درجات الانحراف فى هذه الناحية .

ومسألة أخرى : أن هذه الدرجات لو جمعت لنستبين منها مبلغ انحراف الطفل فى هذه النواحى الأربع لبلغ عددها ٤٨ درجة وهى درجة تزيد بكثير عن المتوسط (من ٣٣ — ٤٣ درجة) .

الخلاصة :

اتضح لنا من دراستنا للطفل أن مصدر العلة فى هذه الحالة يرجع فى أساسه إلى مشكلته مع أخيه الأكبر و إهمال والديه فى حل هذه المشكلة . وقد ترتب عن ذلك كما ظهر من الاختبارات الإسقاطية — شعور الطفل بالقلق على مركزه فى الأسرة ، فغالى باتصاله العاطفى بأمه لعله يجد فى ذلك سبيلا إلى عونه والأخذ بيده .

أما عن العامل الاستعدادى الذى حدد ظهور العرض على هذا النحو (لجلجة فى الـكلام) فيرجع إلى إصابة الطفل بتضخم فى اللوز منذ صغره . إن هذه العلة الجسمية يمكن أن تقوم أساسا لتثبيت العرض .

الحالة الثانية :

هذه حالة لطفلة فى الثامنة من عمرها كانت تشكو من اللجلجة فى الـكلام، وقد كان ترتيبها بين أخوتها الأولى بين اثنين إذ لم يكن لها من الأخوة إلا طفل واحد ذكر عمره خمسة شهور .

ظلت الطفلة وحيدة مدة تبلغ السبع سنوات كانت فيها موضع تدليل كبير من الوالدين ، حتى رزقت الأم بطفل ذكر فبدأ اهتمامها يتوجه إلى المولود

الجديد وتزعزع مركز الطفلة فى الأسرة وجعلت تشعر أنها لم تعد فى المحل الأول وأنها غير مرغوب فيها ، ولعل هذا الشعور هو الذى أدى إلى الاضطراب النفسى الذى بدأ على شكل لجلجة فى الكلام . وقد تأكد هذا لدينا بعد أن أجرينا اختبار التعرف على الاتجاهات العائلية (لليديا جاكسون) ، وقد ذكرت الطفلة بصدد إحدى صور الاختبار :

« كان مرة راجل متزوج واحدة و بعدين خلفت بنت . البنت دى كبرت و بعدين الواحدة دى رجعت خلفت ثانى . وكانت الأم بترضع البنت الصغيرة و بتلاعبها طبعا لأنها صغيرة وما كانتش بتلاعب البنت الأولنية لأنها كبيرة . و بعدين البنت غارت وكانت عاوزة تقطع فى نفسها . وكانت عاوزة كمان تموت أختها الصغيرة . . . »

كذلك كان لسوء العلاقات بين والد الحالة وأمها أثره فى تفاقم هذا الاضطراب النفسى المستتر وراء ظاهرة اللجلجة ، إذ كانت الأم وحيدة أبويها تنال منهما الشىء الكثير من التدليل ، ولم تحقق لها حياتها الزوجية ما كانت تطمح إليه من أحلام . كل هذا كان له أثره فى نفسية الأم فأصبحت عصبية المزاج برمة بحياتها الزوجية فى السنوات الأولى . وقد ساعد تطبيق اختبار تفهم الموضوع على الأم فى الكشف عن العوامل التى أدت إلى عدم شعورها بالطمأنينة والرضا ، وهكذا كان فهم المشكلة من ناحية الأم وكذلك الطفلة عونا على توجيه الأم إلى أن تغير من اتجاهاتها نحو الحالة الأمر الذى أعاد الثقة للطفلة بنفسها وأزال الأسباب التى كانت تبعث القلق فى نفسها وتشعرها بأنها غير مرغوب فيها وخصوصا بعد أن ولد الطفل الثانى للأسرة وكذلك ساعد العلاج الكلامى فى تخفيف حدة اللجلجة .

القسم الثانى :

الانحرافات التى تتصل بالحالة الحسية والبدنية

تشمل هذه الانحرافات مايلى :

(ا) عاهات الحواس .

(ب) العيوب البدنية .

(ج) عيوب تنشأ بسبب إصابة الجهاز العصبى المركزى .

(ا) عاهات الحواس

سيقتصر كلامنا عن عاهات الحواس على نوعين من الانحرافات :

(١) ضعاف السمع والصم .

(٢) ضعاف الأبصار .

(١) ضعاف السمع والصم

فى معظم المدارس ، نجد من وقت لآخر وفى فرق مختلفة ، أن هناك من بين التلاميذ من لا يستطيع أن يسمع جملة كاملة إلا إذا خوطب بصوت مرتفع غير مألوف ، وكثيرا مايمكث هؤلاء التلاميذ فى الفصول العادية دون أن يلتفت إليهم أحد ، وهم فى معظم الوقت لايفعلون شيئا يذكر ، غير ملتفتين لما يقال ، يقضون أوقاتهم فى الكتابة أحيانا أو الرسم أحيانا أخرى ، ويعلل المدرس ذلك بأن أمثال هؤلاء التلاميذ من طبقة ضعاف العقول أو من الأغبياء الذين يتعذر عليهم متابعة الدرس .

وبجانب تلك الفئة من الأطفال ، توجد فئة أخرى تعانى نقصا كاملا فى القدرة السمعية ، وتكون هذه الجماعة فئة الصم (deaf) ، والصمم كما سنرى عاهة أكثر إعاقة من العمى ؛ إذ أن الأصم يتعذر عليه نتيجة لعاهته الاشتراك فى المجتمع.

وسنعالج فى الصفحات المقبلة هذا النوع من الشذوذ الحسى ، مبينين أسبابه ودرجاته والوسائل العلاجية والتعليمية المختلفة التى تقدم للأخذ بيد تلك الفئات التعسة من الأطفال .

الفرق بين الصمم وضعف السمع :

ليس الفرق بين الأصم وضعيف السمع فرقا فى الدرجة ، ذلك لأن الأصم هو ذلك الشخص الذى يتعذر عليه أن يستجيب استجابة تدل على فهم الكلام المسموع ، بينما الشخص الذى يشكو ضعفا فى سمعه فى قدرته أن يستجيب للكلام المسموع استجابة تدل على إدراكه لما يدور حوله بشرط أن يقع مصدر الصوت فى حدود قدرته السمعية ، ومعنى هذا أن الشخص الأصم يعانى عجزا أو اختلالا يحول بينه و بين الاستفادة من حاسة السمع ؛ فهى معطلة لديه ، وهو لذلك لا يستطيع اكتساب اللغة بالطريقة العادية، على حين أن ضعاف السمع يعانون نقصا فى قدرتهم السمعية و يكون هذا النقص غالبا على درجات .

مدى النقص فى الحدة السمعية :

يمكن تقسيم النقص السمعى (Hesaing Losses) إلى الفئات التالية :

(ا) نقص سمعى من النوع البسيط Slight وهو عبارة عن ٢٠ وحدة صوتية (Decibles) أقل مما هو عادى .

(ب) نقص سمعى من النوع المتوسط (Moderate) وهو عبارة عن ٤٠ وحدة صوتية أقل مما هو عادى .

(ج) نقص سمعى من النوع الشديد (Severe) وهو عبارة عن ٦٠ وحدة صوتية أقل مما هو عادى .

فأما أفراد الفئة الأولى فيمكن تركهم فى الفصول العادية ليواصلوا تعليمهم مع الأطفال العاديين على أن تكون مقاعدهم فى الصفوف الأمامية . وأما أفراد الفئة الثانية فيجب أن تقدم لهم الأجهزة التى تساعد على السمع Hearing Aids على أن يبقوا أيضا فى الفصول العادية . وفيما عدا ذلك يجب عزل الذين تزيد حدتهم السمعية عن ٤٠ وحدة فى فصول خاصة وهم أفراد الفئة الثالثة .

دراسة احصائية لعيوب السمع فى البيئة المصرية :

قمت بالاشتراك مع الإدارة العامة للصحة المدرسية بإجراء دراسة احصائية للوقوف على ضعاف السمع بين تلاميذ وتلميذات المرحلة الأولى فى منطقتى القاهرة الشمالية والجنوبية . وفيما يلى جدول يبين عدد ضعاف السمع من تلاميذ المرحلة الأولى فى هاتين المنطقتين من بنين وبنات :

المنطقـــة	عـــدد التلاميذ		ضعاف السمع		المجموع
	بنـين	بنـات	بنـين	بنـات	
منطقة القاهرة الشمالية	٢٨٩١٨	٢٤٧٥١	٢٤٤	٦٨	٣١٢
منطقة القاهرة الجنوبية	٢٠٠١٩	١٩٢٢٧	١٢١	٩٩	٢٢٠
	٤٨٩٣٧	٤٣٩٧٨	٣٦٥	١٦٧	٥٣٢

النسبة المئوية = ٥٧ر٪

أى أنه يوجد بين كل ١٠٠٠ طفل حوالى ٦ أطفال مصابين بنقص فى القدرة السمعية ويحتاجون إلى مساعدة خاصة . ونحب أن نبين أن طريقة الكشف عن هؤلاء المصابين بنقص فى القدرة السمعية لم تستخدم فيها جهاز السمع المعروف باسم Speech audiometer وإنما كان ذلك بطريقة من الطرق التقديرية التى تستخدم فيها الساعة الدقاقة أو الصوت الطبيعى أو الهمس .

أسباب ضعف السمع :

هناك عدة أسباب ينشأ عنها ضعف القدرة السمعية ، وهذه الأسباب تختلف باختلاف مكان الإصابة فى الجهاز السمعى نفسه . فمنها ما يتصل بالأذن الخارجية ومنها ما يتصل بالأذن الوسطى ومنها ما يتصل بالأذن الداخلية . وسنوضح فيما يلى أسباب الإصابة فى كل جزء على حدة ، وطريقة تحديد موضع الإصابة .

١ — أسباب تتصل بالأذن الخارجية :

يحدث فى بعض الحالات أن تفرز الغدد مادة شمعية ، إذا ما كثرت هذه المادة أدت إلى سد القناة السمعية فيترتب على ذلك أن يصبح السمع ثقيلا ، ومن ثم كان من الواجب تنبيه الأفراد والمشرفين على تربية النشء إلى ضرورة العمل على إزالة هذه المادة .

٢ — أسباب تتصل بالأذن الوسطى :

يحدث فى بعض الحالات أن تسد قناة استاكيوس عند إصابة الفرد بالبرد الشديد أو الزكام ، وينتج عن ذلك أن يكون الضغط الخارجى على طبلة الأذن شديدا . وهنا لاتهتز الطبلة عند وصول الصوت إليها . ومن ثم لاتستطيع أن تؤدى وظيفتها .

ويمكن اعتبار ما أوردناه من أسباب فى الحالتين السابقتين من الأسباب الطارئة التى تؤدى إلى ثقل السمع ، إلا أنه بجانب ذلك توجد أسباب ثابتة ذات أساس عضوى وتؤدى إلى نقص القدرة السمعية .

٣ — أسباب تتصل بإصابة الأذن الداخلية :

يحدث فى بعض الأحيان أن تصاب الأذن الداخلية وخاصة عصب السمع بأمراض تتلفها أو تعطلها عن العمل .

كيف تكون العناية بضعاف السمع :

إن من أبرز النتائج التي تترتب عن ضعف السمع ، وخاصة في المراحل الأولى ، أن نطق الطفل لا يتطور تطورا عادياً ذلك لأن العملية الكلامية هي عملية مكتسبة تعتمد اعتمادا كبيرا على التقليد والمحاكاة الصوتية . ومعنى ذلك أن أي خلل يصيب الجهاز السمعي يترتب عنه التواء في طريقة النطق . ولذلك يحتاج هؤلاء الأطفال إلى تمرينات خاصة لعلاج الناحية الكلامية ، كما أنهم يحتاجون بالإضافة إلى ذلك إلى تمرينات لتقوية السمع نفسه تكون على النحو التالي :

(ا) تعويد المصاب التمييز بين الأصوات المختلفة مثل : أبواق السيارات ، نباح الكلاب ، الأجراس . . . الخ .

(ب) تمرينات يقصد بها تعويد المصاب على ملاحظة الأصوات الدقيقة : كالهمس والصفير بصوت منخفض .

(حـ) تمرينات تتكون من أصوات كلامية تنطق بشكل واضح على مسافة يتمكن معها المصاب من التمييز بين كل منها وملاحظة أعضاء الكلام الظاهرة . وقد جرت العادة على البدء بالحروف المتحركة ثم الساكنة على أن يكون كل حرف منها على حدة ثم نتدرج إلى مقاطع مكونة من حرف ساكن وآخر متحرك .

(د) تمرينات يقصد بها الانتباه السمعي لدى المصاب ويكون ذلك عن طريق التسجيلات الصوتية التي يتاح له بواسطتها أن يسمع صوته ويقارنه بصوت آخر ، ويراعي في هذه المقارنة أخطاؤه في النطق ، ويستحسن أن تسير التمرينات السمعية جنبا إلى جنب مع التمرينات الكلامية التي لا تختلف في طبيعتها عن التمرينات التي تستعمل في علاج العيوب الكلامية المختلفة .

هذا وأحب أن أشير إلى أن قراءة الشفاه (Lip Reading) لها أهمية عظمى فى علاج هؤلاء المصابين . وهناك بعض القواعد الواجب مراعاتها عند تعليم الطفل عن طريق قراءة الشفاه ، منها :

(١) إعرض على الطفل الأشياء التى تريد أن تعلمه إياها بهذه الطريقة ، أو بعبارة أخرى : إربط بين منطوق الكلمة ومدلولها .

(٢) يجب مراعاة مستوى الطفل ومرحلته فى النمو ، أى أنه يحسن بنا أن نبدأ بالأمور التى تتصل اتصالا مباشرا بحياته وحاجاته الأساسية .

(٣) لتكن المسافة التى تفصلك عن الطفل وأنت تحاول تعليمه كيف يقرأ شفتيك لا تزيد عن خمسة أقدام ولا تقل عن قدمين . لأن فى حالة اقترابك منه فإنه يتعذر عليه تركيز انتباهه على أعصاب وجهك .

(٤) ليكن كلامك واضحا و بنغمة طبيعية .

(٥) ليس من الضرورى أن يعيد الطفل الكلمات التى تتفوه بها و يكتفى أن يقلد الحركات التى قمت بها دون إخراج أى صوت .

(٦) هنالك بعض الحروف الساكنة تكون ذات صورة متشابهة على الشفاه مثل حرف الميم والباء أو التاء والدال أو الجيم والكاف . ومن الممكن فى هذه الحالات مساعدة الطفل أثناء التعليم عن طريق قراءة الشفاه مساعدته على التفرقة بين الحروف المتشابهة فى طريقة اخراجها ، استعمال الكلمات المختلفة فى جملة وفى كلمات مفردة .

(٧) إن استعمال المرآة يساعد على ملاحظة حركات الشفاه فى أوضاعها المختلفة .

(٢) ضعاف البصر

فئات ضعاف البصر :

جرت العادة على تقسيم هؤلاء الأطفال إلى مجموعتين :

الأولى : حالات الضعف الثابتة .

الثانية : حالات الضعف الطارئة .

وتشمل المجموعة الأولى الحالات التالية :

(ا) كل من تنقص حدة البصر لديه فى إحدى العينين إلى مادون $\frac{٦}{٢٨}$ بدون استخدام النظارة .

(ب) المصابون بعيوب بصرية خاصة ومنها قصر النظر أو طول النظر وانحراف النظر (الاستجماتزم) ؛ بالإضافة إلى وجود سحابات أو عتامات بالقرنية أو لضمور العصب البصرى . . . الخ .

أما المجموعة الثانية : فتشمل تلك الفئة من الأطفال الذين يعانون ضعفا مؤقتا فى أبصارهم . ومن أهم الأسباب التى تؤدى إلى ذلك :

(١) أمراض العين المختلفة .

(٢) الجروح والاصابات والكدمات التى تصيب العين .

(٣) الصدمات النفسية .

وهكذا نرى أن ضعف البصر ليس نوعا واحدا ، وذلك أن العلة فى بعض الحالات تكون مؤقتة ، تزول بزوال السبب ، على حين أن علة بعضها الآخر تظل ثابتة : ويحتاج المصابون من الفئة الأولى إلى عناية دقيقة ، بينما يحتاج أفراد الفئة الثانية إلى نوع من العلاج والعناية دائمين .

النسبة المئوية لضعاف البصر بمدارس المرحلة الأولى :

قامت الإدارة العامة للصحة المدرسية — وذلك فى عام ١٩٥٥ — بعمل فحص شامل لحوالى ١٠٫٠٠٠ تلميذ وتلميذة بمدارس المرحلة الأولى فى أحياء مختلفة بمدينة القاهرة ، وجندت لهذا العمل إحدى عشرة فرقة ، كل فرقة يرأسها طبيب رمدى أو طبيب باطنى أو حكيمة من خريجات قصر العينى [١]

وقد اتضح من النتائج التى حُصِل عليها أن النسبة المئوية لضعاف الأبصار هى ٤٫٣٪ ، ثم أجرى كشف نظارة لكل منهم وفحصت حدة الإبصار بالنظارة فكانت النتيجة أن الجزء الأكبر منهم تحسن إلى أكثر من ٦/١٢ ، على حين كانت نسبة من لم يتحسن بالنظارة منهم هى ٤٫٢ فى الألف [٢] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن المستوى الاجتماعى للمدارس المختلفة التى أجرى عليها البحث لعبت دورا هاما فى اختلاف النسب ؛ ففى مدرسة إمبابه رقم ١ للبنات ، مثلا كانت النسبة المئوية ٧٫٨٪ ، بينما كانت النسبة فى مدرسة روضة الأورمان المشتركة بالجيزة ٣٫٤٪ ، وغير خاف أن المدرسة الأولى تقع فى حى فقير ومستواها الاجتماعى منخفض ، بينما المدرسة الثانية تقع فى حى راق ومستواها الاجتماعى عال .

---

(١) أشرف على هذا البحث الدكتور إيليا ناشد رئيس قسم الرمد بالصحة المدرسية . ويقوم المؤلف بالاشتراك مع مركز التنظيم والتدريب بقليوب ببحث مماثل على بعض القرى التابعة لمركز قليوب ، وما زالت نتائج البحث موضوع الدراسة .

(٢) سبق أن قام المؤلف بالاشتراك مع الدكتور فريد مسعود اخصائى النظر بالصحة المدرسية ، بدراسة إحصائية لمعرفة ضعاف الأبصار فى منطقة القاهرة الجنوبية ، وأسفرت تلك الدراسة عن وجود ١٧ فى الألف أى بنسبة ١٫٧٪ طفلان يشكومن نوع أو أكثر من حالات ضعف البصر .

تنظيم الدراسة الخاصة بضعاف البصر :

لما كان عدد ضعاف البصر فى المدرسة الواحدة قليلا إلى درجة لا تسمح بأن ينشأ لهم نظام خاص فى نفس المدرسة ، فإنه قد رئى أن خير وسيلة لتنظيم الدراسة الخاصة بهؤلاء هو أن تقسم البلدة إلى مناطق تشمل كل منطقة منها عددا معينا من مدارسها ، وتختار إحدى المدارس فيها لإنشاء الفصول الخاصة بضعاف البصر الموجودين بمدارس هذه المنطقة .

ويحسن أن تنشأ الفصول فى مدارس تتفق مع درجة تحصيل التلاميذ ، بمعنى أن تلاميذ كل مرحلة من مراحل التعليم تنشأ لهم فصول فى مدارس هذه المرحلة ؛ و إن كانت الضرورة فى بعض الأحيان قد تلزم بضم تلاميذ المرحلتين الأولى والثانية فى دراسة خاصة واحدة ، وعلى الرغم من أن هذا الإجراء غير سليم بالنسبة لكل من الكبار والصغار من التلاميذ إلا أنه أخف من الأضرار التى تنجم عن ترك هؤلاء التلاميذ فى المدرسة العادية ، ولاشك أن السياسة المثلى هى أن يراعى فى إنشاء الفصول الخاصة توحيد الأعمار والثقافات لتكون الاستفادة كاملة .

إن ما يحتاجه الأطفال فى هذه الفصول الخاصة ، يشبه إلى درجة كبيرة ما يأخذه الأطفال العاديون فيما عدا الرسم ، لأن الكثيرين من هؤلاء الأطفال وبخاصة القادرين منهم يرغبون فى مواصلة دراساتهم فى المعاهد العالية والجامعات . وفيما عدا ذلك ، فإن هؤلاء الأطفال يحتاجون إلى تدريب خاص فى المهارات الحركية والاتزان الحركى والخفة فيه . ويمكن تحقيق ذلك عن طريق تعليم الموسيقى وإدخال مادة التربية البدنية والأشغال اليدوية .

الأدوات اللازمة للفصول الخاصة :

الكتب :

جرت العادة أن تطبع الكتب التى يستعملها التلاميذ فى الفصول العادية (ببنط ١٠) أما فى الفصول الخاصة بضعاف البصر فإنه يجب أن تكون لهم كتب خاصة تختلف فى طبعها عن كتب الأطفال العاديين ، فتطبع (بالبنط ٢٤) وهذا النمط الجديد فى الطباعة مدعاة إلى أن تكون الحروف كبيرة الحجم و يجب أن يراعى كذلك أن تكون المسافات بين الحروف والكلمات والسطور واسعة وذلك يكفل عدم إرهاق العين . أما الحبر الذى يستعمل فى طباعة هذه الكتب فيجب أن يكون أسود داكناً غير لامع ، كما ينبغى أن يكون الورق برتقالى اللون مائلا إلى الصفرة غير مصقول (وهو المعروف عندنا بالورق النباتى) حتى لا يحدث إشعاعاً ينعكس على العين فيجهدها أثناء القراءة .

الآلات الكاتبة :

تستعمل آلات خاصة فى هذه الفصول حيث يدرب التلاميذ على استعمالها و يمرنون على اتخاذها لأداء ما يريدون كتابته بدلا من الكتابة بأيديهم .

و بهذا يقع العبء الأكبر على أصابعهم دون أعينهم ، لأنه مما لا يحتاج إلى زيادة إيضاح أن استعمال الآلة الكاتبة ينقل العبء الذى كانت تقوم به العين إلى الأصابع التى تكون بالمران قد حفظت مواقع الحروف وحذقت الضرب عليها دون حاجة إلى الاستعانة بالنظر إليها ، وهذا مشاهد فيمن يستعملون الآلات الكاتبة حتى الذين يتمتعون منهم بدرجة إبصار ممتازة ، فإنهم يتبارون فى استعمال هـذه الآلات على طريقة (Blind touch) أى الكتابة باللمس دون النظر .

ومما تجمل الإشارة إليه أنه ليس المقصود باستعمال هذه الآلات الكاتبة سوى اتخاذها وسيلة للكتابة لا على أنها مهنة يجب أن يتعلمها التلاميذ ضمن البرنامج .

الخرائط :

الخرائط العادية ذات الحروف الصغيرة لا يمكن استعمالها فى هذه الفصول وهناك خرائط من نوع خاص قليلة التفاصيل ، واضحة المعالم ، غير مزدحمة بالمعلومات الكثيرة ، وأمثال هذه الخرائط يمكن استعمالها فى تدريس الجغرافيا والتاريخ بسهولة و يسر ، دون أن يبذل الطفل مجهوداً يتعب بصره .

الصور :

هى وسيلة أخرى من وسائل الإيضاح التى تستعمل فى الدراسة تضيف كثيراً إلى معلومات التلاميذ ، كما أنها قد تكون وسيلة للكشف عن ميولهم .
ومن الخطأ أن تعرض صور كثيرة فى وقت واحد ، أو أن تكون الصور مزدحمة بالتفاصيل لأن ذلك كله مدعاة إلى إجهاد حاسة البصر عند الطفل .

الأشغال اليدوية :

يجب أن يكون لمادة الأشغال اليدوية هدف تعليمى أو تربوى تهدف إليه ، أما أن نزحم وقت التلاميذ بأشغال يدوية فإن ذلك قد يحدث مضايقات لتلك الفئة من الأطفال الذين يعانون نقصاً فى قدرتهم البصرية .

و يجب أن يحقق تدريس مادة الأشغال أموراً عدة منها :

(١) أن تكون وسيلة من وسائل راحة العين لا إجهادها . والإجهاد يكون عادة نتيجة للأشغال التى تحتاج إلى دقة العمل والملاحظة .

(٢) أن يكون وراء الأشغال باعث يحببها إلى التلاميذ و يدفعهم إليها .

(٣) أن يربط بينها وبين مواد الدراسة .

(٤) أن تثير ميول التلاميذ حتى يستطيعوا عن طريق تلك الاثارة أن يشغلوا أوقات فراغهم فى المنزل بالقيام بأعمال مماثلة ، بدل محاولة القراءة أو القيام بأى عمل فيه اجهاد للعين ، والخلاصة أنه يجب أن تتوفر فى حجرات الدراسة لضعاف البصر شروط خاصة من حيث توزيع الضوء ، ولون الحوائط والأثاث ، والأدوات ، والمواد التى تستعمل . ويجب أن يكون الأساس الذى يقوم عليه اختيار المواد والتنظيم خاضعاً لمبدأ واحد هام ، وهو عدم اجهاد عيون المصابين ، بمعنى أن يسهل لهم القيام بما يطالب منهم من أعمال بأقل مجهود بصرى ممكن .

وفى رأينا أنه إذا لم تتحقق مثل هذه الشروط عند إنشاء الفصل الخاص ، فمن الأفضل تأجيل إنشائه لأن انشاء فصل لا تتوفر فيه المواصفات والإعدادات اللازمة يحشد الأطفال فيه هو أكبر ضرراً من تركهم دون عناية خاصة .

(ب) العيوب والعاهات البدنية

شلل الأطفال :

يشمل شلل الأطفال مجموعة من الحالات التى تتميز باضطراب فى الحركة . ولقد بدأ الاهتمام بهذا المرض فى العشرين سنة الأخيرة على أثر الأبحاث المستفيضة التى قام بها كل من (مورجان فيلبس) و (ايرميل كارش) فى الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة صحة النظريات التقليدية المتصلة بهذا المرض والتى كانت تعتبره مشكلة من مشكلات جراحة تقويم الاعوجاج . إلا أن الأبحاث الحديثة أثبتت أن المشكلة من حيث العلة متشعبة النواحى ، فهى فى

جوهرها مشكلة عصبية، تحدث نتيجة آفة مخنية ، يتعرض لها المصاب منذ الولادة. و بجانب هذه العلة العصبية التى تتحكم فى تكوين المصاب ، هناك نواح أخرى من النقص أثر الاضطراب تتصل بالنواحى الحسية والانفعالية والذهنية تترتب عن الاصابة الأصلية .

أسباب شلل الأطفال :

إن أسباب هذا المرض متنوعة وهى :

(أولا) عوامل وراثية منها الزهرى الوراثى أو إصابة أحد الوالدين بمرض عقلى أو عصبى ينتقل عن طريق الوراثة إلى الأبناء .

(ثانيا) إصابة الأم أثناء الحمل بمرض خطير أو بحادث من الحوادث يؤثر بدوره على نمو الجنين داخل الرحم . ويترتب عن ذلك توقف فى عملية نمو وتطور الجهاز العصبى . إن هذا التوقف يكون على شكل ضمور أو تليف فى الخلايا العصبية . ومن أهم الأمراض التى تصاب بها الأم أثناء الحمل وتؤثر على الجنين : الالتهاب السحائى وكذلك التهاب الدماغ .

(ثالثا) إصابة الطفل الوليد أثناء عملية الوضع بحادث يصيب المخ ينتج عنه نزيف فى الأغشية المغلفة لهذا العضو . ويحتمل أن تحدث الإصابة بالشلل فى بعض الحالات بسبب (اسفكسيا Asphyxia) أثناء الولادة .

أنواع شلل الأطفال :

إن الشلل فى الأطفال يأخذ صورا ثلاثة ، وهى :

(١) الضعف الجسمى والتوتر Spasticity الذى ينتج عن وجود إصابة أو تلف أو التهاب أو شلل أو أورام فى المسالك الهرمية pyramidal nerve tracts ، وهذه الإصابة تؤثر بدورها على أعصاب الحركة ، فتتأثر تبعا لذلك

الأطراف السفلى أكثر من الأطراف العليا . وتختلف شدة الضعف والتوتر اختلافا عظيما من حالة لأخرى. فى الحالات الخفيفة لا تزيد العلة عن أن تكون ازدياداً فى الانعكاسات العصبية ، بينما نجد فى الحالات الشديدة أن الشلل أو الفالج يصيب الأطراف السفلى مع توتر فى العضلات مصحوب بعدم القدرة على الاسترخاء وانثناء الكوع والرسغ وتوجيه راحة اليد للداخل . ويمشى الطفل فى هذه الحالات على أطراف أصابعه مع انثناء الساقين والفخذين للداخل ، وتبعا لذلك نلاحظ انحناء فى العمود الفقرى أكثر مما هو مألوف . ولا شك أن الأطراف العليا وعضلات الكلام والبلع تتأثر بحالة التوتر والتشنج العامة التى تصيب الجسم .

(٢) أما النوع الثانى من شلل الأطفال فمعروف باسم (athetosis) [1] وترجع العلة فيه إلى إصابة الـ (basal ganglia) وهى عبارة عن مجموعة الخلايا والأنسجة التى تقع فوق المخيخ .

إن الشلل فى هذه الحالات يصيب الأطراف (اليدين والساقين والأصابع الخ). ويجعلها فى حركة مستمرة لا إرادية . وتزداد هذه الحركات اللا إرادية وضوحا أثناء القيام بالأعمال الإرادية وخاصة عندما يكون المصاب تحت تأثير حالة نفسيه غير مرغوب فيها . ويصاحب هذه الحركات تقلصات فى عضلات الوجه ولا تظهر إلا أثناء اليقظة ، أما أثناء النوم فهى معدومة تماما .

(٣) أما النوع الثالث من شلل الأطفال فمعروف باسم (ataxia) وينشأ بسبب إصابة المخيخ بالتورم أو الضمور . وهذه الإصابة — أيا كان نوعها — من شأنها التأثير على الأعصاب الموصلة إلى الأطراف السفلى فتجعل توزان الجسم مختلا . ومن أهم النتائج البارزة فى هذه الحالة أن تصبح مشية المصاب غير

---

(١) تشابه أعراض هذا المرض الظاهرة المرضية المعروفة باسم (Chorea) .

مضبوطة كما يحدث اختلال فى حركات العين عند النظر إلى أعلى أو أسفل أو إلى اليسار أو اليمين . هذا وهناك بعض الأعراض الأخرى المصاحبة (وهى نادرة) مثل إصابة الطفل بالعمى أو التعرض لنوبات صرعية .

(حـ) انحرافات تنشأ بسبب إصابة الجهاز العصبى المركزى

ومن بين هذه الانحرافات الظواهر المرضية التالية :

١ — الأفيزيا .

٢ — الصرع .

٣ — الـكوريا .

(ا) الأفيزيا

مدلول اللفظ :

أفيزيا (Aphasia) اصطلاح يونانى الأصل[١] ، ويتضمن مجموعة العيوب التى تتصل بفقد القدرة على التعبير بالـكلام أو الـكتابة ، أو عدم القدرة على فهم معنى الـكلمات المنطوق بها ، أو إيجاد الأسماء لبعض الأشياء والمرئيات ، أو مراعاة القواعد النحوية التى تستعمل فى الحديث أو الـكتابة .

ولقد اصطلح على إطلاق لفظ « أفيزيا » على هذه العوارض المرضية الـكلامية كما أوضحناها ، رغم التفاوت بينها فى المظهر الخارجى . ورغم هذا التفاوت فهناك عامل مشترك يربط بينها ، ينحصر فى أن مصدر العلة فى كل يتصل منها بالجهاز العصبى المركزى ويرجع الاختلاف فى ظهور إحداها دون الأخرى ، فى مصاب دون الآخر ، إلى نوع وموضع الإصابة من هذا الجهاز .

(1) Aphasia : Greek — a — privative, phasis — speech

نماذج من الأفيزيا :

كان من نتائج الأبحاث التشريحية الدماغية التى قام بها كل من : بروكا، فرنك ، بيير مارى ، هنرى هد ، جاكسون ، جولدشتين ، رسل برين ، كرتشلى وغيرهم ، أن هناك أنواعا مختلفة من (الأفيزيا) من أهمها :

١ — أفيزيا حركية أو لفظية . Motor (verbal)

٢ — أفيزيا حسية أو فهمية Sensory

١ — أفيزيا حركية

يرجع الفضل إلى اكتشاف هذا النوع من العيوب الأفيزية إلى الجراح المشهور « بروكا Broca » إذا وجد فى أحد مرضاه الذين يعانون احتباساً فى كلامهم ، خللا فى الجزء الخارجى من التلفيف الجبهى الثالث بالمخ ، والقريب من مراكز الحركة لأعضاء الجهاز الكلامى . ولقد كانت علة مريض «بروكا» . السابق الإشارة إليه ، مقصورة على فقدان التعبير الحركى الكلامى ، دون وجود أية ظاهرة كلامية مرضية أخرى ، ومنذ ذلك الوقت ، أطلق على هذا النوع من العيوب الكلامية الذى اكتشفه « بروكا » ، الاصطلاح أفيزيا حركية أو لفظية ، وهى نوع من احتباس الكلام .

وفى الحالات الشديدة من هذه الحُبسة الكلامية ، يفقد المصاب القدرة على التعبير ، لدرجة لا يتعدى فيها محصوله اللغوى كلمة « نعم » أو « لا » ؛ وقد يكون حديثه كله مقصوراً على لفظ واحد لا يغيره مهما تنوعت الأسئلة أو الأحاديث الموجهة إليه ، كأن يقول مثلا « محمد » أو «ولد» كلما حدثه أحد . وقد يحدث أحياناً عند ما يكون المصاب واقعاً تحت تأثير حالة انفعالية عنيفة ، أن يتمتم ببعض العبارات غير المألوفة الواضحة ، قصداً إلى السباب والعدوان .

وأحب أن أشير إنه بالرغم من احتباس الكلام فى حالات الأفيزيا الحركية ، إلا أن المريض لا يشكو اضطراباً أو عجزاً فى قدرته على فهم مدلول الكلمات المنطوقة أو المكتوبة، بمعنى أنه يستطيع أن يفهم ما يقرأ فى الصحف أو الكتب أو المجلات ، كما يستطيع أن يدلل على إدراكه لما يدور حوله من حديث ، أو لما يوجه إليه من أسئلة ، أو تنفيذ ما يطلب منه .

إن عدد المصابين باحتباس الكلام ، من بين الذين يتعرضون إلى العيوب الأفيزية ، يكونون نسبة ضئيلة ، ذلك أنه قلما تكون الإصابة قاصرة على مركز الحركة لأعضاء الجهاز الكلامى (Broca's area) . وفى هذه الفئة الضئيلة تنشأ الإصابة عن سبب أو أكثر من الأسباب الآتية :

(ا) إصابة نتيجة الحوادث .

(ب) الإصابات التى تحدث نتيجة الولادة العسرة أو بالآلات .

(حـ) وأحياناً تولد الإصابة مع الطفل ، نتيجة إصابة أثناء الحمل .

(د) تعرض الجنود لحوادث الحرب وخاصة ما يصيب الرأس .

٢ — أفيزيا حسية

كان من نتائج الأبحاث التشريحية الدماغية التى قام بها «فرنك Wernicke» أن توصل إلى بعض التصورات التى ساعدته على افتراض وجود مركز سمعى كلامى يقع فى الفص الصدغى من الدماغ . وكان من نتيجة هذا الافتراض ، أن تصور أن حدوث أى خلل فى هذا الجزء يسبب اتلاف الخلايا التى تساعد على تكوين الصور السمعية للكلمات و ينتج عن هذا الإتلاف ظاهرة مرضية كلامية معروفة باسم « العمى السمعى Word deafness » وهى نوع من أنواع الأفيزيا الحسية . والمصاب بهذه العلة يفقد القدرة على تمييز الأصوات المسموعة

وإعطائها دلالتها اللغوية ؛ بمعنى أنه يسمع الحرف كصوت ، إلا أنه يتعذر عليه ترجمة مدلول الصوت الحادث وينتج عن ذلك أن يبدل الحرف بحرف آخر (وخاصة الحروف الساكنة) عند الكلام وهنا يصبح الكلام غامضاً ، متداخلا ، غير مفهوم ، لأن نطق الطفل يختلف عن النماذج الكلامية العادية المألوفة .

وكما يبدو فالمشكلة فى مثل هذه الحالات لا تتصل بالقدرة السمعية لدى الفرد (فهى عادية) ، بل تنشأ عن اضطراب فى القدرة الادراكية السمعية (auditory imperception) . ومن الأمثلة التى توضح ذلك ، أننا عندما نتفوه أمام طفل يعانى هذا النقص ، بحرف (الباء) مثلا ، ونطلب منه تكرار ماسمع نجده يقول (فاء) ؛ وما يقال عن هذا الإبدال السمعى الذى ينصب على حرفى الباء والفاء ، يقال كذلك على الحروف الحلقية (الجيم والخاء) . بيد أنك إذا كتبت للطفل حرف (الباء) وطلبت منه قراءته ، فإنه يقرأه صحيحا . فكأن العيب ، كما أوضحنا ، يتصل بالإدراك السمعى وليس بالإدراك البصرى .

وأحب أن أشير إلى أن هذا النوع من الأفيزيا الحسية إما أن يكون جزئياً ، أى قاصراً على بعض الحروف دون الأخرى ، أو كليا فيشمل معظم الحروف الهجائية . ومرد ذلك راجع إلى مدى إصابة المراكز المخيّة الخاصة ، والتى تحدث نتيجة عوامل « ولادية congenital » (أى أن الطفل يولد بها) أو مكتسبة بعد الميلاد . وتكون لغة أمثال هؤلاء الأطفال فى حالة الإصابة الكلية عبارة عن لغة خاصة لا يستطيع فهمها إلا الأشخاص المتصلين اتصالا مباشراً بهم ، كالأم مثلا أو الأخوة ، بينما يتعذر على الأشخاص الغرباء متابعة كلامهم ؛ إن كلام المصاب فى مثل هذه الحالات لا يسير على قاعدة معينة ، إذ يشتق الفرد لغته على حسب إمكانياته العقلية والحسية .

وتشمل الأفيزيا الحسية أنواعا أخرى نلخصها فيما يلى :

(ا) العمى اللفظى Word blindness — Alexia ومن أهم مايمتاز به المصاب بهذه العلة ، أنه يستطيع قراءة الكلمات المكتوبة أو المطبوعة ، إلا أن قراءته لها تكون غير مضبوطة ، بمعنى أنه يفهم ما يقرأ ، ولكنه عند ما يتلفظ بمضمون ما يقرأه ، نجده يبدل الحروف (حرج بدلا من خرج) ، أو يقلبها (تكب بدلا من كتب) أو يعكسها (عمد بدلا من دمع) .

وكثيراً ما يكون الإبدال جزئيا ، أى قاصراً على حروف خاصة ، ويغلب ذلك فى الحروف المتقاربة فى الشكل كحرفى السين والشين . والجيم والخاء ، أو يكون شاملا لعدد كبير من الحروف الهجائية .

والغريب أنك إذا طلبت من المصاب أن يقلد عن طريق السمع نفس الحروف التى يبدلها أثناء القراءة الجهرية ، فإنه يقلدها تقليدا صحيحاً . ومعنى ذلك أن الخلل متصل بالمراكز البصرية للكلمات ، دون المراكز السمعية .

ويتطلب العلاج فى هذه الحالات العناية بتدريب المصاب على ربط المقاطع المكتوبة بنطقها وبحركات أعضاء الجهاز الكلامى التى تستخدم فى النطق . ويحسن أن يشير المعالج إلى الحرف أثناء قراءة المصاب له ، لأن ذلك يساعد على ربط الحرف المنطوق بشكله . وعندما تتقدم عملية العلاج ، لا مانع أن يُشجع المصاب على أن يقوم بعملية الإشارة بنفسه . هذا ونستطيع أن نسمح للمصاب فى الوقت نفسه ، أن يجلس بجوار عادى أثناء دروس الإملاء ، كما نبيح له النظر إلى ما يكتبه ، لأنه عن طريق ذلك يراجع الطفل نفسه ويصحح من أخطائه بتقليد جاره .

(ب) وهناك نوع آخر من الآفيزيا الحسية ، معروف باسم (echolalia) أى مصاداة الألفاظ أو ترديدها . فاذا وجهنا لمصاب بهذه العلة هذا السؤال

(ما اسمك ؟) ؛ فإن إجابته لا تتعدى تكرار الكلمات التى يتضمنها السؤال ويلفظ بها المتكلم ، فيقول : ما اسمك . . . ما اسمك . . . ما اسمك ، دون ذكر اسمه .

(ج) وهناك نوع ثالث من الأفيزيا يصح أن نطلق عليه « أفيزيا فهمية » ، لأن العلة فيه تتصل بالقدرة على فهم الكلمات المنطوق بها . وقد يكون عدم الفهم كليًا أو جزئيًا ؛ بمعنى أنه فى الحالات الأخيرة ، يستطيع المصاب أن يدرك المعانى الجزئية ، كما ترد فى العبارات التى يسمعها ، إلا أنه يتعذر عليه إدراك المعنى العام . وقد يحدث أحياناً عند قراءة المصاب لفقرة فى كتاب أو جريدة يومية ، أن يتعذر عليه إعطاء ملخص لما يقرأ لغموض بعض المعانى عليه .

وخلاصة القول ، فمشكلة المصاب هنا ، لا تتصل بالنطق وتقويم الحروف ، كما هو الحال فى الأفيزيا اللفظية (الحركية) ، بل تنحصر المشكلة فى فهم مدلول الكلمات وما تتضمنه من معنى . فالمصاب حينئذ يستطيع أن يتمتم بكلمات صحيحة النطق ، وسليمة من حيث مخارج الحروف ، إلا أن هذه الكلمات لا ارتباط بينها ، ولا تدل على معنى تام إذا اقترنت ببعضها .

(د) وهناك نوع رابع معروف باسم Paragrammatism وهو يأخذ أحد شكلين : (ا) أخطاء تتصل بقواعد اللغة أو (ب) أسلوبها من حيث وضع الألفاظ فى أماكنها الصحيحة . فالمصاب هنا لا يراعى القواعد النحوية أو قواعد الأسلوب التى تستعمل بالكتابة أو الحديث .

(٢) الصــــرع

الدراسات الإحصائية :

يتعرض بعض الأفراد إلى نوبات تشنجية (صرعية) تؤثر في سلوكهم وتعرضهم إلى الأخطار . وتزيد نسبة الإصابة بهذا المرض بين الأطفال الذين تقل سنهم عن خمس سـنوات عن نسبتها بين أولئك الذين تزيد سنهم على العشرين بمقدار ثلاثة أضعاف . ومن ناحية أخرى ، فإن إحصاءات (وليم جَاور) فى إنجلترا تبين أن ٥ر١٢٪ من الحالات التى فحصها يقل سن المصابين فيها عن ثلاث سنوات ، ٥ر٣٨٪ يقلون عن عشر سنوات ، ٥ر٤٣٪ تتراوح أعمارهم بين العاشرة والعشرين [١] . وتقوم العيادة النفسية العصبية التابعة لوزارة التربية والتعليم — فى الوقت الحاضر — بدراسات إحصائية لمعرفة نسبة المصابين بالصرع بين تلاميذ وتلميذات مدارس التعليم العام .

الفرق بين التشنجات الصرعية وغير الصرعية :

لا يتعرض الأطفال للتشنجات الصرعية فحسب ، بل إنهم معرضون بالإضافة إلى ذلك ، إلى تشنجات واهتزازات متنوعة ومن نوع آخر . فمن هذه التشنجات ما يظهر على الأطفال الصغار فى السنوات الأولى من حياتهم . وهذه التشنجات الطفلية غير الصرعية و إن كان يصعب تمييزها عن التشنجات الصرعية ، فهى تمتنع عن الظهور تلقائيا عند ما يبلغ الطفل عامه الثانى أو الثالث ، أو نتيجة العلاج المناسب كالتغذية والتعرض لأشـعة الشمس وتعاطى زيت كبد الحوت . كذلك قد يحدث الخلط بين النوبات الصرعية والنوبات الهستيرية .

---

(1) J. E. Wallace Wallin : Cdhilren with maentl and physical handicaps.

إن النوبات الصرعية نوبات فجائية ، لا إرادية ، لا تتعلق بموقف بالذات ولا تحدث استجابة لمثيرات خارجية ، بينما النوبات الهستيرية يندر حدوثها والمصاب منفردا ، لأنها عبارة عن التماس المشاركة الوجدانية . وبالإضافة إلى هذه التفرقة ، نستطيع أن نقـول إن النوبة الصرعية يصحبها فقدان كامل للشعور بينما النوبة الهستيرية لا يتأثر بها الشعور إلا تأثرا جزئيا ، وهذا يعلل كيف أن المصاب بالهستيريا يجتهد ألا يسقط سقوطا يؤدى إلى إصابات بالغة ، بينما لا يقوم المصاب بالصرع بمثل هذه المحاولات . ومن بين الفروق الأخرى بين النوبة الهستيرية والصرعية ما يلى :

١ — تتميز النوبة الهستيرية عن النوبة الصرعية بمـا يصحبها من حدة انفعالية .

٢ — النوبات الصرعية لا يقوم فيها المصـــاب بأية محاولات للدفع أو القبض ، بينما النوبات الهستيرية تتميز بمحاولة المصاب قبض ودفع وجذب الأجسام المختلفة التى تـكون فى متناول يده .

٣ — النوبات الصرعية إنما تنشأ — أو على الأقل — تتميز من انعدام التوافق فى المراكز المخيـة ، بينما تتميز النوبات الهستيرية بالصراع العقلى أو الانفعالى ولا يصحبها أى تلف فى المخ . ولذا تمكن الإخصائيون من التمييز بين حالات الصرع وحالات الهستيريا بالـكشف على المراكز المخية بواسطة الموجات الـكهربائية .

أسباب الصرع :

تختلف هذه الأسباب باختلاف أنواع الصرع ، وهى :

(ا) الصرع التـكوينى Idiopathic epilepsy .

(ب) الصرع العرضى Symptomatic epilepsy .

ولم تعرف حتى الآن علة المرض فى حالة الصرع التكوينى . أما فى حالة الصرع العرضى فيمكن تتبع علته حتى نصل إلى التلف الذى يصيب المراكز المخية (أثناء عملية الولادة أو قبلها أو بعدها) . ويجب ألا يغيب عن الذهن أن هذه الإصابات التى تلحق بالمخ تؤدى إلى نوبات صرعية فى حالة الأفراد ذوى القابلية الاستعدادية أو الميل الموروث للاضطراب العصبى .

الصرع الأكبر والصرع الأصغر :

قد أمكن التمييز بين نموذجين متميزين للصرع يختلف أحدهما عن الآخر من حيث درجة الحدة ومدة النوبة والمظاهر العامة المصاحبة لها والحالة العامة للمصاب قبل النوبة و بعدها والأعمار التى يسود انتشار كل منهما فيها وهما :

(ا) الصرع الأكبر grand mal .

(ب) الصرع الأصغر petit mal .

و يتميز الصرع الأكبر بأنه فى نصف حالاته تقريبا تسبق النوبة بوادر منبئة بها ، بينما لا تحدث هذه البوادر إلا فى حالات نادرة من حالات الصرع الأصغر ، وتتلخص هذه البوادر فى الشعور بعدم الارتياح والكآبة وتغير المزاج و (تنميل) الأطراف ووخزها ، وتغير فى لون الوجه وملامحه واضطراب فى الجهاز التنفسى ، كما قد تصاحب هذه المظاهر حالة المصاب أثناء النوبة نفسها . كما تشمل هذه البوادر أعراضا حسية تتلخص فى رؤية أضواء وأجسام وهمية وسماع طنين غير عادى وتغير فى مذاق اللسان . وهناك أعراض حركية تشمل اضطرابا فى بعض العضلات وارتجاف جفنى العين والسعال ، أما الأعراض النفسية فتتلخص فى توارد أفكار مفاجئة وأوهام الهلوسة ، و يصحب النوبة فقدان مفاجئ للشعور وهو من المظاهر الرئيسية المميزة لها ، و يقع المصاب صريعا

وتنقبض العضلات انقباضا شديداً وتتيبس الأطراف وتسقط الرأس وتنقلب مقلتا العين . وقد تصيب التقلصات عضلات الصدر فتصدر عنها أصوات لا إرادية منها الهمهمة والأنين والمص ، وقد تقف عملية التنفس نتيجة ذلك فينشأ عنها تلون الجلد باللون الأزرق cyanosis .وتستمر النوبة من عدة ثوان إلى دقيقتين وتتبعها عادة موجة من الانقباض والانبساط العضلى لا توافق بين حركاتها قد تستمر ثلاث دقائق . وتهتز الأطراف بحركة واسعة وتتخذ عضلات الوجه صورة انقباضية ، وينطبق الفكان بشدة بحيث يحتمل قطع اللسان . كما تصحب عملية التنفس أصوات واضحة مع كل شهيق وزفير ، مع تدفق الزبد من الشدقين . ويتصبب الجسم عرقا ، وقد يفقد المصاب قدرة التحكم فى عضلات المثانة والمستقيم . ثم تأخذ الحركات فى الهبوط تدريجيا حتى تصل إلى حالة استرخاءة مريحة وتأخذ عملية التنفس فى الهدوء ويروح المصاب فى سنة من النوم فى بعض الأحيان . وبعد صحو المصاب من غفوته يشعر بالإجهاد العضلى والصداع والميل إلى القىء ، وقد يستمر فترة تبدو عليه البلادة ويصعب عليه تقدير فترة غفوته . هذه المظاهر العامة التى تميز الصرع الأكبر تختلف اختلافا واضحا من مصاب إلى آخر ، ومن نوبة إلى أخرى لدى نفس المصاب ، من حيث شدتها وديمومتها وأثرها ولكنها نادراً ما تفضى إلى الوفاة التى إن حدثت فمرجعها إلى شدة الهبوط فى القلب أو الاختناق أو إصابة المخ بسبب شدة الصدمة أثناء السقوط على الأرض . وقد قام William Spartling بفحص ٥١٦ حالة من حالات الصرع الأكبر فوجد أن مدة النوبة كانت تتراوح بين نصف دقيقة وخمس دقائق أى بمتوسط ١٫٧ دقيقة . كما وجد لينوكس أنه من بين ١٥٠٠ من مصابى الصرع الأكبر كان ٤٠٪ منهم تنتابهم النوبات ليلا ونهاراً على السواء ، ٣٦٪ أثناء النهار فقط ، ١٥٪ أثناء الليل ، على أن هذه النسب لم تكن ثابتة إذ أن البعض كان يتحول من طائفته إلى طائفة أخرى .

أما الصرع الأصغر Petit mal فيتميز بأن البوادر المنبئة لا تسبق نوباته إلا فى حالات نادرة ، فالمصاب تفاجئه النوبة التى تستمر من ٥ إلى ٣٠ ثانية ، ويتمكن فى أغلب الحالات من أن يعصم نفسه من السقوط رغم فقدانه لوعيه وسقوط ما قد يحمله فى يديه من الأشياء ، ويكتسب وجهه لونا شاحبا ويتخذ وضعا ثابتا ، وتبدو اهتزازات فى الحاجبين أو الجفنين وكذلك فى الأكتاف والأذرع ولكن بدرجة أقل حدة . وقد يستمر فى نشاطه أو فى العادة يتوقف ثم يستأنفه من جديد عند ما يعود إلى وعيه ، ويتمكن فى أغلب الأحوال من تقدير ديمومة إغفاءته . والإصابات بالصرع الأصغر أكثر شيوعا من الإصابة بالصرع الأكبر وقد تحدث مئات من النوبات يوميا دون أن يلاحظها أحد وذلك لخفة وطأتها وقلة مدتها . كذلك ينتشر هذا النوع من الصرع انتشارا كبيرا لدى الأطفال والمراهقين عن غيرهم ، ويميل إلى الامتناع حالما يتخطى الفرد مرحلة المراهقة ، ولكنه قد يستمر مدى الحياة إن لم يكتشف أمره ويؤخذ بالعلاج .

الصرع والقدرة العقلية :

وكان مما ناله اهتمام العلماء علاقة الإصابة بالصرع بالقدرة العقلية ، وهنا بدأت الأقوال تتضارب فى أثر الإصابة الصرعية فى الحد من المستوى العقلى فمن قائل بأن العلاقة لا أساس لها من الحقيقة بدليل أن الكثير من عظماء التاريخ كانوا من ضحايا تلك الإصابة ومنهم لورد بيرون و باسكال و يوليوس قيصر والاسكندر الأكبر وموباسان وغيرهم ؛ ومن قائل بأن كثيرا من المصروعين لا يخلون من مظاهر الضعف العقلى خصوصا فى الحالات الشديدة من الإصابة ومرد ذلك إلى التلف الذى يصيب المراكز المخية وما يتعرض له المصاب من نوبات حادة .

كيف يعالج الصرع :

يجب أولا أن ندرس حالة المصاب من الناحية (النيورلوجية) بأن تؤخذ بالأشعة صورة لدماغه ، كما يجب أن يفحص من الناحية الطبية العامة فحصاً دقيقا بحيث يحلل دمه و بوله .

ولقد أصبح علاج هـذه النوبات الصرعية ميسورا بعد الوصول إلى الكشف عن أسبابها وتحديد موضعها إذ أنه ثبت أن كثيرا من هذه النوبات مرده إلى وجود أورام بالمخ أو التصاقات بأغشيته فإذا ما كشف طبيب الأعصاب عن أسباب هذه النوبات وتمكن من تحديد موضعها تحديدا دقيقا بواسطة (رسّام المخ الكهربائى) صار فى استطاعة جراح الأعصاب استئصالها وفى هذه الحالة يكون شفاء المريض مؤكدا .

هناك نوبات صرعية ناتجة من أسباب أخرى لا يمكن علاجها جراحيا ولكن ليس معنى ذلك أن يترك المريض دون علاج إذ أصبح من الممكن علاج هذه الحالات أيضا ، إلا أن علاجها يحتاج إلى زمن طويل وعناية تامة من الطبيب كما يحتاج إلى صبر وأناة من المريض نفسه . وتعالج هذه الحالات بواسطة مستحضرات الفينو بار بيتال والأبانيون والتريديون .

و إليك بعض ما يمكن عمله عند ما يشعر المصاب بالبوادر الممهدة لظهور النوبة الصرعية :

الإسراع بوضع المصاب على سرير ، ووضع منديل ملفوف أو جسم صلب بين أسنانه حتى لا يعض لسانه . و بعد أن تنتهى النوبة يجب أن نشجع المريض على الراحة والنوم و إذا كان المريض ممن يدمنون المخدرات والخمور ، فانعمل جاهدين على منعه من تعاطيها كما نعمل على تنظيم حياته الخاصة ، و إذا كان المصاب ممن يقودون السيارات أو يميلون إلى السباحة أو يعملون فى مصنع

بالقرب من الآلات الخطرة ، فلنباعد بينه و بين ممارسة هذه الأشياء أو التعرض لها ، ومن المستحسن كذلك ألا نشجعه على الزواج ، إلا فى الحالات التى تقبل الزوجة فيها أن تكون دائما على حذر من عواقب هذا المرض ، أو أن تكون من الأشخاص الذين يميلون إلى تحمل المسئوليات .

أما فى الحالات التى يكون المصابون فيها من الأطفال ، فيجب العمل على أن تكون البيئة المنزلية هادئة مستقرة ، خالية من النقد والتقريع والتبكيت، ذلك لأن تجنب هذه الأشياء يعطى الطفل الفرصة للشعور بالمسئولية ، و يشجعه على أن يعيش عيشة ملائمة منسجمة ، ولا ضير فى أن يحضر هؤلاء الأطفال المرضى فى المدارس العادية ، إذا كان المسئولين بها خبرة تتصل بهذا المرض ، و إلا كان من الضرورى إرسالهم إلى مدارس خاصة .

(٣) الكوريا Chorea

الكوريا عبارة عن اهتزازات أو حركات لا إرادية ، نمطية ؛ وهذه الحركات قد تصيب الوجه (رفع الحاجبين إلى أعلى) أو الفم ، وقد تتحرك مقلة العين من ناحية إلى أخرى وتتحرك الرأس تبعاً لذلك . وفى الحالات الشديدة تصيب هذه الحركات الأطراف ، حيث نشاهد حركة اثناء الساعد مع حركة فى إصبع اليدين ، و يقابل ذلك حركة أخرى عكسية فى الذراع المقابل .

ان معظم حالات (الكوريا) التى يصاب بها الأطفال تعرف باسم Rheumatic Chorea ، وهى تحدث نتيجة روماتزم حاد يؤثر على المنطقة « تحت المخية basal ganglia » .

أعراض أخرى تصاحب الإصابة بالكوريا :

(١) ثقل فى الكلام ، إذ تخرج الكلمات متقطعة ، وعلى شكل انفجار .

(٢) يتأثر المضغ والبلع لدرجة لا تسمح للمصاب بتناول الطعام إلا بالطرق الصناعية .

(٣) يحدث فى الحالات الشديدة ارتخاء عام فى جميع عضلات الجسم ، وقد يلازم المريض الفراش لعدم قدرته على الجلوس .

(٤) تزداد الأفعال العصبية المنعكسة فى الدرجة عن الحالات الطبيعية .

(٥) حالة انفعالية غير مستقرة وقلقة . وقد يصاحب هذا القلق النفسى عدم القدرة على النوم والتهييج .

(٦) اضمحلال عقلى (أحيانا) .

القسم الثالث :

النقص العقلى ومظاهره

تمهيـد :

إن للنقص العقلى أثره فى اكتساب اللغة عند الطفل ، وفى مدى قدرته على استعمالها . و يتجلى ذلك الأثر فى قلة المفردات وفى أن الأفكار تتصل دائما بالمحسوسات مع عجز والتواء فى طريقة النطق .

و يعرف النقص العقلى بأنه « حالة عدم اكتمال النمو بدرجة تجعل الشخص غير قادر على مواءمة نفسه للبيئة العادية و بحيث لا يستطيع الاحتفاظ ببقائه وحياته بين غيره بدون إشراف أو حماية أو رعاية خارجية على أن يكون ذلك ملازماً الشخص من بدء حياته الأولى »[1] ، وتشمل حالات النقص العقلى Mental defeciency الفئات الآتية :

(ا) طبقة ضعاف العقول feeble-minded وتقع نسبة ذكائهم بين ٥٠ — ٧٠ تقريبا ، وتبلغ نسبة وجود هذه الطائفة بين أفراد المجتمع حوالى ٧٥ر٪ ويطلق على أفراد هذه الطائفة أحيانا الإصطلاح « مورون Moron » .

(ب) البلهاء Imbeciles وتقع نسبة ذكائهم بين ٢٥ و٥٠ تقريبا وتبلغ نسبة وجود هذه الطائفة فى المجتمع حوالى ١٩ر٪ .

(جـ) المعتوهون Idoits وهم أحط طبقات الضعف العقلى وتبلغ نسبة وجود هذه الطائفة فى المجتمع ٠٦ ر٪ أما نسبة ذكائهم فهى أقل من ٢٥ .

ومن الممكن أن نقسم أسباب النقص العقلى إلى عاملين رئيسيين :

(أولا) عوامل وراثية تتصل بالناحية التكوينية التى تؤثر فى تكوين

---

(١) عيادات العلاج النفسى للدكتور محمد خليفة بركات ص٦٧ .

الخلايا . إن هذا النوع من النقص العقلى معروف بإسم النقص العقلى الابتدائى أو الأولى Primary amentia ويمكن التحقق من هـذا النوع عن طريق دراسة التاريخ التطورى للحالة وكذلك عن طريق دراسة التاريخ العائلى لمعرفة ما إذا كان هنالك أثر للنقص العقلى فى الأسرة .

(ثانياً) عوامل بيئية وهى العوامل التى تؤثر بعد تكوين الجنين سـواء أكان ذلك أثناء الحمل ، أم أثناء عملية الوضع أم بعد الولادة . إن إصابة الأم فى الأسبوعين الأولين من الحمل بالحصبة الألمانية مثلا مدعاة إلى احتمال تعرض الجنين لإصابات فى المخ تؤثر بدورها على الخلايا الخاصة بالناحية الذهنية . وقد يحدث فى بعض الحالات الأخرى أن ينتج عن الولادة العسرة التى تحدث جروحا وكدمات فى المخ « أن يتحول الطفل الذى عنده استعداد لأن يكون مفرط الذكاء إلى طفل أبله أو معتوه ويتضح من هذه الأمثلة كيف تؤثر البيئة الخارجية فى الاستعدادات الوراثية التى يولد الطفل مزودا بها .

ولقد اتفق على تسمية النقص العقلى الذى يرجع إلى عوامل بيئية بالنقص العقلى الثانوى Secondary amentia وهو يوجد بنسبة ٢٠ ٪ من مجموعات حالات النقص العقلى ، بينما النوع الأول يوجد بنسبة ٨٠ ٪ .

وقد يصحب النقص العقلى فى بعض الحالات خصائص جسـمية معينة نلاحظها فى طائفة من المترددين على العيادات النفسية ويمكن تقسيم تلك الطائفة إلى فئتين :

١ — الأطفال الـكُتم (cretins) . ٢ — الأطفال المنغوليين (Mongols)

ويمتاز أفراد الفئة الأولى بالقصر وصغر الجثة بحيث لا يتناسب سنهم مع مظهرهم الخارجى ، فليس هناك مظهر للنضوج الجسمى عليهم . وهؤلاء لا يفطن

أهلوهم إلى حالتهم فى السنين الأولى من حياتهم ، ولكنهم يلاحظونها بعد أن تكبر سنهم و يظهر عدم التناسب بينها و بين المظهر الخارجى .

وأبرز الصفات الجسمية فى هؤلاء استدارة المعدة وقصر الذراعين والساقين وجفاف الجلد وخفة الشعر واستدارة الوجه وتضخم اللسان ويرجع السبب فى تلك الحالات إلى نقص فى إفرازات الغدة الدرقية .

و يمتاز أفراد الفئة الثانية بأنهم يشبهون إلى حد كبير سكان الصين الشمالية فى فرطحة الأنف . واتساع المسافة بين العينين ، مع كبر فى الرأس وقصر فى الرقبة ، يصحب كل ذلك ضخامة فى الكفين والأصابع لا تتناسب مع السن ، كما أن المظاهر الجنسية الثانوية تكاد تنعدم عند هؤلاء كشعر العانة و بروز الثديين .

أما من الناحية الانفعالية ، فيلاحظ على هؤلاء الميل إلى السرور والمرح والضحك بصوت عال . بالإضافة إلى أنهم كثيرو الحركة قديرون على التقليد لدرجة تلفت النظر .

أما عن سبب تلك الحالات فلا يزال موضع دراسة ، فهنالك من يعزوه إلى مرض الزهرى الموروث ، وهنالك من يقول بأن تفاوت الزوجين فى السن مدعاة إلى إنسال هذا الصنف من الأطفال الشواذ ، بينما يرجع آخرون سبب ذلك إلى أمراض تصيب الأم أثناء مدة الحمل ، و يقول بعضهم إن لهذا الشذوذ علاقة بالغدة النخامية .

وأهم ما نلاحظه فى كلام الطفل (المنغولى) هو صوته الأجش المرتفع ، ونطقه البليد الجاف ؛ وعند فتح أفواه (المنغوليين) نجد أحيانا تشويهات داخلها ، فى الحلق أو فى الأسنان .

وليس فى وسع الإخصائى النفسى أو الكلامى أن يقدم أى معونة إلى

هؤلاء ولـكن أمر علاجهم يوكل إلى الطبيب البدنى ، ولعل الطب الحديث يخرج علينا بطرق جديدة لعلاج هؤلاء .

الضعف العقلى والتأخر الدراسى :

إن التأخر الدراسى نوعان : نوع عام وآخر خاص . ويعتبر الغباء[1] من بين العوامل الرئيسية التى تؤدى إلى التأخر الدراسى من النوع العام . أما التأخر الدراسى (الخاص) فيظهر أثره فى مادة معينة كالحساب أو الرسم أو اللغة مثلا ؛ وسبب ذلك يرجع إلى عدم وجود القدرة الخاصة أو الموهبة الخاصة لدى التلميذ فى هذه المادة بعينها .

بعض نتائج قياس الذكاء فى مدارس المرحلة الأولى :

أجرى المؤلف بالاشتراك مع الدكتور صبرى جرجس بحثاً إحصائيا لمعرفة نسبة المتخلفين (أى الذين يقل ذكاؤهم عن ٧٥) فى مدينة القاهرة وفى ثلاثة أحياء مختلفة منها هى : حى الإمام الشافعى وحى الحلمية الجديدة وحى جاردن ستى ، قصد من اختيارها أن تمثل المستويات الاجتماعية الثقافية المختلفة ، وقد شمل هذا البحث عينه تبلغ ٣٤١٢ تلميذاً وتلميذة . ولقد اتضح من البحث أن نسبة المتخلفين من هؤلاء الأطفال تبلغ ٥٪ من المجموعة كلها — ولا تزال هذه النسبة مرتفعة إذا ما قورنت بمثيلاتها من الإحصاءات الخارجية (تبلغ هذه النسبة حوالى ٢ — ٢٫٥٪) .

وبمقارنة هذه النسبة بين تلاميذ المناطق الثلاث التى أجرى عليها البحث ، تبين أن هناك تفاوتاً غير قليل بينها ، إذ تبلغ نسبة هؤلاء الأطفال فى حى

---

(١) قد اصطلح على اعتبار من تقع نسبة ذكائهم بين ٦٥ ، ٨٥ أغبياء . ارجع لكتاب عيادات العلاج النفسى للدكتور خليفة بركات .

الإمام الشافعى ٩٫٥٪ وفى حى الحلميــــة الجديدة ٣٪ وفى حى جاردن ستى ١٫٥٪ .

والسؤال الذى يواجهنا الآن هو : هل يمثل هذا الارتفاع الواضح فى نسبة المتخلفين بحى الإمام الشافعى قصورا فعليا فى القدرة الذهنية هو ما يعرف بالنقص أو الضعف العقلى الذى يدعو إلى العمل على إنشاء مدارس أو فصول خاصة تلائم القدرات الذهنية المحدودة لهؤلاء الأطفال ؟ أو أن قدراً كبيرا أو صغيرا من هذا الارتفاع راجع إلى عوامل بيئية متنوعة كالحالة الاقتصادية والثقافية والصحية التى اتضح لنا من مشاهداتنا العامة ومن البحث الاجتماعى والصحى الذى أجرى أنها بالغة السوء فى حى الإمام الشافعى مما يجعل إفادة الأطفال الذين يعيشون فى مثل هذه الظروف من نوع التعليم الذى يقدم لهم الآن محدودة جدا — فإن المشكلة فى هذه الحالة تخرج من النطاق التربوى المحض إلى النطاق العام ، ويحتاج بالإضافة إلى الرعاية التربوية إلى رعاية صحية واجتماعية شاملة .

وفى رأينا أن كلا العاملين متداخلان — وأنه إذا كان الأمر يقتضى إنشاء فصول أو مدارس خاصة لذوى العطاء الذهنى المحدود فإن هذا الإجراء على ما له من ضرورة وما فيـه من نفع لا يكفى وليس فيه الحل الكامل للمشكلة ، إذ أن بيئة ترتفع فيها نسبة المتخلفين ومن إليهم من دون المتوسطين على نحو ما أوضحنا وتشترك فى هـذا الارتفاع العوامل البيئية والشخصية معا لا يكون للتعليم الابتدائى بوضعه الراهن فيها قيمة فعلية ، بل لعله ينطوى على خسار كبير ، ما لم تعدل خططه ومناهجه بحيث لا يظل على هذا النمط الموحد لأطفال المرحلة الأولى جميعا مهما تتباين قدراتهم الخاصة وظروفهم البيئية .

(ا) تدريس القراءة والهجاء والـكتابة فى هذه الفصول الخاصة :

يحسن أن يكون تعليم التلاميذ القراءة والهجاء والـكتابة قائما فى أساسه على تقسيمهم إلى مجموعات وفقا لأعمارهم الزمنية والعقلية ، و يستحسن أن يكون هذا التقسيم على الأساس الآتى :

١ — أطفال أعمارهم الزمنية من (٧ — ٩) وأعمارهم العقلية (٤ — ٦)
٢ — » » » » (٩ — ١١) » » (٥ر٥ — ٧)
٣ — » » » » (١١ — ١٣) » » (٧ — ٥ر٨)

ونرى أن يكون تعليم أطفال القسم الأول على النحو التالى :

يبدأ بالقراءة أولا دون الـكتابة وتعلم القراءة عن طريق الصور والبطاقات التى تحتوى على كلمات أو عبارات ذات معان متصلة بخبراتهم اليومية . والأساس الذى يقوم عليه التعليم لهذا الفريق من الأطفال هو تكرار المشاهدة الذى يؤدى إلى تمييز أو تذكر الشكل الكلى العام للـكلمة أو العبارة ، دون الدخول فى التفاصيل الجزئية لمحتوياتها فى هذه المرحلة من التعليم .

أما تعليم القسم الثانى فإنه يكون على النحو الآتى :

يعطى الأطفال قصصا قصيرة متصلة بخبراتهم اليومية تكتب إما على السبورة أو على بطاقات . و يدرب الأطفال على قراءة مضمون هذه القصص لمعرفة الفكرة منها بوجه عام دون الاهتمام بالتفاصيل الجزئية . وعملية تعلم القراءة فى هذه المرحلة تخرج من النطاق الضيق للـكلمة أو العبارة إلى مجال أوسع يتضمن أكثر من فـكرة واحدة .

و يمكن فى هذه المرحلة أيضا أن يطلب من الأطفال رسم صور أو تعرض عليهم بعض الصور التى سبق لهم دراستها ثم يطلب منهم وصفها شفويا

أو التعبير عنها بكلمات مكتوبة مختصرة . إذ أن هذه المحاولات تكون مناسبة طيبة لبدء تدريبهم على الكتابة المبسطة .

أما تعليم أطفال القسم الثالث فإنه يكون على النحو الآتى :

يستطيع الأطفال فى هذه المرحلة قراءة كتب المطالعة للأطفال العاديين من الجزء الأول إلى الثالث .

وبالإضافة إلى ذلك توجد نواحى نشاط عامة تتصل بنمو القدرة على القراءة والكتابة يمكن الاستفادة منها فى تعليم أطفال هذه المرحلة منها :

(ا) عمل مجلة للفصل .

(ب) قصص تمثيليـة .

(حـ) ألعاب جمعية تحتاج إلى استعمال ألفاظ معينة .

(د) ربط كلمات بمدلولها .

(هـ) قراءة أوامر وتنفيذها .

(ب) تدريس مبادئ الحساب :

ليس للطفل ناقص العقل القدرة على تفهم المدركات الحسابية المتقدمة أو العالية ولذلك ينبغى الاقتصار فى تعليم هؤلاء الأطفال على المبادئ الحسابية التى لا تحتاج إلى فهم عال أو إلى الفهم الذى يقوم على التعميم أو يعتمد على الأمور المعنوية ويحسن أن يتصل تعلم المبادئ الأولى للحساب بالأمور الآتية:

(ا) العـــد .

(ب) الزمن (الساعة — اليوم — الأسبوع — الشهر — السنة) .

(ج) النقـود وقيمتها .

(د) المقاييس والأحجام .

وهناك مبادئ عامة يجب مراعاتها كخطوة أولى لتنبيه هؤلاء الأطفال إلى إدراك المعانى الحسابية :

(ا) العد بصوت مرتفع أو خلال بعض الأناشيد أو الإيقاعات .

(ب) ربط المدرك العددى بمدلوله اللفظى على أن يكون ذلك بطريقة حسية.

(ج) خلق مواقف عملية (اجتماعية) يدرب فيها الأطفال على حل مشكلة حسابية معينة ، ونستطيع أن نوضح ذلك بالمثال التالى :

هناك ثلاثة أولاد و بنتان ، نريد إعطاء كتاب لكل منهم ، فما هى الكتب اللازمة لهم ؟

أما اكتساب المهارات الحسابية فيمكن أن يتم على النحو الآتى وفقا لنمو الطفل العقلى :

(ا) الأطفال ذوو العمر العقلى من (٦ — ٧) فى استطاعتهم الاستفادة من المبادئ الأولى للجمع والطرح .

(ب) الأطفال ذوو العمر العقلى (٧ — ٨) يمكنهم إدراك الأعداد حتى ١٠٠ وكتابتها وتبين العلاقة بينها . كما يمكنهم معرفة الوقت و إجراء عمليات الجمع والطرح البسيطة وكذا أيضا استخدام مقاييس الطول والوزن ومعرفة أيام الأسبوع والشهر والسنة . . . الخ .

(ج) الأطفال ذوو العمر العقلى (٨ — ٩) يمكنهم فهم قيم النقود واستعمال أجزاء الواحد الصحيح و إجراء عمليات الجمع والطرح الأكثر صعوبة كما يمكنهم إجراء عمليات الضرب والقسمة البسيطة .

الفهرس

الصفحة

ثانيا — علم نفس الطفولة وطبيعة النمو

الباب الأول

الطفولة

النمو العادى وأهم مظاهره

الفصل الأول

النمو الجسمى والعضلى وعلاقتهما بالنمو الحركى

حياة الطفل الانفعالية

النمو الحسى وعلاقته بالنمو العقلى

الصفحة

النمـــو اللغوى

نمو الطفل الاجتماعى

الصفحة

الباب الثانى

مرحلة المراهقة

الصفحة

الصفحة

الباب الثالث

مشكلات الطفولة

الصفحة